

الاختباء في عجلة هامستر

عصام الزيات

رواية



الاختباء في عجلة هامستر

عصام الزيّات: الاختباءُ في عَجَلَة هامستر، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٥

رقم الإيداع: ٢٩٦٨٦/٢٠٢٤ - التزقيم الدولي: 978-977-806-449-0

جميعُ حُقوقِ الطبعِ والنشرِ محفوظةٌ للناشرِ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.
© دار دَوْنُ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

عصام الزبّات

الاختباء في عجلة هامستر

رواية



الفصل الأول

عجايبي

تقتحمُ سيارةُ الشرطة الحُشدَ المُتكدِّسَ أمامَ البيت، يُفسحون لها الطريقَ وأعينهم مُعلّقة بمن فيها، اليوم هو موعدُ تمثيلِ الجريمة.. تمضي القضيةُ سريعاً؛ فالنيابةُ تخشى إذا طالت المدّة أن تنفجرَ بؤرة دمٍ جديدة في القرية.

نزل من سيارة الشرطة شابٌ طويلٌ، رأسه فيه صلَعٌ خفيفٌ من المقدمة، يرفع يده ليحمي عينه من الشمس؛ شمس «عزبة جهنم» حامية طوال العام، لكنّها في الصيف تتحوّل إلى كُتلة هَبّ؛ ربما لذلك أطلقوا عليها اسم «عزبة جهنم».

عاش عُمره في شمس «العزبة» ثم شمس الخليج، لكن يبدو أن ظلامَ الحبسِ قد أنساه الضّوء، وجعله يُنكر الشمسَ كلّها.

يدفعه أحدُ العساكر ليتحرّك نحو المنزل حيث سيُعيدُ تمثيلَ جريمته.. حُطواته ثقيلة؛ فأذنه تُحاول استراقَ بعض الكلمات من الحُشدِ المُحيط به لعله يعرف لماذا لا يرى أهله بين الناس.

«أنت على حقّ».

«أنت تستحقُّ القتل».

«لا نُصدّق موضوع الطعام»...

لا يفرح لكلماتهم ولا يحزن.. يتقدّم ببطءٍ نحو مسرح الجريمة ليصعدَ على خشبته بطلاً لإقامة عرّضه. ليس عرّضاً أعجب الجمهور فطالبوا بإعادته، رغم أن هذا الحشد يُجبرك أن التذاكر كانت ستنفد لو أن الشرطة خصّصت تذاكر لكلِّ تمثيلٍ للجريمة. يدفعه أحدُ العساكر قائلاً:

- ما دُمت جباناً كنت سلّمتها لأهلها.

لا يعرف العسكري أن وقوعَ الجريمة يختلفُ عن إعادة تمثيلها. في الحادث الأصلي يكون وعيك متوارياً خلفَ شعورك بالغضب ورجبتك في الانتقام، يكون الحادثُ وليد لحظة غضبٍ واحدة، لحظة انفجرَ فيها بُركان التراكُمات في وجه شخصٍ سيئ الحظّ، تصادف وجوده في الوقت الخطأً ليدفع روحه ثمناً لأخطاء الكون، دون النظر هل ارتكب هو خطأً من الأصل، أو هل كان خطؤه يستحقُّ القتل.

تقطع سيدةٌ غاضبة الطّوق الأمني فتصمت الهّمّهات.. تنفذ إلى «عجايبي».. تصفعه، وتبصق عليه، تُخبره أنه حتى لو أعدموه فلن تبرد نارها؛ توعّدهت أنها ستصل إليه في سجنه قبل أن يصل إليه جبل المشنقة، لتذبّحه كما ذبح ابنتها الوحيدة.

تلطمُ خديها قائلةً:

- أنا السَّبب.

لطمت خديها وأكملت:

- قلت لهم عجائبي لُقطة.

استمرت في صَفْع نفسها دون أن تنطق، تلوم نفسها أنها من جعلتهم يترددون في رفض «عجائبي».. وأنها الآن ترى نفسها الأم التي ساقَت ابنتها بيدها للكلب المسعور الذي نهش روحها وشرَفها. منذ وصلت الأم إليه.. أغمض «عجائبي» عينيه لتفعل به ما شاءت، كانت لحظات غضبه قد تلاشت، ودوافع قتله قد اختفت، وتبقي «عجائبي» الذي يشعر أنه خذل الجميع. فتح عينيه لينظر إليها فجفَلت الأم حين رأت عينيه تُفتحان. هي خالته، لكنها لم تُعد ترى فيه «عجائبي» ابن أختها.. صار وحشًا يقتل بلا رحمة، يقتل لأوهام في رأسه.

قطعت دَفْعَة العسكري له الرد الذي كان ينوي قوله.

تقدّم آخر لسحب الأم بعيدًا، كأن العساكر تأمروا ليسمحوا للأم بالتقدم وَصَفْعه، ثم تأمروا لجره بعيدًا بالكلمات التي ابتلعها.

مضى الحشد خلف مجموعة العساكر التي تجرُّ «عجائبي» نحو شقة الزوجية. مسافة طويلة تفصل بين مكان وقوف سيارة الشرطة والمنزل، لكن الشارع أضيق من أن يسمح بمرور سيارة. رأس «عجائبي» لم يتوقّف عن الدوران للأعلى؛ من شُرْفَة بيت لشباك بيت آخر. في الوجوه التي تراقب نظرة غير الإشفاق عليه أو الخوف منه.. نظرة لا تبدو متفاجئة بجريمة كهذه، ربّما لأن القتل فعلٌ معتادٌ في «عزبة جهنم»، قريةٌ منسية من قرى الأقصر.

لكنهم لم يعتادوا الذبح.. أهلها والطب الشرعي يقولون: إنها لم تُذبح. لكن أهالي القرية متأكدون أنه ذبحها، هم يألفون الرصاص والقتل ثأرًا بين الرجال، أو أن تقتل المرأة زوجها، أو يقدم الرجل زوجته لأهلها ليقتلوها إذا علم عنها ما يمس الشرف، لكن لا يذبح زوج زوجته.

نظرتهم لا تحمل المفاجأة، بل المعرفة، نظرتهم تقول ل«عجائبي» كنا نعرف أنك لا بد أن تختم قصتك بجريمة.. حياتك التي بدأتها مهندسًا يحمل حقيبة ظهر ومسطرة خشبية طويلة ثم انحدرت إلى سائق ميكروباص في أوسطها كان لا بد لها أن تنتهي بتلك النهاية.

حاول «عجائبي» أن يتلافى نظراتهم، لم ير أباه ولا أخواله أو أعمامه وسط الحشد، ولا أمام البيت حين وصل إليه.

منعتهم الشرطة خوفًا من اشتباك بين العائلتين؛ فعائلة «إنجي» تراه مجنونًا قتل ابنتهم بشكّه، أما عائلته والناس فيرونه رجلًا انتقم لشرفه حين اكتشف خيانة زوجته.

آثرت الشرطة أن تمنع مزيداً من الدم، فاستدعى محافظ الأقصر كبار العائلتين لملاقاته في وقت تمثيل الجريمة كي لا يفعل أحدهم فتبداً حرب لا تنتهي.

بين الحشد لمح «عجايبى» الدكتور عمران، طلب «عجايبى» من العساكر أن يسلم عليه لكنهم رفضوا. لَوَّح له الدكتور فأشار له «عجايبى» برأسه، ثم اختفى رأس «عجايبى» في مدخل البيت. عين «عمران» تراقب ما يحدث وبداخله شعور واحد، أنه يكره هذه القرية، والبلد كله.

عمران

كره الأقصر فور دخوله القطار مسافرًا إليها للمرة الأولى.. لعن الركاب والوزارة ولعن نفسه، عُرست قدمه في عُلبة زبادي ملقاة في طُرقة القطار، فلعن نفسه مرة أخرى.
وصل إلى مقعده أخيرًا، يجرُّ حقييته التي انكسر مقبضها قبل وصول القطار ببضع دقائق. رائحة البول والسجائر تملأ العربة، حجز القطار المكيف كي يهرب من تلك الروائح.
«أين المفر»، قالها لنفسه.

ركاب القطار المكيف هم ركاب القطار العادي، كلنا أمام نداء الطبيعة والنيكوتين واحدٌ.

القطار وصل إلى محطة «طنطا» الواحدة صباحًا، متأخرًا بساعة عن مواعده. كان متهاكًا يبدو أنه يجري على تلك القُضبان منذ أيام الإنجليز، لكنَّ محصّل القطار سيخبره أن القطار دخل الخدمة منذ خمس سنوات فقط.

لم ينفعل لهذا التأخير.. أكسبته الحياة مفهومًا خاصًا عن الوقت، الساعة والساعتان أخفّ الأضرار في مسألة التأخير، المهم أن يأتي القطار. لكن على ما يبدو أن التأخير ما زال يُزعجه، لكنه يكتم غضبه، يتربص ذلك الغضب بأهون سبب لينفجر، وكانت عُلبة الزبادي هي الإبرة التي فجّرت هذا البالون المليء بالغضب.

أسند رأسه إلى الشباك المُعلق إلى جواره.. يرى الناس يفردون البطاطين، وبعضهم يلبس «جاكت» ثقيلًا، الأطفال يتكوّرون في أحضان أهاليهم، والأمهات يلبسن الرُّضّع حفاظات جديدة.. هو يرتدي نصف كمّ، و«بنطلون جينز» ضيقًا.

لكنه لم يكتشف أنه بحاجة إلى ارتداء بنطالٍ في سفره إلا بعد أن حزم الحقيبة وأغلقها بصعوبة، أقسم أنه لن يفتح هذه المغارة إلا حين يصل إلى المستشفى، فربما تنقطع السوستة. وهذه السفرية مليئة بالكوارث؛ فعليه أن يسكت وألا يفعل أي شيء وإلا لن يسافر. أخرج بنطالًا قديمًا لم يرتده أبدًا، لكنَّ «نسرين» أصرت على أنه يلائمه فارتداه.

ملا بسه في الحقيبة كلها صيفيّة، الفصل الأبديّ في العالم حاليًا هو الصيف، منذ أعوام فقدت البشرية رفاهية الفصول. كما أن الأقصر لا تحتاج إلى التوقيت الرسميّ لفصل الصيف كي تكون حارة؛ لذلك يسأل نفسه ساخراً: «لماذا يتدثر هؤلاء كأنهم مسافرون إلى القطب الشمالي، بافتراض أن القطب الشمالي ما زال باردًا؟».

التفت إلى الجالس إلى جواره يخبره:

- القطار سيصل غدًا إلى الأقصر، وليس في فصل الشتاء.

قالها وهو ينتظر ردًا ما من المستمع، لكنَّ المستمع لم يضحك ولم يُرد.

اكتفى الرجل بوضع سماعة الأذن في رأسه، وعدّل وضع مخدّة الرقبة شبه الدائرية حول رقبتة وأغمض عينيه.

«عمران» لم يُحضر سماعة، ولا مخدّة رقبة، كانت أول مرة يرى تلك الأشياء بهذه الكثرة. سافر كثيرًا من طنطا إلى القاهرة. الأدق أنه قضى حياته كلها مسافرًا من طنطا إلى القاهرة، وعائدًا من القاهرة إلى طنطا كي يعود إلى القاهرة لاحقًا. مصر هي القاهرة في رأيه. ليس حبًا في تلك العاصمة الكئيبة، بل يرى أن تمرّ كل شيء فيها جعلها هي الجمهورية الحقيقية. وباقي المحافظات ليست إلا فنادق ينام فيها الناس بعض الوقت كي لا تتكدّس بهم القاهرة أكثر من تكدّسها الحالي.

اهتزّ القطار ٩٣٤ اهتزازة تنبيه للركاب أنه على وشك التحرك، كي يجلس الواقف، ويركب الجالس على رصيف المحطة. أرجع كرسيه إلى الخلف ليفرد ظهره قليلًا. تحرك القطار فبدأ الركاب في إخراج الطعام من حقائبهم، وصبّ الشاي من غلايات لم يدر من أين خرّجت.

سمع كثيرًا عن «قطار الصعيد» لكنه لم يجربّه، والآن يرى كل شيء.

تعجّبهُ مما حوّلَهُ يوحى بأنه سائحٌ جاء من دولة أوروبية، لكنه «ابن طنطا» منذ أربعة عقود أو يزيد قليلًا، في مرحلة لا يعرف متى حدثت توقف «عمران» عن حساب عمره أو ترقيب يوم ميلاده.

ربما بدأ الأمر بعد إنجاب طفله الأول «ياسين» في نفس شهر ميلاده، فكانت «نسرين» تختار ميعاد الاحتفال في يوم وسط بين التاريخين. ثم بعد ولادة «نرمين» بعد ٤ سنوات في شهر مختلف، قررت «نسرين» أن يكون هناك حفل سنوي واحد في موعد مختلف عن تاريخ ميلاد الطفلين، وميلاده، ليكون عيد ميلاد مُجمَعًا. لم يدرك أنها اختارت يوم ١٠ أكتوبر تحديدًا؛ لأنه يوم ميلادها هي، إلا بعد أن لفتت أمّه نظره.

حين أخبرته أمه بتلك الملاحظة ابتسم لها ولم يُعلق، لا يهّمه أي شيء إلا أن يكون البيت هادئًا، وأن يظلّ الشّجار بين «نسرين» وأمّه في حده الأدنى دائمًا، وعمومًا لم يكن مباليًا بأعياد الميلاد.

نصف ساعة من تحرك القطار وبدأ الركاب يتهيئون للنوم. لم يعتدّ النوم في المواصلات، فكانت دائمًا أقصر من أن يغطّ في النوم، لكنّ رحلة الأقصر تستغرق ١١ ساعة، فلا بدّ أنه سينام فيها، لكن ليس في أول نصف ساعة.

ارتفع الشخير وبكاء الرضيع الذين تجبرهم أمهاتهم على النوم. أدرك الآن فائدة سماعة الأذن، لكنه لم يُحضر واحدة؛ لأنه لا يملك واحدة. لسوء حظه أنه يجب الاستماع للناس والحديث معهم، ويرى الساعات فعلاً غير إنساني.

لولا أنه صار مؤخرًا طبيبًا نفسيًا ولا يليق به القول بنظرية المؤامرة، لقال إنّ السماعات اختراع هدفه حبس الناس في خيالهم، كي لا تتواصل البشرية، ويغرقون في شعورهم الخاص فلا يساعد بعضهم بعضًا. فبدلاً من أن يسعى الواحد للفضفضة، أو التشاغل عن حُزنه، أو ينشر فرحته للآخرين فيُخفف ما بهم من بؤسٍ، يختار كل فرد أغنيته حسب شعوره الحالي ليضاعفه.

الأصوات أخذت في الارتفاع كلما انضم فرد جديد لكتائب النائمين، الحّل الآن هو أن ينام مثلهم.. لو لم ينم فسَيُوقَف القطار ويعود إلى طنطا، يعود لمديرية الصحة ليقتل مدام «إيناس» التي وضعت اسمه في تلك المأمورية الملعونة لتُخرج منها زميلاً له تصادف أن اسمه الثلاثي على اسم ابن مدام «إيناس»، رأت فيه ابنها فلم تُرد له البهدلة في «عزبة جهنم» حيث يوجد المستشفى الذي يأكله العجُز ويحتاج إلى شباب الأطباء كي يمنعه من الانهيار.

خبط بيده على الشباك قائلاً: «لو عدت سأقتل ابن مدام إيناس ومن سمّاه». لكنه ابتسم حين تذكرها وهي تُخبره بأن المستشفى بحاجة إلى شباب الأطباء، فرَح أنهم ما زالوا يحسبونه على الشباب، رغم أنه جاوز الأربعين بعامٍ أو اثنين.

حاول أن يستند إلى الكرسي لينام فوجد رقبته غير مرتاحة، تحتاجُ إلى شيء يدعمها، لكن لا شيء؛ لهذا يحمل هؤلاء الركاب على اختلاف طبقاتهم مخدات للرقبة، ومن لا يملك المخدة لفَّ فوطة أو ملاءة سرير وضعها حول رقبته.

في الحقيقة ملاءات وثلاث فوط، لكنه لن يفتح الشنطة.. حشرها ولن يُخرجها، ولو حاول فلن يستطيع، وربما تسقط على رأس الجالس إلى جواره فتقتله.

تذكر نصيحة زميل له أنه منذ اللحظة الأولى لركوب قطار الأقصر أنت لست طبيياً ولا إنساناً، أنت فرد بلا قبيلة تحميه، ولا عائلة تثار لموته؛ لهذا انكمش في كرسيه منذ اللحظة الأولى متجنباً طلب الصمت من أي أحدٍ، أو رجاء الجالس في مقدّمة عربة القطار أن يُطفئ سيجارته؛ ولهذا لن يفتح حقيبته، لن تنخلع فقرات رقبته لو ظلت بلا دعامة بضع ساعات. حتى لو انخلعت لعاد إلى المديرية بعُذر طبي فأعفوه من تلك المأمورية.

تناسى موضوع رقبته حين صدمته الحقيقة الجديدة، يحتاج إلى دخول الحمام. التكييف الذي يعمل على مدار الساعة جعل عربات القطار كالأقطب الشمالي فعلاً. لم يتخيل أن شيئاً يعمل بهذه الكفاءة في بلاده، لكنّ التكييف يؤدي واجبه على أفضل صورة.

استأذن من الجالس إلى جوار الطُّرقة ليقوم نحو الحمام، وقف أمام الحمام دقيقتين يجاهد نفسه لتغلب على تأفّفها من رائحته، انتصرت الطبيعة عليه في النهاية فدخل.

استأذن من الرجل مرة أخرى ليعود إلى مكانه.. عاد وبعد ربع ساعة اكتشف أنه يريد الذهاب مرة أخرى؛ لهذا إذن يدفن هؤلاء أنفسهم تحت البطاطين والجواكت الشتوية. اكتشف «عمران» أنه لم يعرف شيئاً عن السفر إلى الأقصر، رغم أنه سأل وتقصّى كثيراً عن المستشفى ومواعيد القطارات، لكن لم يُخبره أحدٌ بتلك الأشياء. لم تمض من رحلته إلا ثلاث ساعات، عليه أن يقضي ثماني ساعات أخرى في هذا الجحيم البارد.

في المرة الرابعة انفجر فيه الرجل، القيام المُستمر يمنعه هو الآخر من النوم. اعتذر له «عمران» بأنه أوّل

مرة يسافر ولا يعرف أي شيء بخصوص البطاطين والجواكت. نظر إليه الرجل نظرة مُطوّلة، لا تعاطف فيها ولا تفهّم، خطر لعمران أن الرجل لا يفكر إلا في شيء واحد؛ هل يقتله الآن أم حين ينزل من القطار؟! أزاح الرجل قدمه فذهب «عمران» إلى الحمام. عاد فوجد الرجل واقفاً يحمل له دفاية من الصوف، وكوباً ساخناً من الشاي اشتراه من مقهى القطار. مذهولاً أخذ «عمران» الأشياء وشكره. أخرج الرجل قطعاً من البسكويت ليأكلها، فمدّ ل«عمران» بعضها فتناولها. أزاح الرجل غطاء رأسه فبدأ شعره أبيض، وعلى وجهه ملامح رجل سِتّينيّ.

قال لعمران:

- ممكن الشاي يدخلك الحمام أكثر، لكن اشربه وتغطّ بالدفاية واستسلم للنوم ولن تحتاج إلى الحمام إلا قبل الوصول إلى محطتك.

ضحك «عمران» وقال: «حين رأيتك واقفاً ظننت أنك ستقتلني». ابتسم الرجل بهدوء مراعاةً للنائمين حوله، قائلاً: «لماذا؟».

رد «عمران» أنه هكذا أخبره أصحابه، أن القبليّة متجدّرة في الأقصر، ولو أغضبت أحدهم لقتلك. ضحك الرجل قائلاً: «كلام سليم». انتظر «عمران» بقية الجملة، لكن الرجل لم يقل شيئاً إضافياً، فقط أغمض عينيه ونام.

أدفاه الشاي والغطاء، فنام.. لم يفق إلا ويد محصّل القطار تُحرّكه يُخبره أن محطة الأقصر قد حانت. نظر حوله يبحث عن أعطاه الدفاية فلم يجده. سأل القلّة الباقية في العربة عن الرجل الذي كان جالساً إلى جواره، فقال أغلبهم إنهم ركبوا القطار منذ محطة أو اثنتين ولم يكن أحد جالساً إلى جواره.. أحد الجالسين في آخر عربة القطار أخبره بأنه نزل في محطة «ديرمواس»، المنيا.

اقترح أحد الركاب أن يأخذها ويردها لصاحبها. فكلاهما يركب هذا القطار باستمرار. تردد «عمران» في الموافقة، هو يعلم أن الدفاية لن تصل إلى صاحبها، يد الرجل ممدودة تستعجل الرد، فأعطاه له «عمران» ولم ينطق.

وصل القطار واهتز يُجرهم بتوقُّفه.

صعد على الكرسي ليسحب حقيبته. حاول شدها فلم يقدر. رآه شابٌ دخل القطار لبيع ساندويتشات الفول والطعمية للركاب فوضع الطبق من على رأسه، وصعد على الكرسي الذي أمامه ليساعده. أنزلا الحقيبة، وجرها «عمران» على الرصيف، ثم حملها بيديه الاثنتين لينزل بها سالماً المحطة.

عجايبي

بعد أن دفعه العساكر إلى مدخل المنزل، صعد «عجايبي» السلم نحو الشقة.. صعوده ثقيل.. سيسقط على ظهره لولا دفع حشد العساكر له من الخلف. أخلت الشرطة المبنى من سكانه، لم تحتج إلى الكثير من العناء لإفراغ منزل مكوّن من ٣ طوابق فقط، خصوصاً إذا كانت جريمة قتل قد وقعت فيه منذ أيام. هجره السكان منذ عرفوا بالخبر وقرروا ألا يعودوا حتى مرور أربعين يوماً، أو حدوث معاينة الشرطة لإعادة تمثيل الجريمة. يخافون أن تكون روح القتيلة عالقة في المكان تأتي مغادرته إلا بعد الانتقام، قرروا أنه عند تمثيل الجريمة ربما تتلبس ب«عجايبي» أو تصطدم بعسكري فتسكنه، أو ربما تُشعل المنزل بمن فيه حين ترى نفسها تُقتل مرّة أخرى، أمام عدد كبير هذه المرة.. فلم يكن موجوداً في لحظة القتل إلا هي و«عجايبي» وهاتفها.

صعود سلم الشقة يُشبه صعود سلم الطائرة، مساحة ضيقة ودرجاته على مسافات متباعدة، وفي صعوده سلم الشقة الآن، وسلم الطائرة سابقاً، كان يصعد مرغماً. في صعوده لطائرة الخطوط الخليجية منذ بضعة أعوام؛ كان مرغماً على الهرب من نظرات أبناء «عزبة جهنم»، وإشفاقاً على والده.

شعور الأب بالعجز عن مساعدة ابنه يثقل قلبه الأب والابن. ما أصاب «عجايبي» يصيب والده أضعافاً حين يرى ابنه جالساً في غرفته بلحية طويلة وشعر منكوش. لا يصلح معه المشايخ، ولا جلسات الزار، ولم يُجد معه القديس «مارمينا» العجايبي ذاته.

حتى الأطباء الذين دفع لهم أبوه أضعافاً كي يأتوا لابنه في زيارة منزلية سرّية لم ينجحوا في أي شيء. الأم أرادت أن تكون تلك الزيارات سرّية كي لا تُنفر فتيات البلد من الزواج من ابنها إذا ظنوا أنه مجنون؛ فأّمّه لن تزوجه إلا لبنتٍ من جيرانهم. هكذا اتفقت معه، لن يتزوج من بنات مصر، هكذا قررت الأم أن تكون زوجة ابنها عبر نطاق الجغرافيا، دون أي اعتبار آخر.

تلك الجغرافيا هي المتحكمة في قدر «عجايبي» دائماً. تلفظه منطقة فتفتح له أخرى أحضانها، يرتقي في الحُضن المفتوح فتحاول المنطقة الجديدة نهشه فيفر منها. قضى عمره دائراً في فخاخ الجغرافيا.

أول فحّ كان حين قرّر التوزيع الجغرافي للطلبة أن يُلقيه في «جامعة الأزهر» بالقاهرة لأن مجموعته في الثانوية العامة أقل من مجاميع رفاقه، فيدخلون هم الجامعة الأقرب، لكن عليه هو أن يسافر إلى القاهرة إذا أراد أن يدخل كلية الهندسة.

لم يكن لديه بُدّ من دخولها، أحبّ الهندسة وأراد القاهرة منذ البداية. كفاه التنسيق همّ إقناع والديه بكتابة الهندسة بدلاً من الطبّ رغبةً أولى أو ثانية، فلم يُوفق في الحصول على مجموع طب كما كانا يرغبان.

كان والده يرى البناء المتواصل في مستشفى «عزبة جهنم» ويحلم بابنه طبيباً فيه. «عجايبي» كان يراه وهو متوجّه إلى درس الأحياء، لكنه يتخيله سجناً يتسابق المقاولون لإنجازه خلال ٤ سنوات.

يعجبه بناء المستشفى نفسه، والرسومات الهندسية في أيادي المهندسين، لكن لا تعجبه فكرة العمل فيه طبيياً. يراه والده وهو يتأمل المستشفى فيظن أن ابنه قد وقّع في غرام الطب كما وقّع الأب فيه، لكن كان الابن مغرماً بالعقل الذي يحوّل الرمل والإسمنت إلى كيان له أبعاد وواجهة ومرافق.

لم يخبرهما أنه غير رغبته الأولى من طبّ الأسنان إلى الهندسة بعد أن جلس والده معه ساعتين لترتيب الرغبات في إحدى مكاتب «عزبة جهنم» التي بها إنترنت، منذ تلك اللحظة وهو يكرر على سمع نفسه أنه سيصبح مهندساً ثرياً؛ كي يبرر لها دراسة ما يجب دون أن يشعر بالذنب.

تمنى لو كان في التربية والتعليم كي يحوّل إلى علمي رياضة من البداية ويقطع على والديه كل هذا الانتظار والأحلام، ويعفي نفسه مبكراً من ألم الذنب.

لن يترك التعليم كله، لن يصبح تاجر مخدّرات مثلاً، بل يريد اختيار مستقبل آخر. لكنه يشعر بالذنب رغم ذلك.. فأن تكون استثمار والديك الوحيد يعني أن تشعر بالذنب دائماً.

لم يتحدث مع والديه كذلك عن رغبته في السفر إلى القاهرة للخروج من شرنقة «عزبة جهنم». في القاهرة كل شيء، كل لاعبي الكرة الذين يحبهم، وكل الفتيات اللواتي يمكن أن يختار منهن زوجة، والأهم فيها أبرز شركات المقاولات التي يحلم بالعمل بها مهندساً ميدانياً. لكنه تعاهد مع نفسه على أن يؤجل كل شيء حتى يصبح الأول على دفعته، ثم معيداً في الجامعة. تعيين الجامعة هو مفتاح كل الأبواب التي يريدتها.

قبل بداية الدراسة بشهر ذهب إلى جامعة القاهرة ليراها، ترعبه فكرة السخرية من أهل الجنوب حين يدخلون الجامعات في شمال مصر، فسافر ليرى ماذا يرتدي أبناء القاهرة، وكيف يتحدثون. اشترى من القاهرة ملابس، وحقية ظهر، وأدوات الهندسة المختلفة.

لكن لم يستطع أن يشتري كثيراً من اللهجة القاهرية. كلما دخل محلاً وضعه البائعون بين اختياريين: الأقصر أو أسوان؟ وبعضهم جمع الاختياريين يخبرونه بفراصة مصطنعة أنه «من الأقصر وأسوان». ملامح «عجايبي» المنحوتة على صفحة وجهه كتمثال فرعوني تنطق بما يحاول إخفائه.

أزعجه السؤال، فقرّر الانعزال بعد عودته عن أهل «عزبة جهنم» ليعكف على المجموعات التي تجمع زملاءه في الدفعة الجديدة ليقتنص منهم زميلاً قاهريراً يساعده على التخلص من بقايا لهجة الأقصر التي قد تبدر منه في لحظات الانفعال أو الانبهار دون وعي.

بعد ثلاثة أسابيع احتضن والديه باكياً قبل أن يركب الميكروباص الذي سيحمله إلى محطة القطار، لم يكن يريد البكاء، لكن للحظة سقطت دموعه دون أن يشعر قلبه بشيء.

ركب إلى جوار السائق ليُلقي نظرة الوداع على شوارع الأقصر. تحركت السيارة من منزل «عجايبي» إلى جوار المستشفى، قطعت طرقاً ترابية ضيقة. ثم سارت وقتاً على طريق شبه إسفلتية مُحاطة بالزراعات من الجانبين.

رويداً تتوارى القرية خلف الميكروباص، ينظر إليها «عجايبي» في المرآة على يمينه فيراها تبتعد أكثر فيزداد ارتياحه، كأنها مركز للجاذبية يشده إلى الخلف، فكلما تحرك الميكروباص إلى الأمام شعر «عجايبي» بأنه يتحرّر من قبضة هذه الجاذبية ويصبح أكثر خفة.

لكنّ روحه التي ترفض تلك الجاذبية إطلاق سراحها تكاد تتمزق كخيوط مشدودٍ بين قوتين متناحرتين. صعدت السيارة مطلقاً نحو الطريق الرئيسي فزادت من سرعتها، تنفّس «عجايبي» نفساً عميقاً، كأن روحه قد دخلت جسده لتوها.

وصل إلى محطة القطار فوجد القطار المكيف ٩٣٤ ينتظر عليها؛ قطار جديد سيكون «عجايبي» على متن أول رحلة له، كراسيه لا تزال عليها الأغلفة البلاستيكية، ولا روائح به إلا رائحة الأشياء الجديدة.

لا يتعجل الناس الجلوس فيه، يتمشون على أرصفة المحطة كي يحركوا أرجلهم التي ستتجمد من الجلوس في القطار، أو يشترى الشاي والمأكولات بأسعارها الطبيعية قبل أن يضطروا لشراؤها في القطار بأضعاف سعرها.

«عجايبي» كان متعجباً، يريد أن يصرخ في أذن سائق القطار أن يتحرك حالاً إلى القاهرة، وألاً يتوقف في أي محطة في المنتصف.. فلينقله هو إلى القاهرة أولاً، ثم يعود ليمارس هوايات القطارات المعتادة مثل التأخير والتوقف كل خمس دقائق، أو الاصطدام مع قطارٍ آخر.

وضع «عجايبي» حقيبته على الرف؛ حقيبة صغيرة فيها ملابس اشترها من القاهرة، وملاءة ودفاية من الصوف. لو أطاعه والداه لما أخذ معه شيئاً إطلاقاً. فقط يريد المال، وسيشتري هو كل شيء من القاهرة. يجب أن يكون كل شيء على لسانه أو على جسده أو في معدته قاهريراً تماماً.

في الطريق من المحطة إلى المدينة الجامعية شعر «عجايبي» بأنه دخل عالماً آخر.. كأنه يرى القاهرة لأول مرة. زيارته السابقة كانت متعجّلة ورأسه كان مليئاً بالأهداف، لكن الآن هدفه الوحيد أن يمشي في شوارع القاهرة.

نظر إلى شمسها فشعر أنها شمس جديدة؛ شمسٌ مختلفة عن شمس الأقصر الحامية.. جفلت عينه حين رفعها للشمس لكنه استطاع التحديق فيها لعدة ثوانٍ، في قريته لم يكن يجرو ليرفع رأسه ولا عينه نحو الشمس. كأنما تعدّه شمس القاهرة ببداية جديدة لحياة مختلفة يحقق فيها ما جاء إلى القاهرة من أجله، ويعود إلى أهله يخبرهم بأن استثمارهم فيه قد نجح.

في الشوارع رائحة القاهرة، خليط من دخان المشويات الرخيصة وعوادم السيارات وعرق العمّال ورذاذ الشتاء، لكنّ المزيج كوّن في أنفه رائحةً مختلفة؛ رائحة الشمس الجديدة، والقاهرة العاصمة التي تفتح لك أذرعها لتحضنك، لا تطلب منك شيئاً إلا أن تكون فيها، وأن تكون قاهريراً في كل شيء.

حين وصل إلى بوابة المدينة الجامعية اكتشف «عجايبي» الشيء الوحيد غير القاهري الذي لم يتذكّر إخفاءه؛ اسمه.

سأله موظف الأمن عن اسمه ليُقارنه بالأسماء الموجودة في كشوف المسموح لهم بالسكن في المدينة؛ بمجرد أن نطق «عجايبي» اسمه انفجر الموظف ضاحكًا.

عاد يسأله ليتأكد من الاسم فنطق «عجايبي» اسمه بتأن ليفصل حروفه فازداد ضحك الموظف. أخذ «عجايبي» الكشف من يده وبدأ يقلب في الأوراق حتى وصل لاسمه، وأشار له. مد الموظف يده يسأله عن إثبات شخصية، فأخرج بطاقته، لوّح بها للموظف، ثم وضعها في محفظته.

دخل «عجايبي» إلى المدينة مغتاطًا من الموظف، ومن القاهرة. كشفت له سحابة الموظف عن وجه آخر للقاهرة، لم يشك من زحامها الذي جعله يستغرق ساعتين من المحطة إلى الجامعة، ابتلع عوادم السيارات التي يسميها القاهريون هواء. أحب ذلك الهواء الملوث لأنه هواء القاهرة. لكن في أول احتكاك للقاهرة معه عايرته باسمه.

ركل الأحجار المتناثرة في طريقه إلى سكن الطلاب، وصل إلى السكن فسأله موظف الاستقبال عن اسمه، فأجاب: «عجايبي»، فوجد الابتسامة تكسو وجه الموظف، كتم غضبه كما كتمه في السابق.. أخبره الموظف أن السكن العادي على شمال المبنى، في الأدوار الثالث والرابع والخامس.

حمل حقيته وصعد إلى الأدوار متجاوزًا الأول والثاني؛ طاف بالثالث فلم يجد حجرة ينقصها واحد، مرّ بالرابع فوجد نفس الأمر. في الخامس وجد سريرًا علويًا في آخر غرفة. لا رفاهية للاختيار، فصعد إليه وتمدد دون أن يفرش ملاءة أو يضع مخدة.

غطّ في نوم لم يستقيظ منه إلا حين وجد يد زميل له تحرّكه بقوة وصاحب اليد يصرخ.. فزع «عجايبي»، قام مرة واحدة فاصطدم بالسقف، ضحك الحشد المتفرّج، كان هذا هو المطلوب، أعادت الصدمة «عجايبي» إلى المرتبة، فدفن رأسه فيها.

تقدم نحوه زميل منهم؛ أخبره أنهم لم يقصدوا إلا المزاح. نظر إليه «عجايبي» وإلى الجمع الواقف؛ ٧ شباب ينتظرون من «عجايبي» أن يقبل الاعتذار. رد قائلًا:

- لا مشكلة، حصل خير.

دعا أحد الواقفين للنزول لتناول الطعام معهم، وعلى الطعام علم «عجايبي» أن معظمهم طلبة هندسة، من أسوان وقنا وأسيوط، لم يستغربوا اسمه، فاطمأن للإقامة معهم.

كانت الغرفة تخلو له كل شهر يومين أو ثلاثة حين يعودوا جميعًا إلى عائلاتهم. لكن «عجايبي» كان قراره ألا يعود إلا في إجازتي منتصف العام وآخر السنة.. يقضي الإجازات الأسبوعية في المذاكرة لامتحانات لم تأت بعد، لكن شهرًا وشهرين بالنسبة له مدة قصيرة، أكسبته الثانوية العامة ذلك الشعور.

الآخرون قرروا أن الجامعة ستكون مكانًا للتخفف من توتر الثانوية العامة، أما «عجايبي» فلم يتخفف

من ذلك العبء. نسي كل المباريات التي كان ينوي حضورها، والفتيات التي أراد استكشاف عالمهن بمجرد الوجود في القاهرة.

الرغبة التي تُحيط بالأستاذ الجامعي أصابته باللوثة، سيُكون معيداً في الكلية ثم أستاذاً بها، وبعد التعيين سيفعل كل ما يشتهي، ويتزوج أفضل بنت في أي دفعة يختارها.

كانت صورة والديه ترافقه دائماً.. لم تكن فوتوغرافية، بل كانت محفورةً في مخه، ولم يظن أنه احتفظ بها من الأصل. كلما أراد الاندماج في مباراة ترفيهية مع زملائه، رأى أمه تقوم الليل وتدعو له، وتذكر أباه وهو يتحرك قبل الفجر بساعات كي يبدأ عمله في المخبز البلدي على طرف البلد، قبل أن يعود في الصباح ليتناول كوب شاي ثم يذهب لمحلّ الخردوات.

الشعور بالذنب مرةً أخرى، هو لا يكره أبويه، لكن في لحظات كهذه كان يتمنى لو كانا قاسيين معه، لو أن أباه كان يضربه، أو أن أمه تركته لتتزوج من رجل آخر كوالدة أحد رفاقه في الغرفة.. حينها ستقتل ذلك الشعور، سيتحرر من الذنب والقلق، سيحقق النجاح لأنه يريد النجاح، لا لأنه يجب أن ينجح.

هذا الصراع بداخله لم يظهر لزملائه إلا على هيئة انفعالاته المتكررة.

حين يلعبون مباراة كرة قدم على اللابتوب الخاص بأحدهم يود أن يشاركهم لكن لا يقدر، فينفع طالباً منهم أن يلعبوا في غرفة أخرى.. يصرخ فيهم أنه لا يجب שתائمهم الصريحة حين يسب بعضهم بعضاً وهم يلعبون لعبة حرب جماعية على هواتفهم المحمولة.

باتت مذاكرة «عجايبي» التي لا تنتهي، وحبه للصمت، مصدر ضيق للجميع، صاروا يجتمعون في غرف الزملاء الآخرين، أو ينزلون إلى الدور الأول حيث يقيم زميل لهم في غرفة كاملة هو وزميل آخر فقط. ولديهم شاشة استطاعا تهريبها إلى داخل المدينة يكون اللعب عليها أكثر متعة.

بات «عجايبي» خارج حسابات المجموعة، حتى في الأيام القليلة التي يطلبون فيها طعاماً فحماً من مطعم مشويات قريب، يرفض «عجايبي» أن يطلب معهم ويأكل وجبة المدينة، أرز نصف مطهوٌ وصدر دجاجة أقرب إلى صدر العصافير، لم يبخل أهله في إرسال المال له، لكنّ العناء الذي غمست به النقود يحول بينه وبين إنفاقها في أي شيء غير الدراسة.

زاد نفورهم منه حين قرّر ألا يعود إلى أهله في إجازة منتصف العام، سيقضيها في مذاكرة ما فاتته خلال الترم الماضي. لم يصدّق موظفو المدينة أن شاباً سيجلس في المدينة ليذاكر. موظفو مدينة البنات معتادون على هذا الأمر، لكنها لأول مرة تحدث في سكن الشباب.

صار «عجايبي» مشهوراً في المبنى بأكمله، لكنها الشهرة التي تجعل صاحبها يكره نفسه، يلّمزه موظفو المدينة كلما رأوه. لكنّ تلك السخرية المبطنّة تلاشت حين أصبح «عجايبي» هو الأوّل على دُفعته في العام الأوّل، أستاذ جامعي مُحتمل بقوة، فالتزم الجميع حدود الأدب. التزامهم كان أمامه فحسب، لكن ظلت سخريتهم منه قائمة، أما زملاؤه فلم يتكلفوا عناء إخفاء نفورهم منه كلما رأوه، وأخبروه أنهم في العام التالي

سيحرصون على ألا يكونوا معه في نفس الغرفة.

عاد إلى والديه في نهاية العام الدراسي بالأخبار السارة، الأول على دفعته، لم يَزُر والده القاهرة قطّ. سمع عنها من أطباء المستشفى حين يأتون لشراء أقفال تقليدية لدواليهم من محلّ للحداثة والبويات.. لم تصمد الأقفال الحديثة ذات الأرقام السرية أمام الرّزع المتكرر عند إغلاقها، ولم يحتمل الأطباء لحظات التركيز لتذكر الأرقام السرية.

أما أمّه فلا تعرف من القاهرة إلا ما تعرضه المسلسلات على القنوات الأرضية. لم يحكّ لهما «عجايبي» شيئاً عن القاهرة. قضى شهور الصيف جالساً في غرفته أمام كمبيوتر محمولٍ اشتراه له أبوه فورَ عودته حين أخبره «عجايبي» بأنه سيحتاج إليه في العام القادم.

كلما سألاه عن شيء ردّ باقتضابٍ، أخبرهما أنه يحضر دورة تدريبية عبر الإنترنت لتساعده في دراسة العام القادم. كان يكذب، لكنّها صدّقا.. كان بداخله غضب تجاههما؛ لأنها منعه من الاستمتاع في القاهرة. يعاقبها بعدم الجلوس معها إلا للطعام، وبقليل الحديث عند تناول الشاي بعد الأكل.

ظل معزولاً عنهما حتى انقضت شهور الصيف وعاد إلى القاهرة. كانت الأقصر قيداً يمنعها من الحركة، لم يكن يتحرك في القاهرة أيضاً.. لكن الوجود وحولك كل شيء كان أفضل من الوجود في صحراء. رغم أنه لا يشتري شيئاً ولا يسهر ولا يتنزّه في القاهرة، تُريجه فكرة الإتاحة فحسب، أن بإمكانه أن يفعل لو أراد. أمّا في الأقصر فلم يكن ليفعل حتى لو أراد.

وحين كان يخرج لقضاء أي مشوار كانت الشمس تُزعجه، لم يعد يدرى هل اعتاد شمس القاهرة الأقل حدة، أم أنه نسى الشمس عموماً لطول جلوسه في المدينة الجامعية. عرف الإجابة حين وصل إلى محطة رمسيس مرة أخرى.

كانت شمس القاهرة قوية على عينه المحترارة بين النوم والصحو. لم يجد أي موعد مُتاح في القطارات إلا في اليوم السابق مباشرة للدراسة، فاته أن يحجز القطار قبل عدّة أسابيع.

دخل قاعة المحاضرات متأخراً في أوّل أيام العام الدراسي الجديد، لم يذهب زملاؤه للمحاضرة الصباحية؛ إمّا وصلوا توّاً إلى القاهرة فأثروا النوم، وإمّا وصلوا منذ أيام، لكن أوّل يوم دراسي هو المتمم لأيام الإجازة، تلك قاعدة يعرفها الجميع إلا «عجايبي»، فوضع حقيبته عند أمن بوابة السكن، وانطلق إلى الجامعة.

دخل المحاضرة متأخراً لكن بثقة أوّل على الدفعة، فأوقفه الأستاذ:

- هيّ وكالة من دون بواب، الباشا يعرفنا بنفسه؟

تردّد «عجايبي» حين وجد أن عيون الحاضرين، على قلّتهم، تُراقبه.

قال: «عجايبي الشاذلي»، ثم أتبعها بنبرة خافتة:

- الأوّل على الدُّفعة.

أراد أن يُخبر الأستاذ بأنه مُجتهد، لكنَّ الأستاذ رآها تحديًا، فأجابته:

- أوّل على نفسك، أُخْرَج.

ردّ «عجايبي» بأنه لم يَنم طوال السفر في القطار من الأقصر، وأنه رغم ذلك لم يُرد تفويتَ المحاضرة. تنهّد الأستاذ وأشار له بيده أن يدخل. ثم توجّه إليه وإلى القِلة الحاضرة بأنه سمح له فقط بالدخول؛ لأن هذه أوّل محاضرة، وأوّل تعارف بينهم.

دخل «عجايبي» ويده ترتجف من قلة النوم والرُّعب مما حدّث؛ أن يقف مُذنبًا أمام دكتورِ جامعي من الذين يقدرُهم، ويريد أن يصبح مثلهم يومًا.

بعد نصف ساعة ارتفع صوت الشخير في المدرج. تجوّل الأستاذ في العَدَد الحاضر بشعاع الليزر الخارج من يده، حتى ثبتّه على النائِم.. لم يبدُ الأستاذ متفاجئًا حين وجد النائِم هو نفسه الشاب المهمل الذي دخل متأخرًا. وضع النقطة الحمراء على نظارة الجالس بجوار «عجايبي»، وأشار له برأسه ليوقظه؛ زغده زميله بقوة، فانتفض «عجايبي» يصرخ فيه.. لكنه فوجئ بأنه في المحاضرة، وعين الدكتور مثبتة عليه.

قال له بهدوء وبحروف منفصلة:

- اخرج.

وقف «عجايبي» صامتًا. لم يزد الأستاذ على تكرار الكلمة، لكن بصوت أقوى ووجهٍ مُحْتقن. تجمّد «عجايبي» في مكانه، لأوّل مرة يُعامله أستاذ جامعي بهذه الصورة. فهم الأستاذ جموده مكانه تحديًا جديدًا فقال له:

- شكلك صعيدي لا تفهم.

ضحك الحاضرون، توجّه إليهم «عجايبي» قائلاً: «الصعايدة برقتكم». انقطعت ضحكات الدُّفعة. لأوّل مرة يُقابل «عجايبي» الأستاذ الدكتور «أبو السيوف».. سيعلم بعد ذلك أنه لا يجب أن يدخل أحد المحاضرة بعده، وله علاقات قوية بكلّ الأساتذة. يملك عدّة معاهد خاصة للهندسة ومحاضرون جميعًا في تلك المعاهد، حتى عميد الكلية يعمل في أحد معاهده محاضرًا.. ويمتلك «أبو السيوف» قبل الشهادات الجامعية والمعاهد الخاصة شعور المهندسين الفطري بأنهم يفهمون في كلّ شيء.

صمت الأستاذ بضع ثوانٍ مرّت على «عجايبي» دهرًا طويلًا. قال له الأستاذ:

- معك حق، الصعايدة أحسن ناس، اعتذارى لكل الصعايدة. لكن أنت تحديداً لا تفهم لأنك ابن بقرة.

الكلمة راكمت الصمت طبقاتٍ فوق الطلاب، وفتح «عجايبي» فمه من الصدمة. أردف الأستاذ:

- أنا لا أهينك، اسمك عجايبي، وعجايبي جذرها اللغوي عجي، وهو من رضع من غير أمه، وغالبًا

من الإبل. وبما أنه لا أحد يملك جمالاً، فغالباً أنك رَضَعْتَ من بقرة، فأنت ابن بقرةٍ من الرضاعة.
ضحك الطلاب. نظر «عجايبي» نحوهم مذهولاً.. وأعاد نظره للأستاذ الفاتح ذراعيه نحو الطلاب
يستقبل منهم التحية كأنه في مسرحية.

- إنت اللي ابن البقرة.

خفت التّصفيق، ونظر الأستاذ نحو «عجايبي» بطرف عينه وظهره مائل قليلاً للإمام يستقبل التحية:
- ماذا قلت؟

همس عجايبي:

- قلت إن «عجايبي» اسم قديس، من العجب والعجائب.

رد الأستاذ بنبرة أعلى: «كذاب. ثم ما علاقة القديسين بك؟ هل أنت مسيحي؟»، قالها ونظر إلى
الحاضرين فضحك بعضهم. نظر إلى المجموعة التي لم تضحك، قائلاً: «مسيحي وجامعة الأزهر؟!» ورفع
صوته بالضحك.

ضحك الجميع هذه المرة حتى لو لم يفهموا المفارقة، أو كانت المفارقة أقل من أن تستدعي الضحك
مرتين، لكنهم ضحكوا.

ثم رفع صوته أكثر قائلاً:

- ماذا قلت يا كذاب؟!!

صرخ «عجايبي» مندفعاً:

- قلت: أنت ابن البقرة.

رفع الأستاذ ظهره بهدوء.. التفّ نحو «عجايبي» وأخذ ينزل سلالم خشبة المسرح الذي صنعه في خياله،
وسلام منصّة الشرح في الحقيقة، نحو باب المدرج.

صعد السلالم بين المدرجات درجةً درجةً. ينظر إلى «عجايبي» الذي تجمّد مكانه كأنه ينتظر شفرة المقصلة
أن تقطع رقبته.. لم يحدش صمت القاعة إلا صوت الهواء وهو ينزاح من مكانه ليُفسح الطريق أمام الأستاذ
الغاضب الصاعد نحو الباب. وصل الأستاذ إلى «عجايبي» فوضّع يده على كتفه.

سأله بصوت هادئ:

- قلت إن حقيبتك مع أفراد الأمن؟.

لم يردّ عجايبي، ابتلع ريقه فحسب. أكمل الأستاذ كلامه:

- لا تفرغها ولا تصعد بها لغرفتك في المدينة.. خذها منهم، واحجز تذكرة إلى الأقصر، وعد لأهلك..

انظر ماذا يعملون فساعدهم فيه، وانس الهندسة.

نزل الأستاذ الدرجات سريعاً، وصعد إلى المنصة حيث سبورة الشرح، وبدأ الشرح من حيث توقّف.

عمران

لسعته حرارة الشمس فورَ خروجه من المحطة المكيّفة. حوّله تكييف القطار لتمثالٍ جليدي، وصهرته الشمس الحامية دون مقدمات.. لم يعرف من قبل شمسًا بهذه القُوّة؛ أشعة الشمس تبدو كأنها تكوي ملابس المارة فتملاً الجو رائحة تشبه رائحة الملابس المكيّوة بمكوّاة جافّة دون حتى اللمسة المرطبة لرداذ البخار.

حاول أن يرفع عينيه ناحيتها فلم يستطع، أغلق عينيه سريعاً، وصار نظره ضبابياً لبضعة ثوانٍ.. رغم حرارتها أحبّها «عمران». شعر بأنها شمس حقيقية، ليست شمسًا كشمس القاهرة المغطاة بالأدخنة، أو كشمس قريته المقتولة بدخان حرق المخلفات والقش؛ قسوتها تُذكره بشمس الجيش التي وصفها له أبوه دائماً، الشمس التي تصلب العود المائل، وتُنشّطُ المخ الكسول. كان والده «إبراهيم» يُكثر الحديث عن الخدمة العسكرية، ويصف فوائدها ل«عمران» في فترةٍ ما، لكنه فجأة توقّف عن الحديث عنها.. ظنّ «عمران» في البداية أن أباه يُمهّد له أنه سيكون له أخ جديد، لكن تمر الشهور ولا يأتي له أخ.

«عمران» نفسه أتى بعد سنوات طويلة من غياب الإنجاب والصمت. اعتاد أن يسأل والدته كلما أراد مناقفتها: لماذا لم يتزوج من امرأة أخرى طوال تلك السنوات؟ يردّ «إبراهيم» بأنه حين خرج من كوم الأخضر مع «نجاة» عدّها ابنته وزوجته. وتُحِبُّ «نجاة» «عمران» بأنّ أباه لم يجد الوقت أصلاً، كونه بناء الطوب الأحمر الوحيد في قرية «بوريج الجبل» جعله مشغولاً باستمرار، وحين تحسنت الأمور المادية فكّر في مصنع للطوب الأحمر وانشغل به.

يُناغشها «إبراهيم» قائلاً: «يعني يا وليّة الحُب ليس له مكان؟» تردّ «نجاة» بحزم: «لا، الرجال يحبون أنفسهم».

يرفع «عمران» حقيبتَه على درجة السُّلم التي يقف عليها وهو يضحك. فقد اكتشف بعد سنوات وهو يُجرّج القيد العائلي للحصول على الإعفاء من الجيش أن أباه تزوّج من أخرى فعلاً لكنه طلقها لاحقاً. استنتج «عمران» من القيد العائلي أن تلك الزوجة لم تُنجب.. فأكمل القصة أن أباه طلقها، وظنّ أنه هو السبب في مشكلة عدم الإنجاب لهذا قرّر الصمت كي لا ينحسر «نجاة» وميراثها.

أمسك الحقيبة وفتح إحدى السوست مسافة قصيرة ثم غرز يده في أحشائها. تحركت يده في ظلام الحقيبة متعثراً على أمل أن تصطدم بالنظارات الشمسيّة التي وضعها في جانب الحقيبة الأيمن.

ارتدى النظارة وجرّ عرقه والحقيبة إلى أوّل ميكروباص متوجّه إلى «عزبة جهنم».

جلس بجوار السائق وتكفّل السائق العفويّ بوضع حقيبتَه فوق شبكة الميكروباص.

انطلق الميكروباص يجوب ب«عمران» مدينة الأقصر التي لم يزرها من قبل. ولا حتى في الرحلات المخفضة التي تُنظّمها الجامعات إلى الأقصر وأسوان. هو محبٌ للبحر أكثر من الصحراء، يُحب الشمس الدافئة لا تلك المحرّقة.

في الطريق رأى «عمران» لافتات لاسم مدينة الأقصر مكتوبةً بخطِّ فرعونى. كان الأسفلت أسود بصورة لم يرها من قبل، يبدو أنه رُصِف من زفت مُختلفٍ؛ زفت يناسب السياح والكاميرات العالمية التي تحضر للأقصر باستمرار. صحيح أن كل الطرق زفت، لكن زفت الأقصر كان مختلفًا ومميزًا.

تجري السيارة في طريق واسع لا زحام فيه، ربما هي الساعة التي وصل فيها «عمران» إلى الأقصر، حيث لا يخرج أحد في مثل هذه الشمس، أو هكذا تكون الأقصر دائمًا.. لا يعرف، فلن يخرج من «عزبة جهنم» إلا قليلًا جدًا.

يحاول التعامل كأنه في رحلة كي يهون الأمر على نفسه؛ فرغم كرهه للملابسات التي وضعت اسمه في تلك المأمورية، فإنه ممتنٌّ؛ لأنها انتزعت من بيته ومشكلاته. راودته نفسه أن يقضي عامًا بعيدًا عن أسرته، ليمنحهم بذلك عامًا كاملاً من دونه، كأنه موت تجريبي.

أن تجرب «نسرين» كيف تكون الحياة في غياب زوج يغيّر أنبوبة البوتاجاز، ويدفع اشتراكات لا نهائية لنوادي لا يعرف أماكنها. ويكتشف أولاده كيف تكون الحياة بدون أب في الخلفية، يلجئون إليه وقت الاحتياج، لا يحضنونه إلا قبل أن يطلبوا شيئًا، أو بعد أن يحصلوا على طلبٍ ما، ويأرسون عليه سنة الحياة في التمرد، فلا يتعاملون معه بلطف إلا حين تقول لهم «نسرين» إنه هو من أحضر لهم كذا، أو اشترى لهم كذا، فكأن عليه أن يقدم قربانًا دائمًا لينال حبَّ أولاده. لكنها حقيقة علاقة الأطفال بأبائهم كما أخبره صديق له، حين يكبرون ستصير البنت أكثر رقةً معه، فيما يصبح ابنه أشد ميلاً لأمه.

كان طريقُ الأقصر مريحًا لدرجة أنه فكّر في زوجته وأولاده، أول مرة يسمح له ميكروباص بالغرق في أفكاره، أن يجلس مسترخيًا لا يلعن السائق الذي سيكسر سلسلة ظهره بقيادته الغبية.

رغم أنه دائم اللعن لسائقي الميكروباصات فإنه يحب التنقل بالمواصلات، أصرت «نسرين» على شراء سيارة ملاكي لأن أبناء الدكتور وحرمة لا يمكن أن يختلطوا بعامة الناس في الأتوبيسات، لم يعترض «عمران» على شرائها.. اشترط فحسب أن تتعلم هي القيادة؛ فهو لن يقود السيارة يومًا.

يخشى أن يتحوّل إلى سائق خاصّ مجاني، هناك شيء مهم يجب أن يفعله بوقته.. مهمة متجاوزة لفكرة الوظيفة والأسرة، لكنه لا يدرك كنهها بعد.. اختار الطب النفسي بعد معاناة وإهاناتٍ في عدة تخصصات أخرى لأنه رآه أكثر التخصصات ملاءمةً لأسلوب الحياة الذي يُريده؛ ساعات عمل أقل بمقابل مادي أعلى، واحترام من الناس لمجرد أنه طبيب نفسي، كأنه نبيُّ العصر الحديث، والأهم أنه يهرب من الكابوس!

حرارة الشمس الداخلة من زجاج الميكروباص تجمّعت على «الدبلة» الفضية في يده اليسرى فحوّلتها لجمرة؛ لسعته فانتبه إليها، خلعها ووضعها في جيب بنطاله.

يُذكّر نفسه بقرار أنه سيقضي هذه السنة ك«عمران»، لا زوج ولا أب. وسيُرسل ل«نسرين» كل شهر بالطبع المرتب مضافة إليه حوافز العمل في منطقة نائية ومكافأة العمل في مستشفى تابع للتأمين الصحي الشامل.

تلك الأصفار الإضافية هي ما جعلت «نسرين» تعارضه في عدم تنفيذه المأمورية. قرّر أن يشتكي لوكيل الوزارة عبث مدام «إيناس»، وأن يُصعد الأمر لوزارة الصحة إذا لزم الأمر. لكنّ «نسرين» رفضت، وأخبرته أن الأمر أشبه بالبعثة، أو سنة من سنوات الجيش الذي لم يقضه لأنه وحيد أبويه.

كان كلامها مُهيناً له.. أن تشعر أن بيتك لا يُريدك، يُقايضك بمبلغ إضافي من المال.

تربّى «عمران» على أن وجود الرجل في البيت يساوي الدنيا كلّها، حتى لو كان الرجل مجرد عظام بالية في «قُفّة» متهالكة. ولم يكن يرى نفسه عظماً بالية؛ فدخله المادي جيد، وأكثر من جيد، وأهله مستعدون لمساعدته دون أن يطلب؛ تأتي له أمه كل شهر بخزّين من الدقيق والأرز والمكرونه والزيت. صحيح أنها تؤنّب «نسرين» كل شهر لأنها حين تدخل المطبخ لا تجد فائضاً من خزّين الشهر الفائت، وتقول لها بتهكم: «المرة الطباخة تكفّي الفرح بوزة واحدة»، لكنها في النهاية تضع الخزّين ولا تُحاسب «نسرين» على كمية الأكل المُهدر، ولا الإوزّ والطبخ الذي يحمض حين تنساه «نسرين» على رخامة المطبخ.

«نسرين» لم تكن تدين بأي امتنان للطبيب الذي تزوّجها، ولا تريد أن تكون السيّدة التي تُدبر أمور المنزل بصبر الأمهات. كانت تشعر بالاستحقاق لكل شيء، بيضاء الوجه، طويلة القوام، لون عينيها يميل إلى الأزرق، وشعرها فيه حمرة واضحة.. يتهافت الرجال عند قدّمها، لكنهم في نظرها كانوا دائماً دون مستواها.

هي ابنة عامل في المدرسة الابتدائية لقرية «بوريج الجبل»، وأمها تعمل في ثلاجة حاصلات زراعية. فلا يتقدم لها إلا من هو في مستوى أهلها. لكنها تراهم دون مستواها هي.

ثم تقدّم «عمران» لها. حدّث فريد في حياة «نسرين»، وحياة القرية بأكملها.. الطبيب لا يتزوج إلا طيبية، أو على الأقل حاملة لشهادة عليا، لا دبلوم زراعة مثل «نسرين». «عمران» لم يرَ فيها إلا جمالها القريب من الأساطير، وأنها ستقدّسه.. هكذا ظن، كونه أنقذها من الزواج ممن سواه، فستعيش حياتها شاكراً لزواجها من طيب القرية.

عارض أبواه الزواج، لكنها رضّخاً تحت إلحاح الابن الحيلة.. كانت في نظرهما دمية تشبّث بها ابنهم. وهكذا تُخبره أمه دائماً، أن «نسرين» عروسة حلاوة مثل عرايس المولد النبوي، مكانها طليّة العرض، ولا تصبح ذات فائدة إلا إذا كُسرت».

يضحك «عمران» سائلاً أمه: هل تمتلك عروس المولد شعراً طويلاً وأحمر اللون مثل «نسرين»؟ فترد عليه أمه بحسرة: «إن هذا الشعر سوف تلفّه حول رقبتك لتخنقك به»، ينفخ «عمران» متأففاً من حديث أمه، لكنها تكمل قائلة: «يا ابني «نسرين» مثل القنفذ، لا تنفع للحُصن ولا للُبوس».

يردّ بأنه حتى لو كان بالحسابات المادية فحالة «نسرين» وأهلها ليست سيئة، وأنهم ليسوا فقراء.. أكد أهل «نسرين» ذلك بالأثاث الفخم الذي اشتروه لابنتهم، والأجهزة الكهربائية والستائر الفخمة والسجاد الحُفر الذي زيّن شقة «عمران».

قامت أم «نسرين» وهم يرصونه ناحية أم «عمران» لتستعرض أمامها هذا البذخ. فأجابتها «نجاة» قائلةً: «بصلة ورث، ولا عشرة شحاعة». صممت أم نسرين، ولم تخبر أحدًا بما قالت «نجاة»، لكنها لم تدخل بيت ابنتها ولا بيت أهل «عمران» بعدها أبدًا.

أبطأت سرعة ميكروباص «عزبة جهنم» للمرور في كمينٍ يبدو روتينيًا.. أمام الميكروباص ثلاث سيارات فحسب، لكن السائق لم يُطفئ السيارة ولا وضع حزام الأمان. لكن الإبطاء جعل صوت الهواء يخنفي فبات صوت أفكار «عمران» أعلى.

نظر إليه السائق يسأله:

- قلت حاجة يا باشا؟.

نظر إليه «عمران» متعجبًا فلم يظن أنه نطق بصوتٍ مرتفع، لكنه لم يبال، فكرر الكلمة على السائق، كنت أقول:

- معك حق يا حاجة.

قال السائق: «تقصد الست الوالدة؟»، هز «عمران» رأسه بالإثبات.

أتى دور الميكروباص، فأشار ضابط الكمين لسائقه بالتوقف، اقترب من كابينة السائق، فبادر السائق بالقول: «الرخص تمام يا أشرف بيه، إيه فيه؟». لم يتوجه الضابط نحو السائق، لكن توجه ناحية عمران. أشار له يطلب البطاقة. لم يفهم «عمران» الإشارة، فنفع الضابط وحرّك يده بعنف أكبر. هز السائق كتف «عمران» قائلاً: «الباشا يطلب بطاقتك». اعتذر «عمران» وهو يمدّها للضابط.

تفحص الضابط وجه عمران، ثم نظر إلى البطاقة مرة أخرى ورفع صوته قائلاً: «طبيب نفسي»، ثم كررها فاصلاً بين الكلمتين «طبيب... نفسي». ثم سأل بنبرة متشككة: «في أي مستشفى؟»، فأجاب «عمران» سريعاً: «في المستشفى العام». ركز الضابط في عين عمران، وعمران يُحدّق فيه هو أيضاً. لا يفهم ماذا يحدث. أخذ الضابط البطاقة الشخصية. غاب لدقائق، ثم عاد مُزعجاً فألقى البطاقة لـ «عمران»، ورزّع على باب الميكروباص، وأشار بعصبية للسائق أن يتحرك.

حرّك السائق عجلة القيادة فسقط رماد السيارة على ملابسه، انشغل بما حدث عن التدخين، وعن رمي السيارة.. نظر «عمران» إلى السائق مستفهماً لماذا أوقفهم الضابط؟ وما الذي يدعو للشك بهذا الشكل؟ تنحس السائق قائلاً: «لا تؤاخذني يا دكترة، عينك السبب»، نظر «عمران» في مرآة السيارة الجانبية يعيد اكتشاف عينيه.

الهالة السوداء التي تُحيط بهما تجعلهما أقرب إلى عيون الباندا، دائماً ما نصحته «نسرين» باستخدامات بعض مستحضراتها لعلاج تلك الهالات أو إخفائها في المناسبات المهمة.. يرفض «عمران»، لكنه لم يكن يعرف أن

تلك الهالات قد تكون سبباً في إيقافه في كمين حرّك «عمران» رأسه للسائق يستفهم عن باقي الكلام؛ عن علاقة الهالات السوداء بالشرطة.

ردّ السائق بصوت منخفض وهو يغمز بعينه: «الصَّنْف يا دكترة، ومعاليك في قلب المجال». نظر «عمران» إلى السائق يستجمع الخيوط.. الضابط شك أنه مُدمن.. له عينا مُدمن، ابتسم عمران، ثم ضرب كفّاً بكفّ، قائلاً:

- يا ريت كان الصَّنْف، على الأقل كنت سأنام.

ضحك مرة أخرى قائلاً:

- الباشا يشك أنّي مُدمن.

أخرج الهاتف لينظر في الكاميرا لعينه مرة أخرى، ابتسم السائق قائلاً: «شكلهم غريب فعلاً». أجابه عمران: «لأن السبب أغرب، الموتى». ابتسم السائق نصف ابتسامة واستدار مُستعيذاً من السيرة.

أكمل «عمران» السرد في ذهنه، هو بحاجة لأن يرويّه لأي أحد، حتى لو لنفسه.

كل ليلة يزوره الأموات، يوقظونه.. سربٌ مثلث الشكل من البشر، تتقدّمه امرأة لا يعرفها، خلفها سيدة ماتت في مستشفى الأول، وبعدهما مريضان يعرفهما من مستشفى الأخير قبل أن يغيّر التخصص، ثم عدد لا نهائي من الوجوه والأجسام. تبدو ضبابية، لكن مع وفاة كل مريض يتعامل معه، يتضح الوجه كأنها أزيح عنه الحجاب.

فوق السرب يوجد الموت.. رغم سُخريته من التصور المعتاد للموت، فإنه يأتيه في الحلم بصورته المعروفة؛ هيكل عظمي، وعباءة سوداء، ومنجلٍ طويل. يُرفرف الموت فوق السرب، يُشير بألته الحادة تجاه عمران، كأنها ينتظر إشارة من جموع الموتى.

في الكابوس توقظه السيدة التي لا يعرفها، تمدّ له كتاباً مستطيلاً، يشبه تذكرة المرضى في المستشفيات الحكومية لكنه بالٍ لكثرة استخدامه. تراجع معه تفاصيل حالتها: ماذا لو لم يحدث كذا؟ هذا القرار لو تغيّر، أو جاء مبكراً؟

بعدها مريضان آخران، ثم بضع تذاكر أخرى تُلقَى في وجهه، يطلب أصحابها المراجعة، أو القصاص كما يبدو.

كلما نام دخل في مُحكمة؛ مُحكمة مع الأرواح وقاضيتها الموت، لا يستطيع «عمران» الدفاع؛ فصوته لا يخرج، وقدماه ثقيلتان لا يستطيع تحريكهما للفرار.. راهن أن مرور الوقت سيجعل الأمر يُخفّي أو حدثه تخفّف، لكن مرّ يوم ثم أسبوع، ثم الشهر بعد الشهر، وعام بعد آخر، ولم يتغير شيء.

يقول لنفسه بعد كل مرة، إن ما يراه ليس حديث نفس، وليس كابوساً ينبع من شعور بالندم، إنها مُحكمة يخوضها مفتوح العينين، شاعرًا بكل مظاهر الحياة من حوله.. يسمع صوت كلاب الشارع، وقرآن الفجر،

وحركة الستائر بفعل الهواء، وعدد دورات ريش المروحة.

تزداد المحاكمة غلظة حين يكون نومه في المستشفى، حيث الآهات تلاحقك، وأضواء النيون المتهالكة، وحركة القطط التي تمر من أسفل سريرك ومن أعلاه أحياناً. لا يحتاج الأمر إلى رعب إضافي من الأساس، لكن تأتي المحاكمة، ويتقدم الموت جهته، ويمد منجله من الأعلى حتى يحز عنقه، ويشد ذراعه العظمية. تصبح شفرته في وسط حنجرة «عمران»، شدة إضافية وتنفصل رأس «عمران» بالكامل.

تناديه الممرضة ليناظر حالة فتتوقف المحاكمة، يضربه الموت بعظام قدمه في ظهره فيقوم مفزوعاً ويهرول للحالة المنتظرة. يخاف أن تنضم تلك الحالة لسرب الموتى وللقائمة التي عليه أن يراجعها كلها أغمض عينيه. لكن في بيته تُصبح المحاكمة كاملة، لا توقف فيها ولا رحمة؛ اختناق متواصل وخفقان قلب مرتعب يصطدم بعظام قفصه الصدري. يحاول قلبه الهرب فلا يستطيع، يدعو أن يدخل في صدمة تشله كما شل المخ لعله يشعر بشيء. لا يتوقف قلبه، يستمر في الحركة كأنها تتبع الذكريات منه لا من المخ.

يقوم مما يشبه النوم منهكاً، يحاول النوم في النهار ظناً أن الأموات مقيدون نهاراً، وأن الموت مشغول بعمله نهاراً، وأن الشمس ستصهر الأرواح التي تحاول العبور إليه، لكن لا يفلح شيء، كأن الموت وأشباحه يسكنون أسفل جفنيه، بمجرد إغلاقهما يصبحون في مركز مجال إبصاره، ويجب عليه أن يشاهدهم مضطراً.

التفت «عمران» إلى السائق، نظر إليه ببرود وعينين لا ترمشان، فهو في خياله يسرد باقي القصة. يقول في

ذهنه:

«أنا ميتٌ يتحرك، عيناى باتتا كفراغين أسودين مثل فراغي جُمجمة الموت. ربما أتأقلم بعد فترة مع المحاكمة، ربما ينساني الموت حيناً، أو يشفق عليّ الموتى حين يعلمون أنني غيرت التخصص، أو نصل إلى حكم في القضية بأني لا دخل لي بموتهم، كان قدرهم ومصيرهم، وكان قدري أن أكون شاهداً على مأساتهم فحسب، لا صانعاً لها، لم يكن موتهم إهمالاً مني ولا خطأ طبيّاً، بل نهاية الوقت المتاح لهم في عالمنا فحسب.

ربما... مليون ربما؛ ربما أكتسب تعوداً وبلادةً مع الوقت، ربما كل شيء، ربما يتغير كل شيء، ربما لن يتغير أي شيء، كل ما أعرفه أني لا أريد وجهاً جديداً في سرب المحاكمة، لا أريد تذكرة جديدة أراجعها، ولا أريد أن أغضب الموت أكثر مما أغضبتُه.

لهذا يا حضرة الضابط، ويا حضرة السائق، غيرت التخصص الباطني، حيث الموت أكثر من الحياة، واخترت تخصص لا يموت أصحابه بنفس الكثرة، ولو ماتوا فيكون بأيديهم لا بيدي».

فرمل السائق مرعوباً من نظرة «عمران». وطلب منه أن ينزل ليركب على الكرسيّ القلاب بجوار باب الميكروباص، مكان بعض الركاب الذين نزلوا في الطريق.

لم يرفض «عمران»، الفرملة أعادته لواقع أنه في الأقصر الآن، بعيداً بمئات الكيلومترات عن بيته، وأشباحه، فليخرجهم من عقله الآن، عليهم يضلّون الطريق إليه هذه الأيام.

بدأت الأزهار في البروغ على جانبي الطريق، وبعض التماثيل في منتصف الطريق تُحاكي مجموعة من

الآثار المشهورة في الأقصر، أخرج «عمران» هاتفه ليلتقط صورًا لها.. ثم التفت فرأى أسطولاً من «الحناطير» التي تجرّها الخيول تمضي بهدوء نحو جهةٍ ما. ربما هناك وفدٌ سياحي أو استعراض ما، لم يهتم أن يسأل.

بدأت الحضارة في التلاشي، واختفى الزّفت اللامع وحلّ محله ترابٌ ناعم يملأ السيارة بمجرد أن تدور عليه عجلتها.. سَمِع صوت زجاج شبابيك السيارة من خلفه تنغلق واحداً بعد الآخر، وبدأت النساء في وضع طرف الطّرحه على أفواههن وأنوفهن، راقب الأمر من المرآة في منتصف كابينة القيادة. ثم فجأة قابلته عيون الركاب في المرآة.

يحدّقون فيه بغضبٍ، ظن أنهم يتوقعون أنه يسترق النظر إلى النساء فرجع يده مُعتذراً ثم أدار عينيه. قال له السائق بعصبية:

- الشباك يا باشا، ردمتنا وردمت الركاب.

سحب الشباك حتى انغلق تماماً، استرق النظر من المرآة فرأى عيون الركاب قد انصرفت عنه، فجأة وجد نفسه أمام مبنى ضخم لا تظهر ملامحه بوضوح بسبب عاصفة التراب، لكنّ السائق أخبره أنهم قد وصلوا إلى «عزبة جهنم»، وهذا هو «مستشفى عزبة جهنم».

نزل «عمران»، ونزل السائق ليعطيه حقيبته، ثم انصرف الميكروباص.

ثبت «عمران» في مكانه حتى يختفي الغبار. فظهر له مستشفى «عزبة جهنم» عكس كل ما توقع.

أول شيء لم تكن اللافتة المكتوبة عليه بخطوط ذهبية بارزة تحمل اسم «عزبة جهنم»، بل «مستشفى آمون التخصّصي». ابتسم فقد خسر في أول لحظة مادته الخام للتندّر على المستشفى، أن تعمل في قرية اسمها «عزبة جهنم» فهذا وحده أمرٌ يضحك، أمّا أن تُعالج مرضى جهنم في مستشفى جهنم التخصّصي فهذه نادرة يمكن أن تُروى لأجيال من أحفاده وأحفاد أحفاده.

لكنه كان مستشفى أفضل من أي مستشفى عمل به؛ مكّون من ثمانية طوابق ضخمة، له حرم كبير مليء بالأشجار وأعمدة الإنارة، في سوره الأمامي توجد ثلاث بوابات لتغطّي عدّة المتوافدين عليه. المسافة من بوابة لأخرى تحتاج إلى «توكتوك» صغير من الرابضين أمامه.. لافتته مكتوبة بحروف لامعة حديثة، والواجهة طلاؤها حديث لا توجد عليه ذرة تراب رغم وجودها في تلك الصحراء الترابية.

جرّ «عمران» حقيبته، فقام أحد الراقدين أمام السور ليساعده. فابتسم «عمران»؛ الراقدون أمام الأسوار علامة مميزة لكل مكان يُقدّم خدمة صحية، مهما كبر المكان أو صغر، كان حديثاً أو متهاكاً، ومهما كانت تعليمات الوزارة والإدارة وصلافة أفراد أمن المستشفى، سينام الأقارب تحت أرجل المرضى ليكونوا في خدمتهم متى احتاجوا إلى شيء.. لا تقتنع الوزارة بأن لوجودهم قيمة، لكنّ الأهالي يُدركون أن وجودهم مهمٌ لسبب ما. حتى لو كان مجرد المشاركة النفسية للمريض المحجوز داخل أسوار المستشفى، أن يُجربوا مريضهم أن حياتهم متوقّفة من دونه، أنهم مُستعدون للنوم في العراء والبرد، والحياة كالمُتسولين، فقط

ليكونوا قريين منه.

شكر «عمران» الرجل الذي أصر على أن يحمل الحقيبة بعد أن وجد جرها مُتعبًا. رفض «عمران» تمامًا، لكنَّ الرجل أصرَّ وحملها على كتفه حتى سلّمها لأمن المستشفى وطلب منهم أن يحملوها عن الدكتور. استغرب «عمران» هذا الكرم، فشكره، فردَّ الرجل عليه بالشكر لأنه قَبِلَ أن يتغرب عن بيته وأهله ليأتي لآخر بلاد المسلمين ليُعالجهم.

قال له عمران: «يجب أن تشكر مدام إيناس». بدت على وجه الرجل نظرة استغراب، فصحك «عمران» وقبّل رأسه بعفوية ثم توجه إلى فرد الأمن.

لم يدرك كيف أصبح تقبيل رءوس الناس سَلِسًا بهذه الصورة.. بدأ مع مريضٍ شعر بالإهانة حين سمع الممرضة تُناديه بالمجنون فاشتكى لـ «عمران» فقَبِلَ «عمران» رأسه اعتذارًا. سحرت تلك القُبلة المريض فصار «عمران» طبيبه المفضّل في المصحّة كلها، وتعافى أسرع من المتوقع؛ فأصبح «عمران» يُقبّل رءوس مرضاه من الذكور كلّمَا استدعى الأمر، ودائمًا ما يستدعي في لحظة ما.

أخبره الأمن أن سكن الأطباء في الدور الخامس. سأله «عمران» عن مكتب المدير.. بضحكة مكتومة ردّ الأمن بأن المدير لا يستيقظ إلا بعد العصر، نادى فرد الأمن على عاملٍ ليجرّ حقيبة الدكتور إلى الدور الخامس.. صعد «عمران» مع العامل في مصعد المستشفى الزجاجي نحو الدور الخامس.

المستشفى مبطنٌ بالكامل بالرخام اللامع، تتوسطه مساحة دائرية كبيرة تُطل عليها جميع أدوار المستشفى. تعلو تلك المساحة قبة في السقف مصنوعة من زجاج داكن اللون يصفّي أشعة الشمس قبل أن يسمَح لها بالدخول لبهو المُستشفى. تدخل الأشعة دافئة وحرارتها مُعتدلة.

المستشفى بالكامل يعيش في مناخ مختلف عن المناخ خارجه: تكييف مركزي يصل إلى كل نقطة فيه، المصعد الزجاجي ذاته أمر غير مألوف في المستشفيات، فالمرضى الغاضبون يكسرون كل ما هو زجاجي، لهذا تلجأ الوزارة إلى صناعة كل مكونات المستشفيات من أصلب المواد. لكن إِمَّا أن هذا المستشفى حديث أكثر مما يجب، وإمَّا أن المترددين عليه أهدأ من المعتاد.

دخل «عمران» لسكن الأطباء فوجد ما يعرفه، شك للحظة أن هذا مستشفى مختلف عن باقي المستشفيات، لكن أعاده السكن لحقيقة الأمر؛ أربعة أسرّة، كلّ سرير من دورين، يعني أن الغرفة يقطن فيها ثمانية أطباء. وفيها شاشة صغيرة، وانتهى الأمر.

لا شيء آخر في السكن، لا غسالة ولا بوتاجاز ولا غلاية مياه كهربائية. بالتأكيد أن الأطباء الذين سكنوا قبله تعلموا كيفية تصريف أمورهم، وسوف يتعلّم هو أيضًا.

وجد سريرًا من دورين لا توجد عليه أي علامات للحياة، وفوقه كومة من الأوراق وعُلب الزبادي والعيش المتعفن. فأزاح كل شيء وفتح حقيبته أخيرًا ليُخرج ملاءته.

عجايبي

صعد السُّلم ووقف أمام باب الشقة، أصرّ الضابط على أن تبدأ المعاينة من لحظة دخوله الشقة ليُفسر كيف دخل من الباب دون أن يكسره، ودون أن يكون معه مفتاح كذلك.. عادة أهل القرى أن يكون المفتاح موجوداً في باب المنزل منذ الصباح. لا يُدخلونه إلا حين النوم، أو حين يريدون فعل ما يخافون أن يفتجهم أحد في أثناءه.

التفت «عجايبي» إلى الضابط يُخبره أنه كان حين يرجع إلى البيت في أي وقت ويجد المفتاح بالداخل، كان ينتظر بضع دقائق ثم يطرق الباب. ابتسم أحد العساكر بمكر، نظر إليه الضابط، فانخرس العسكري.

التفت «عجايبي» إلى الضابط يشرح له السبب، فقال: إنه بعد الزواج بشهر عاد من صلاة الجمعة فوجد المفتاح بالداخل.. طرق الباب بهدوء، ثم بعنف، لكن زوجته لم تفتح إلا بعد فترة، حين فتحت كان وجهها باهتاً وترتدي عباها مقلوبة. سألتها عن سبب تأخرها في فتح الباب فقالت: إنها كانت تفعل أشياء خاصة بالبنات في الحمام، وأدخلت المفتاح خوفاً من أن تدخل عليها حمايتها أو أحد من أهلها.

يُكمل «عجايبي» للضابط أنها قالت هذه الكلمات وهي تهوّل ناحية الحمام وتُغلق على نفسها مرة أخرى. وحين دخل هو المطبخ ليشرب وجد أكياساً بلاستيكية وأشياء لزجة تُشبه العسل في طبق على البوتاجاز، ففهم أنها تقوم بأمور الحريم.

لهذا تعود «عجايبي» ألا يعود بعد صلاة الجمعة مباشرة، وأن يجلس على المقهى قليلاً، أحياناً مع سائق زميله أو مع الدكتور «عمران» بعد أن تعرّف عليه، وإذا عاد ووجد المفتاح بالداخل ينتظر حتى تخرج هي وتفتح الباب دون أن يطرق.

«لكن في الجمعة التي حدث فيها ما حدث قررتُ أن أدخل أنا المفتاح كي لا تفتح هي الباب لتُدخله. ووضعت ورقة كراسة طبقتها أمام لسان الكالون كي يُحشر الباب في الحلق دون أن يُغلق».

سأله الضابط مُتلهفاً، فقد عثر على تفصيلة جديدة يمكن أن تُنقذ «عجايبي» من الإعدام:

- خطّطت لتعود إلى البيت فجأة؟ سلوكها مُريب؟ كنت تشكّ في حاجة؟.

قال «عجايبي» حاسماً الأمر:

- لا، أبداً، أفتجها عادي يا باشا.

نفخ الضابط ومزق بعضيّة ورقة من نوتة صغيرة يحملها وأعطاه ل«عجايبي».. طوى «عجايبي» الورقة عدة مرات ثم استدار لباب الشقة كي يدسّ الورقة بالطريقة ذاتها، لكن في تلك اللحظة لمح أباه يصعد على السُّلم.

«الشاذلي» أبو «عجايبي» طويلٌ وجسده نحيل، بوجه داكن يُغلّفه الشعر الأبيض.. حاول العساكر منعه

من التقدّم نحو «عجايبي» لكنّ الضابط أمرهم بأن يُفسّحوا له المجال.. شكر «الشاذلي» الضابط بنظرة امتنانٍ، وكلمة شكر مذبوحه بالدموع المتساقطة.

وجّه كلامه للهواء قائلاً وهو يصعدُ جهة «عجايبي» أنّه استأذن المحافظ لدخول الحَمَام ثم هرول من مبنى المحافظة ليلحق بابنه.

بكى «عجايبي».. كان مُتجمداً منذ أوّل نزوله، لكن دموع أبيه كانت أعلى من ألا يشاركها. أخبره الضابط أن يرجع إلى الخلف قليلاً كي تكتمل المعاينة.. ولو لم يُرد أن يُشاهد فعلية أن ينصرف.. رفض «الشاذلي» الانصراف، وربّت على كتف «عجايبي» قائلاً:

- كانت شقة شؤم من أوّل يوم.

ثم أكمل «الشاذلي» مخاطباً «عجايبي» دون أن ينظر إليه، يُذكره بأول مرة كانا فيها معاً أمام الشقة، قائلاً:

- لو كنت سمعت كلام أمك وبعثتها أوّل ما جاءني الخبر قبل كل هذه السنوات، أو لم أشرتها أصلاً، ربما كان الحال غير الحال.. أخبرتني أمك بأن العين سوف تُصيبك حين وقّعت العقد، وأتي سألفت نظر الناس لك، لكن لم أُصدّقها.

قَبَل «عجايبي» رأس والده قائلاً:

- لا ذنب لك يا حاج في أي شيء، الشقة كانت أعظم هدية لكن أنا لم أكن أفضل ابنٍ، لم أكن أستحقّها، ولا أستحق دموعك هذه الآن.

بشعورٍ عدم الاستحقاق وقَف «عجايبي» أمام الشقة للمرة الأولى، ويقف أمامها بنفس الشعور الآن، لم يُفارقه الشعور بعدم استحقاقه لأيّ شيء، حتى مجرّد الحياة نفسها، منذ فصل من الكلية.

فبعد أن أخبره «أبو السيوف» أن يفقد الأمل في العودة للدراسة.. ظل بضعة أسابيع يواظب على حضور المحاضرات كأنه لم يُفصل علّ الأستاذ يتعطّف عليه أو يتوسّط له أي أحدٍ عند العميد ليُعيد قيده في الجامعة، لكن لا فائدة.

كل المعيدين والمدرسين المساعدين والأساتذة رفضوا مجرّد التوسط عند الدكتور «أبو السيوف».. شعور «عجايبي» بنفسه أخذ في التضائل حتى اختفى إحساسه بذاته.. الطالب المتفوق والأول على الدفعة لا شيء وسط هذا الموج الضخم من المصالح المُتشابكة.

المرة الوحيدة التي تلقى فيها ردّاً من أحد المعيدين كان ردّاً بأن فصله بات نهائياً، وقد صدّق عليه رئيس الجامعة.. نصحه المعيد بالأخذ بالخصومة مع الدكتور ناصر للقضاء؛ لأنه لن يستفيد شيئاً، بل سيجعلون حياته جحيماً.

غاب «عجايبي» عن الجامعة بعد هذه المحادثة، يوم بعد الآخر لا يراه زملاؤه يخرج من العُرفة.. أحد أفراد الأمن أبلغ مديرة السكن بأن «عجايبي» لم يتسلّم حقيبته التي تركها عنده منذ أربعة أسابيع. تتبّع

موظفو المدينة الأمر فلم يجده قد استخرج بطاقة التأمين الصحي من الأصل فلا يمكن أن يكون في إجازة مرضية.

اتفق زملاؤه على كتمان الأمر كي لا يُطرد من السكن، لكن وصل القرار رسمياً بفصله بعد شهر ونصف من طرده من المحاضرة.

صعد إليه مدير السكن بعد وصول القرار.. قبض على أنفه حين اقترب منه، وقال إنه صعد بعد ذهاب زملائه للجامعة وقبل أن يبدأ توافد الموظفين لينصحه بالمغادرة دون أن يراه أحد. لم يكن متأثراً رغم أنه حاول التظاهر بذلك.

لم يكن «عجايبي» قد أفرغ حقيبتيه، ولم يجدها في الغرفة حين أنهضه المدير لبحث عنها كي يرحل. لم يأخذها من كُشك الأمن منذ يوم المحاضرة.. يرتدي نفس الملابس منذ شهر ونصف.

اقترح عليه أن يستحم قبل النزول لكنه لم يسمعه وتوجه نحو السلم.. نزل معه فلم يجد الحقيبة في الكشك. أخبره فرد الأمن أنه حين تأخر في استردادها وضعها أحدهم في الدولاب وأغلق عليها.
- لكنها في دولاب أحمد طه، وأحمد إجازة اليوم.

أمر المدير الفرد الموجود أن يكلم أحمد طه أو يكسر القفل. قال له: «لو ستدفع ثمن القفل الجديد فلنكسره». قال له إنه سيفعل.

كسر الموظف القفل وأخرج ل«عجايبي» حقيبتيه فأخذها وخرج من البوابة، وانصرف المدير عائداً لمقر السكن دون الاستجابة لنداءات فرد الأمن مطالباً بثمان القفل.

جرّها «عجايبي» حتى عبر الطريق المواجه للمدينة الجامعية وجلس على الرصيف المقابل.

رآه زملاؤه حين عادوا مبكراً بعد أن غادروا محاضرة الدكتور «أبو السيوف»، لم يحضروها منذ علموا بما فعل مع زميلهم.

تقدم نحوه اثنان منهم، ثم أشاروا للبقية أن يأتوا.. توجه أحدهم إلى موظف الأمن على بوابة المدينة ليستفهم منه عما حدث.. عاد لزملائه، نظر إليهم دون أن يتكلم، ففهموا أن إدارة السكن علمت بقرار الفصل.

رفعوا «عجايبي» وأوقفوا تاكسيًا، وركب معه ثلاثة منهم بعد أن جمعوا له ما يكفي لحجز تذكرة إلى الأقصر.

وضّعه في القطار دون أن ينطق «عجايبي»؛ لا شكر ولا وداع.

سلموا تذكرته لمُحصل القطار، وأخبروه أن زميلهم يمر بأزمة نفسية، فالأفضل ألا يتحدث معه أحد، اتصل أحدهم بقریب له يسكن قريباً من محطة الأقصر أن ينتظر بعد عدة ساعات راكباً في قطار ٩٣٤، العربة الثالثة، الكرسي رقم ١٨، جهة الشباك على المحطة بمواصفات «عجايبي» ومعه حقيبة.. ويأخذه ل«عزبة

جهنم» بجوار المستشفى .

وصل القطار ولم يخرج «عجايبي».. مشى الشاب المنتظر بمحاذاته حتى وصل إلى العربة الثالثة فوجد المواصفات التي سمعها تنطبق على شاب يجلس فيها. دخل العربية ليُخبره أنه ينتظره، لكن «عجايبي» لم يرد. لحيته الطويلة، وشعره «الأكتر» المتراكم، ورائحته، أخبرته أنه ربما ليس عاقلاً، فأخذه الشاب من يده وأخرجه من القطار هو وحقيبته واستقل الميكروباص نحو «عزبة جهنم».

عرّفه السائق وقال له: «الهندسة؟»، لم يردّ عليه. سأله الشاب: هل تعرفه؟ فقال السائق: «هو عجايبي ابن الحاج الشاذلي». طلب منه الشاب أن يقوده إلى بيتهم.

فرغ الميكروباص من ركابه فنزل السائق وأخذ بيد «عجايبي» ودخل به على والديه. ولوّكّت أمّه حين رأته وقالت بصراخ: «قلت له لا تشتري الملعونة». لم يفهم أحدٌ قولها، فقال لها السائق: «جاء به هذا الشاب ولا نعرف ما به». جاء الوالد مهرولاً حين أخبره الناس بأن اثنين يسندان ابنه إلى البيت. - أين هو؟

دخل غرفة «عجايبي» فوجد حوله جمع من الجيران تجمّعوا دون سابق دعوة. شكر السائق الشاب الذي أوصله، وصرف الجمهور الفضولي، وقال للشاذلي: «أزقيه، عين وصابته». قضى «عجايبي» شهرين دون أن ينطق أو يخلق أو يستحمّ.. يبلع ما تغرزه أمه في فمه فحسب. انقطع الزوار حين يسوا من أن هناك ما يُشبع فضولهم تُجاه ما حدث، أيقنوا أنه حين تُحكى القصة فسوف تصل إليهم، لم تُفلح معه المحاولات، فاقترح أحد الأقارب تزويجه.

طارت الأم لتلك الفكرة التي كانت غائبة عنها، بالطبع سوف يحلّ الزواج كل شيء، والشقة موجودة وتجهيزها سهل، جلس أبوه يُخبره عن قرارهم فلم تبدر من «عجايبي» أي استجابة.

أصرت الأم على أنه حين يرى الشقة سيتغير؛ فالشباب في مثل سنّه لا يتوقعون أن يتزوجوا سريعاً أو يمتلكوا شقة كالتي سيملكها «عجايبي».. تحاملت أمّ «عجايبي» على خشونة مفاصلها ودخلت الغرفة على ابنها تجرّه ليستحمّ.. تمازحه وهي تحاول رفعه: «لن تكبر على أمك».

ساعدها أبوه في حملِه وأدخلوه الحّمّام، فتحت المياه عليه وهو مرتدّ ملابسه، فانفض «عجايبي» لسخونة المياه، ضحكت أمّه ورأت في ذلك علامة على نفع العلاج الذي بدّأته.

مدّت يدها لتخلع عنه القميص الذي يرتديه، فأمسك «عجايبي» يدها يمنعه، زاد استبشارها؛ فلم تصدر منه أي ردة فعل منذ أتى.

قال لها الشاذلي: «هو سيكمل حُومه، تعالي نُخرج». وافقته وطلبت منه أن يُحضر «فرج» الحلاق، وبينه على توكتوك بستارة على الأبواب أن يمرّ على منزلهم ليأخذهم إلى الشقة الجديدة.

نصف ساعة وعادل «عجايبي» مرّد الشباب، لكن على هيكل عظمي .
التوكتوك أخذهم من أمام البيت حتى الشقة الجديدة، لم تُردّ أمه أن يرى أحدٌ ابنها، أسند سائق التوكتوك
والشاذلي «عجايبي» حتى وصل إلى باب الشقة وفتحها أبوه .
قال له الشاذلي إن بها ثلاث غرف؛ غرفة نوم كبيرة، وأخرى للأطفال، وواحدة للمكتب والمذاكرة كي
يرسم عليها بيوتًا جديدة لأهل البلد جميعهم .
برك «عجايبي» على ركبته .. صرّف الشاذلي سائق التوكتوك .
جلس إلى جواره، احتضنه وربّت على ظهره قائلاً: «عيط عيط» .
بكى «عجايبي» كل الدموع التي خزّنها طوال الشهور الماضية، شعر سائق التوكتوك بطول الوقت فصعدَ
للشاذلي يخبره أنه يُعطله عن باقي المشاوير وسوف يُحاسبه على اليوم بالكامل . أشار له بعصية قائلاً:
- غُور، عيل ملتت .

نزل السائق وهو ينظر في هاتفه يحسب الوقت .
قال الشاذلي لابنه: «تعالى ندخل الشقة» . رد عجايبي: «لا، بعها» .
فرح أن ابنه نطق أخيراً . احتضنه بقوة أكبر وتجدّدت دموع الاثنين .
- أنا مفصول من الكلية .. دكتور شتمني بأمي فشتمته .
- في داهية الكلية والدكتور .. المهم أن تكون بخير .
لم يتوقّع «عجايبي» هذا الردّ من والدٍ انخدَل في ابنه الوحيد الذي انتظره طويلاً .. تحمّل الشاذلي لأجل
«عجايبي» ولادة ٦ بنات، ولم يكن يتوقّع أن تأتي النكسة من الولد .
لكنّ الشاذلي كرر الكلام حين رأى «عجايبي» ينظر إليه مُتعباً . قال:
- المهم إنك بخير، في داهية أي حاجة، المهم إنك وسطنا وبخير .. كفاية تعليم، وحياتك أمامك .. تتزوج
وتنجب لنا أحفادًا، وتشتغل أي شيء، وأنا وأمك معك حتى تجد الشغل الذي ترضاه

عمران

يتشاءبُ ويبدلُ جُهدًا كي يُبقي عينيه مفتوحتين، غرفة الكشف خاوية؛ فالتمريض يأتي متأخرًا، لكن على الطبيب أن يحضُر في تمام الثامنة. يقوم ليُعلق باب الغرفة كي ينام وهو يلعن مدير المستشفى الذي أيقظه في الثانية صباحًا، وفي أول يوم له في المكان.

كان نائمًا فوجد أصواتًا ضخمة تنادي عليه، ظن أنه يحلم لولا زملاؤه الغاضبون.. أيقظوه بعنفٍ كي يستجيب لنداء المدير، لن تصمّت الساعات الداخلية عن النداء حتى تذهب إليه، غير ملابسها التي يرتديها من طنطا، وارتدى قميصًا جديدًا ثم البالطو الأبيض.

دخل مكتب المدير فشعر بالبرد؛ الغرفة المؤدية إلى المكتب شديدة البرد، واكتشف أن مكتب المدير أشد برودة، لكن وجد المدير يجلس هادئًا دون أن يشعر بأي بردٍ.. يرتدي نصف كمٍّ ويدخن سيجارة، معه طبيب يرتدي بطاقة تعريف، اسمه «فاروق السبع».

اقترب «عمران» من المكتب أكثر، فوجد تفسيره لهذه البرودة الشديدة؛ كان المدير ممتلئ الجسم بصورة ملحوظة، فلا بد أن دهون جسمه تستغرق وقتًا أطول كي تشعر ببرودة الجو. عين المدير كان بها شيء غريب، لم يستطع تحديده، لكن شيئًا غريبًا في هذه العين.. حتى عين «فاروق» فيها نفس الشيء، ربما هي قلة النوم وإرهاق العمل، قالها في عقله وهو يستمع للمدير، لكن خبرته تخبره أنها عيون المدمنين لا جدال.

الآن بعد انتهاء المُقابلة يقسم أنهما كانا يتعاطيان المخدرات، يضع «عمران» رأسه على المكتب في غرفة الكشف، يُحاول سرقة بضع دقائق من النوم، لكن لا نوم؛ فيرفع رأسه ليلعن المدير الذي لم يقل شيئًا يستلزم إيقاف إنسان فجرًا عبر النداء في مكبرات المستشفى، غير أن عليه الاستعداد لبدأ عمله منذ الثامنة صباحًا.

ربما المفاجأة أنه لا وجود لقسم الطب النفسي في المستشفى، وأنه حتى يتم ترتيب موعد لعيادة خارجية للطب النفسي فعلى «عمران» أن يسُد العجز حسب حاجة العمل، والعمل يحتاج إليه حاليًا في غرفة الاستقبال العام.

«وأنا الآن في الاستقبال، لا عارف أنام، ولا عارف أكشِف»، قالها لنفسه بصوت مرتفع. فأصوات الحياة التي بدأت تسري في طُرقات المستشفى تمنعه من النوم.

بعد دقيقة وجد الباب يفتح؛ موظف الأمن يستأذنه أن يبدأ في إدخال الحالات.

نظر إليه «عمران» متعجبًا، فهم الموظف النظرة وابتسم:

- حضرتك جديد، انظر من الشباك.

مشى «عمران» نحو شباك غرفة الكشف المُطل على الحوش الخارجي للمستشفى فوجد مظاهرة من الأهالي. «إنهم أكثر من الذين شاركوا في دهس محفوظ أبو الوفا»، قالها «عمران» دون أن يلتفت.. أكمل كلامه قائلاً لنفسه: «كانت لحظة مهيبة».

ضحك الموظف وهو يسعل ليجذب خيال الدكتور مرة أخرى لغرفة الكشف قائلاً:

- أصبحت من الماضي يا دكتور، المهم اخذرت أنت أن يدهسوك.

دخلت أول حالة، قام لها «عمران» قائلاً: «تفضل» ومد يده بالمصافحة.

تعجب الأب، وحكى للدكتور عن تفاصيل مرض ابنه، «عمران» غرق في عرقه رغم التكييف المركزي، منذ سنوات لم يكشف على حالة تعاني من مرض عضوي.. منذ تحوّل إلى الطب النفسي لم يضطر أن يكتب لأحد دواءً للمغص، أو للصداع حتى، كان يُريح نفسه بعمل استدعاء رسمي لطبيب الباطنة كلما اشتكى نزلاء المستشفى من شيء عضوي، والآن تنتظره هذه الجموع، نساءً وأطفالاً وكباراً.

لم يسمع «عمران» كلمة من الأب، كان غارقاً في خوفه، استأذنه «عمران» أن يفحص ابنه على سرير الكشف.

فحص في جسم الولد بشكل عشوائي، ثم عاد لمكتبه وكتب العلاج للأب، وهو يكتب كان يشرح للوالد كل دواء لماذا يكتبه وما نوعه، لم يكن يشرح للمريض ولا لأهله، كان يشرح لنفسه.. يراجع الأصناف المكتوبة وجدواها وجرعاتها.. يفكر بصوت مرتفع هل هذا هو الدواء المناسب للأعراض التي يشكو منها المريض، أم أن هناك ما هو أفضل.

اعتلت الأب نظرة دهشة؛ تأكد «عمران» أن الأب اكتشف أنه يعك؛ فالأهل خبراء في طب الأطفال أكثر من أطباء الأطفال أنفسهم.. مدّ «عمران» الروشّة للوالد ليُنهي ارتبائه من نظرة الوالد إليه، فمدّ الوالد يده مصافحاً، قبض على يد «عمران» بقوة قائلاً:

- شكراً يا دكتور، إنت أول دكتور هنا تعاملنا كبشر.

جفل «عمران» من الكلمة لكنه يعلم أنها مجاملة فابتسم، تابعت الحالات، كانوا جميعاً أطفالاً، كانت خبرته من مرض أولاده هي التي ساعدته في الكشف وكتابة العلاج، روشة ثابتة للجميع، مضاد حيوي قوي ومُسكن للألم ومطهر معوي ودواء للكحة حتى لو كانت غير موجودة.

نادى «عمران» الموظف فأجابه:

- لا، الحالات ليست كلها أطفالاً، لكن تعاطفاً مع الأطفال يُرتب الناس أنفسهم حتى يدخل الأطفال أولاً.

بضع حالات أخرى، وبدأ الكبار يتوافدون عليه.. لا يعرف كيف يتصرّف، شكواهم معقدة، ولهجتهم مختلفة. لا يعرف حتى المقابل العربي للأعراض التي يشكون منها، فكيف يعرف المرض الذي يعانون منه! يحتاج إلى مترجم، أو مدقق لهجة من الذين تُوضع أسماؤهم على مقدمات المسلسلات الصعيدية، لكن الكلمات التي تتابعت على سمعه، أكّدت أنه حتى هؤلاء المدققين ربما لن يكونوا ذوي نفع.. فلا يفعلون شيئاً في المسلسلات إلا مطّ الكلمات القاهرية، لكن ما يسمعه هو قاموس مختلف.

إذن هو يفتقر إلى الطبِّ واللغة، لم يدرِ ما يفعل سوى أن تحفَى خلف كونه طبيبًا نفسيًا وبدأ يتحدث هو للحالات بغضِّ النظر عن شكواهم. يُقنع كل حالة بأنها بخير، وأنها لا تحتاج إلا إلى أن تستمر على العلاج الموصوف لها سابقًا.

كان مصدومًا حين رأى الحالات تأتي ومعها روثة مكتوبة بتاريخ أمس، كتبها دكتور تحت اسمه العديد من شهادات الماجستير والدكتوراه في تخصص دقيق متفرع من التخصص الأكبر.

اكتشف مع تتابع الحالات أنهم يأتون للمستشفى كي يأخذوا موافقة ضمنية من الطبيب على تشخيص الطبيب الخارجي، لكنهم لا يثقون في طبيب المستشفى ولا في الطبيب الخارجي. لم يفهم «عمران» تلك المعادلة أبدًا، فلماذا يأتون إليه إذن، أو يدفعون دم قلبهم للطبيب الخاص؟

بعد مُضيِّ ساعة دخلت سيدة متوسطة الطول، داكنة الوجه، عينها فيها جُحوظ. قام لها «عمران» مصافحًا، فمدت يدها قائلةً:

- أنا زينب، تمرىض معاك.

اكتشف «عمران» أن غرفة الكشف ينقصها ممرضة فعلاً، يجب أن تُسجل التذاكر، وأن تكون محرماً حال الكشف على سيدة. فتحت زينب دفترًا لتسجيل الحالات، أعطها «عمران» التذاكر التي كشف على أصحابها قبل أن تأتي فقالت له:

- لا يهم أن نثبتها، نبدأ من وقت أن أتيت.

لا يتقاضى أجره بناءً على عدد الحالات التي كشف عليها، لو فعلت المستشفيات هذا لشهرت إفلاسها. رغم ذلك انزعج من تجاهلها لكل هذه الحالات.. لقد حرق فيها أعصابه وخلايا مخه مثلما لم يفعل طوال سنوات ممارسته للطب.

قطع انزعاجه صوت اصطدام باب الغرفة بالجدار؛ مجموعة رجال يدخلون بفتاة غائبة عن الوعي، أخذ «عمران» منهم التذكرة ليعرف هل يستدعي طبيب الأطفال أم الباطنة، فوجد عمرها ٢٤ عامًا. قال لزينب: «استدعي طبيب الباطنة»، نظرت إليه وقالت: «انتظر».

قالتها بحسم جعله ينتظر فعلاً. وضع الأهالي الفتاة على السرير، فأخبرتهم الممرضة بأن ينصرفوا إلا أمها. رفضوا الانصراف، فقالت لهم:

- انتظروا على باب الغرفة وسنترك الباب مفتوحًا، لكن دَعُونَا نعمل.

تراجع الأهالي، التفتت الممرضة إلى «عمران» تسأله: «لماذا تريد الباطنة؟»، ردَّ والعرق يغمره: «سنها ٢٤ عامًا؛ يعني ليست طفلة، وهم يحملونها وشعرها مكشوف رغم أن كلهن محجبات، إذن الموضوع طارئ». قالت له زينب بنبرة فيها بعض العطف: «أنت جديد هنا، اصبر».

اقتربت من سرير المريضة وأغلقت الستارة عليهم، طلبت من الأم الانتظار خلف الستارة. اقتربت زينب

من البنت قائلةً:

- أهلك لن يرحلوا إلا وأنتِ معهم، إمّا أن تقومي حالاً بإرادتك، وإمّا سأتصرّف أنا.

انتظرت بضع ثوانٍ ولم يبدر من البنت أي تصرّف.. فرح «عمران»، سيثبت أنه كان على صواب والبنت ليست مدّعية، خرجت زينب من خلف الستارة، فبدأ «عمران» في مراجعة العلامات الحيوية للبنت، وإجراء الفحص العصبي لها. كان كل شيء سليماً، فبدأ يقتنع برأي زينب.

عادت زينب وفي يدها سرنجة فيها محلول أزرق، رفض «عمران» أن تفعل هذا. لكنها أصرّت وقالت إن البنت لن تفيق إلا بهذه الصورة. حاول منعها لكن في ثانية واحدة دفعت زينب كل الكحول الموجود في السرنجة داخل أنف البنت؛ فقامت البنت تكحّ وتصرّخ.

سمع «عمران» ضحكات الأهالي من خلف الستارة، وكلمات الحمد التي تمتت بها الأم.

نظرت إليه زينب نظرة انتصار قائلةً:

- قلت لك، كلهم عيال مسلسلة.

أزاحت الستار ونادت بفخر على الأهل:

- تعالوا خذوها، كانت تريد أن تعرف مقدار غلاوتها عندكم.

سألها الأب:

- يعني لم يكن عندها شيء؟

فأجابت زينب:

- ولا صداع حتى.

أزاح رجل غاضب الأب ودخل على سرير الكشف مندفعاً وجذب البنت من شعرها.. جرّها على أرضية الغرفة نحو الباب. تستغيث البنت بأمرها فلا تقدر الأم على تخليصها. الأب يقول:

- يا محمود، لكم بيت يستركم.

التفت «عمران» لزينب غاضباً: «أرأيتي ماذا فعل كلامك؟»، فقالت ببرود: «بنات تستحقّ الحرق».

أجابها عمران: «حتى لو كانت تدّعي، فلا تُخبري الأهل بذلك، قولي لهم انهيار عصبي، هبوط في نسبة السكر، أنيميا... قولي لهم أي شيء إلا كلمة الدّلع».

لم ترفع زينب رأسها من الدفتر الذي سجّل فيه الحالات وردّت عليه:

- تفتكر سيفهمون كلمة انهيار عصبي؟! هم معيز.

معيز... الآن فهم عن أي شيء كان يتحدّث زملاء غرفته الليلة الماضية.

بعد أن عاد من غرفة المدير لم يستطع النوم، لكنه لم يستطع الصحو أيضاً، سمعهم يتكلمون يقولون:

المعيز قالت، المعيز تشاجرت، كان المعيز كثيرة جدًا اليوم... ابتسم في رُقادِه ظنًا أن الأطباء ينشغلون بهذه الحيوانات لتلك الدرجة!!.. خَمَّن أنهم ربما جميعًا من الأقصر ويتشاركون في مشروع لتربية الماعز. لكنه حين فهم الآن من زينب غضبَ أكثر.. استمر يحرك رأسه يمينًا وشمالًا، وينظر إلى زينب ويضم شفثيه. لا يريد أن يدخل معها في خلاف، مَلِك لسانه لكنه لم يملك تعابير وجهه: «هم يقولون على الأهالي معيز. فرضًا أن جميع الأطباء من خارج الأقصر، فلماذا تقول بنت الأقصر مثلهم؟!». نظرت زينب إليه حين شعرت أنه ينظر إليها، وقالت:

- إيه فيه؟ إيه عاوز؟.

صَحِح لتقديمها كلمة «إيه» على الكلمة التي تليها، سيكشفُ أنها عادة أهل الأقصر في طرح الأسئلة، ربما تكون عادة أهل الصعيد كلهم، لكنه لم يعرف إلا الأقصر. إمَّا أن الكلام خرج من جنوب مصر لكنه انقلب حين وصل إلى شمالها، وإمَّا العكس. لكن بعد شهور سيكشف أنهم الأقرب للصواب في طريقة الأسئلة، فأداة الاستفهام تسبق الفعل: ماذا تريد؟ لماذا تفعل؟ وهكذا. هم فقط يستبدلون بكلمات الاستفهام المختلفة كلمة واحدة «إيه».

لم يستطع كَبَح لسانه أكثر فقال لها: «لماذا تطلقون عليهم المعيز؟» لم ترد، قالت: «سوف تعرف مع الوقت أنهم معيز لا ينفع معهم إلا عصا الغنَّام». نادت بصوت مرتفع على موظف الأمن ليُدخل الحالة التالية. تتابعت الحالات ولم يقطع «عمران» ورقة واحدة من دفتر الروشتات.. الحالات تأتي بأدويتها وروشتاتها، وعمران لا يفعل إلا طمأنتهم أن العلاج مضبوط، والتشخيص سليم، والدكتور الخارجي شاطر. بعد أن اعتاد دخول الحالات واطمأن إلى أنه لا مفاجآت في حالات الكشف، بدأت عينه تراقب الناس وتعبيراتهم؛ يدخلون خائفين، يقفون لا يجلسون، يتكلمون بسرعة. يمد «عمران» يده لمصافحتهم فيترددون، يدعوهم للجلوس فلا يجلسون إلا بعد إلحاح، يطلب منهم الهدوء وتكرار الكلام فيفعلون غير مُصدِّقين. تختلف نبرتهم حين يتكلمون بهدوء، يصبحون بشرًا، يضحكون أو يتوجعون، والأهم أنهم يحاولون التوجُّع بكلمات قاهرية حين يلحظون أن الدكتور من بحري. لكنهم حين يدخلون عليه لأول مرة يكونون آلات تسجيل تعمل بسرعتها القصوى.

زينب تنفخ:

- الحالات كثيرة يا دكتور، حرام، وقت كثير على حالة واحدة.

يطيعها «عمران» فيُسرع من وتيرة الطمأنة والكشف. بدأ يحفظ الكلام الذي يقوله، لهذا لم يُعد يستغرق وقتًا في تجميعه. أخبرهم موظف الكشف بأن الحالات انتهت، تنهَّد «عمران». التفتت إليه زينب:

- لولا أني اليوم عندي صبح ونوبتجية لانصرفت قبل ساعتين، الساعة الآن الرابعة، حالات الكشف يجب أن تُنهيها قبل الساعة الواحدة، وإلا بعد ذلك سأقوم أنا وانتظر أنت حتى تأتي الممرضة التي تسلم

منِّي.

اعتذر لها «عمران» عن الإطالة، وسألها:

- الآن ماذا نفعل؟

قالت:

- الآن نأكل.. حضرتك تصعد إلى كافيتيريا الأطباء في الدور السادس، وأنا أنزل لكافيتيريا التمريض في المطبخ في البدروم.

- كافيتيريا لأهل البلد بالمجان، وأخرى للسياح بالغالي.

- إنت أهل البلد يا دكتور، كله بالمجان. لكن يجب ألا يختلط الأطباء بالتمريض.

مشى نحوها خطوتين قائلًا:

- لكن لا يوجد أي قاعدة تقول ذلك». ردّت بصوت مرتفع: «زميلك فاروق الضبع هو صاحب الاقتراح.

ضحك «عمران» متعجبًا، فابتسمت هي الأخرى.

الفجوة التي بينهما تقاربت قليلًا. سألها:

- ماذا لو أتت حالة جديدة؟

قالت:

- لو أتت سأتصل بك، هات رقمك.

ساعتان واتصلت به «زينب».

انصرفت الحالة مبتسمة للطبيب الذي كلمها بهدوء ولم يفعل عليها أو يستعجلها.. نصف ساعة، واتصلت به لحالة أخرى، بعد دقائق من انصراف الحالة أتت أخرى. قال لزينب: «سأنتظر هنا بدلًا من الصعود والنزول». عرضت عليه أن تجتمع له عددًا من الحالات ليكشف عليهم مرة واحدة، فرفض: «لا داعي لأن ينتظر الناس مدة طويلة، ربما كان فيهم من يحتاج التدخل السريع». قالت زينب بسخرية: «أوامرك يابو قلب خفيف».

بعد ربع ساعة وجد «زينب» تعود بكوي شاي، وقالت: «لا يصح أن تكون أنت هنا وأنا لست هنا». طمأنها أنه لو مرّ المدير ورآه يجلس وحيدًا فسيُخبره أنه من طلب منها إحضار أي شيء.. ضحكت «زينب» بصوت مرتفع، فسكبت بعضًا من الشاي على الأرض فأخذ منها «عمران» الكويين، وهو ينتظر تفسيرًا لهذا الضحك.

قالت بعد أن هدأت:

- المدير؟! أنا أخاف من الحشاش النسوانجي؟.

لم يُرد «عمران» سماعَ المزيد فقال:

- آسِف، لو مرّ لن أخبره شيئًا.

شكرته «زينب» على اهتمامه، وقالت: «المدير مدير على الجُدد فقط، لكن نحن هنا من قبله ونعرف كل خبايا المستشفى، ونعرف خباياه شخصيًا، لو تعرض لأحدنا لفضحناه». ثم صممت وكست الجديّة ملامحها قائلة: «أنا أقول لك هذا وربما كنت من عصافيره، فلا يهمني».

رد «عمران» بسرعة ليمحو تلك الفكرة:

- لا لا، أنا أيضًا لعنته حين أيقظني منتصف الليل، ولم أرتح لمنظر عينيه ووجهه هو ودكتور المخ والأعصاب «فاروق السبع»، لكن لم أعرف السبب إلا منك الآن.

صممت «زينب» لفترة وهي تنظر إلى «عمران»، ثم أضافت وهي تنصرف:

- لا يهمني أن تنقل كلامي للمدير، ولا للضبع.

يومًا بعد الآخر تزداد شهرة «عمران» في «عزبة جهنم»؛ اشتهر بأنه لا يكتب كثيرًا من العلاج ويستمع للناس.. سمع «عمران» تلك الجملة من الكثيرين، فيضيف إليها في ذهنه جملة «ولا يمارس الطب ولا يقدم أي تشخيص حقيقي».

يسأل الناس عن مواعيد مناباته ليحضروا فيها.. أحبه زملاؤه لذلك.. ظن في البداية أن حُب الناس سوف يثير غيرتهم، لكن على العكس، رآهم في فرحة المعفو عنه من حُكم إعدام. أخبره زميل له أنهم لا يعارضون حُب الناس له ما دام في الشغل الحُكومي.

- نقضي نحن منابوات هادئة بلا كثير من الضغط، وتغرق أنت مع المعيز، ونتقاضى في النهاية نفس المرتب.

مع ضغط الحالات كان يكره نفسه، يكره اللحظة التي أحبه الناس فيها، لكنه كان يُضمر هذا، يخشى أن ينفجر في مريض لا ذنب له.

مرّت أيامه في المستشفى متشابهة، ربما لا يعرف الليل من النهار إلا حين يشعر بحركة زملائه في الدور في أثناء نزولهم للبصمة، ينزل معهم من باب التمشية، أو يقوم ليصم وهو في غرفة الكشف كأنها استراحة من المرضى. لكن لم يكن يهتم بالبصمة كما يفعل زملاؤه، اعتاد في المستشفيات التي عمل بها من قبل أن لكل شيء تصريحًا، وأن موظف البصمة تسهل ترضيته ليحل له أي مشكلة في الحضور والانصراف. وظن أن الأمر هنا سيكون أسهل؛ لأنه مقيم في المستشفى طوال الأربع والعشرين ساعة.

كان الشيء الغريب الذي افتقده «عمران» في المستشفى هو الشجار، شجار المرافقين بعضهم مع بعض،

وشجار الجميع مع الأطباء. كان الهدوء الذي يغلف المستشفى، وسلاسة سير العمل، هما ما يُشعرانه بأنه في جزيرة منعزلة عن باقي المستشفيات. لكن لم يدم هذا الشعور بالغرابة طويلاً، فقد جذب حنينه للشجار أول شجار له في «عزبة جهنم».

رجل كبيرٌ يحمل طفلاً يتشنج. الرجل يصرخ: «حفيدى يموت، أغيثونا». هرول ناحيته «عمران»، ونادى في التمريض أن يُحضروا الكانيولات والمحاليل الأولية التي يعرفها، انزوى في ركن يُخرج هاتفه ليتصل بطبيب عناية الأطفال لينزل ويتعامل مع الحالة.

رآه والد الطفل يُمسك هاتفه، فجرى ناحيته قائلاً: «ابني يموت وأنت تلعب في المخروب». أمسك الهاتف ورماه في جدار غرفة الاستقبال. جرى «عمران» ناحية الهاتف وهو يصرخ:

- كنت أتصل بطبيب الأطفال يا مُتخلف.

قال الأب:

- تقصدني أنا بالمتخلف يا حيوان يا ابن المتخلفة؟

لسعت الكلمة «عمران»، كان قد نسي الإهانات بعد أن تحوّل لتخصّص غير طارئ كالنفسية، بعد أعوام من الباطنة العامة، ليحتفظ بما تبقى من كرامته، وقدرته على النوم.

جرى «عمران» ناحيته ليضربه، تكاتف الأمن على «عمران» وأمسكوه، جذبت أصوات الشجار كل المستشفى، بما في ذلك «الغرباوي» وطبيب الأطفال.

توجه طبيب الأطفال للتعامل مع الحالة، وأمر الغرباوي «عمران» بأن يسبقه إلى مكتبه.. كانت نبرته مهينة، كأنه يُحدّث عاهرة من عاهراته.

رأى أبو الطفل أن المدير يُجأى للطبيب، فقال: «لن يذهب لأي مكان، سأقتله مكانه.. واضح أنه لا يعرف من أنا، وأنا ابن من».

ردّ عليه «عمران» بانفعال:

- المهم إن أمك تكون عارفه أنت ابن من.

الجملة صدمت أبا الطفل فأخرج سلاحاً من جرابٍ في حزامه وصوب ناحية «عمران».

سكنت الرصاصة الجدار المواجه لـ «عمران»، أتت بعيدة عنه بمسافة كبيرة، تجمّد في مكانه، لا يُصدق ما حدث للتوّ.

تقدم «الغرباوي» مسرعاً إلى جدّ الطفل قائلاً: «خذ الباشا ابنك يا حضرة النائب وتفضّل في مكتبي». وأمر «فاروق السبع» أن يُرافقهم إلى المكتب.

ثم نادى لـ «لعقيلي»، وأشار للكاميرات الموجودة في زوايا الاستقبال والطريقة. تقدّم «الغرباوي» لعمران،

وأمسكه من كتفه.. الصدمة لم تزل مسيطرةً عليه. تحرك مع «الغرباوي» حتى مكتبه.. جلسوا، فقال «الغرباوي» للجد:

- ابنك أخطأ، دعه يعتذر للدكتور كي ينتهي الموضوع.

لم ينتظر «عمران» رد الابن، فقال:

- لا، اعتذار؟! هذا شروع في قتل واعتداء على موظف عام، سأبلغ الشرطة!

توجه «الغرباوي» إلى الجد وابنه، قائلاً: «اتفضلوا أنتم يا حضرة النائب، انتظروا في الخارج وسأخرج لك حالاً». حاول «عمران» أن يقبض على الشاب، فأمسكه «فاروق» من ظهره، لا يعرف من أين يأتي «فاروق» هذا.

أغلقوا الباب، التفت إليه «الغرباوي» قائلاً: «أنت لا تعرف من هذا، ولا تعرف لماذا يحمل ابنه سلاحاً، ولهذا نعذرك، ولن نمنعك من إبلاغ الشرطة». هداً «عمران» حين سمع الجملة الأخيرة، وأسند ظهره إلى الكرسي.

داهمه «فاروق» ببقية الكلام:

- لكن لا توجد تسجيلات تثبت ما تقول، ولا شهود يؤكدون كلامك. ستكون أقوالك ضد أقواله فحسب، ولا نضمن لك أصلاً أن تستطيع الوصول من بوابة المستشفى إلى قسم الشرطة.

«الآن عدت لما أعرف»، قالها «عمران» لنفسه، نفس السيناريو في كل شجار في أي مكان. تذكر كلمات صديقه الأولى، «أنت فرد بلا قبيلة». كانت التهديدات واضحة، ولم يعتد «عمران» أن يواجه هذا الضغط، أو أن يلعب دور البطولة في رواية أحد.

قام من الكرسي منفعلًا، رزع باب المكتب وراه. بصق على الابن وهو يخرج من الباب الأساسي للمكتب. انفعل الابن وأقسم أنه سيجعله يدفع الثمن غالياً، لكن أمسكه الجد قائلاً:

- دعنا نركز على ابنك الآن، نحن لا نعرف ما به حتى الآن.

صعد «عمران» إلى السكن، حاول زملاؤه تهدئته. أخبره أحدهم بأن الموضوع ليس شخصياً، جميعهم تعرضوا لنفس الحدث بدرجات مختلفة. وأن الفارق فقط أن السلاح الناري منتشر في الصعيد كانتشار المطاوي في القاهرة. تقدّم أحدهم قائلاً:

- تعالى نتغدى في الكافيتيريا، المنظر التي تطل عليه سيريح أعصابك، واحمد ربنا أنك لم تمت.

يُحب «عمران» جدران الكافيتيريا الزجاجية، والحقول الممتدة أمامها، يحيط بها في النهاية جبل دائري كأنه يحتضن المنطقة كلها. صعد معهم، وجلسوا على الطاولة ينتظرون طعامهم. أتى العامل بأربع وجبات فحسب. راجعه أحد زملاء عن الوجبة الناقصة، فأخبره أن الدكتور «عمران» لم يبصم حضوراً صباحاً،

ولا حتى انصرفاً، فليست له وجبة.

انفعل عمران، قائلاً: «أنا لا أتسول، هذا حقّي، وأنا مرزوع أمامك الآن». اعتذر العامل، فأشار زملاءه إلى العامل بالانصراف. قدّم خالد وجبته لعمران، فرفضها «عمران» قائلاً بانفعالٍ: «مستشفى ابن كلب، كنت سأموت ويقولون لن نصرف لك رغيف عيش ومثلث جبنة؛ لأنك انشغلت عن البصمة بسبب تافه وبسيط، مثل تعرضك لمحاولة قتل».

ظهر صوت «فاروق» من العدم قائلاً: «الغداء يا دكتور عبارة عن ٢٠٠ جرام بروتين ومكرونة وفاكهة وكوب شاي. ثم إن هذه هي اللوائح، يكفي أننا نخالف اللوائح ونصرف لكم طعاماً في الأيام التي لا يكون لديكم نوبتجيات فيها، أنتم تقيمون في المستشفى فعلاً، لكن أكلكم يكون علينا في الأيام التي تخدمون فيها المستشفى، لكن في باقي الأيام يكفي أن المستشفى يؤويكم».

بصق «عمران» ناحيته، فلم يتحرك فاروق:

- قال شكرًا يا ابن... الأصول.

انفعل «عمران»، فهو يعرف ما يلمح إليه «فاروق». حاول زملاؤه تهدئته وتغيير الموضوع. قالوا:

- لم تبصم للانصراف الآن وهذا مفهوم بسبب ما حدث، فلماذا لم تبصم صباحًا؟.

حاول التركيز.. فجأة ابتسم قائلاً: «حين نزلت كان ميعاد البصمة قد فات». فكثرت ابتسامته الوجوم المسيطر على الطاولة، فبدءوا يتناولون الطعام، وكونوا من وجباتهم وجبة خامسة لعمران. ارتفعت ابتسامته «عمران» قائلاً: «أنا لم أبصم لأن... ثم سكت ليضحك...»، ثم قال:

- سأحكي لكم وأنتم تحكمون هل ما دار في بالي حقيقي أم لا؟ انتظرت المصعد الداخلي، من السكن للاستقبال. ضغطت على الزر، فأظهرت الشاشة أن المصعد يقف أمامي بالفعل. انتظرته ليفتح عدة دقائق فلم يفتح. ظننته معلقاً فركلت بابه المعدني ركلتين وانتظرت، دقيقة أخرى وضغطت الزر بشكل متكرر، دقيقة أو دقيقتان، ووجدت الباب يفتح. وجدت داخله شادية، موظفة الأمن، ومعها نصير، موظف الأمن.. كانت هيئتها غير طبيعية، ووجدت في جانب المصعد حين ركبت مفتاحاً موضوعاً في قفل الطوارئ ليُلغى أي تحكم خارجي في المصعد.

ضحك زملاؤه بصوت مرتفع، قائلين: «كل ما دار في ذهنك صحيح». نظر «عمران» متعجباً، فأكدوا أن شادية ونصير مخطوبان، وحتى لو لم يكونا مخطوبين، فحركة الأسانسير معروفة بين ثنائيات معينة، وليس «عمران» أول من يلاحظ.

قاطعه أحد زملائه قائلاً:

- أحياناً نتجنب النزول في المصعد في شيفتات الليل كي لا نرى تلك المناظر العكرة، وأحياناً نتعمد الانتظار أمام كل مصعد معلق كي نتسلى قليلاً بتخمين اسم الثنائي الموجود داخله.

خبط أحد زملاء على كتف عمران، قائلاً:

- كُلُّ كَلِّ، ليس لنا من شغلنا إلا الأكل، المرتبات لعائلتنا، ونحن لا نستفيد بغير تلك اللقمة.

ثلاثة أشهر مرت بعد هذه الحادثة، دون أن يطلب «عمران» إجازة. كان يتجنب الاحتكاك بالإدارة في أي شيء، يعرف نوبتياته عند نزول الجدول ويحضرها، لا يُبدّل مع زملائه، ولم يعد يتأخّر في البصمة كي لا يحتك بأي موظف.

كانت كلمة «فاروق» عن صرف الوجبات لهم في غير أيام عملهم مهينة، لم يستطع أن يجبر نفسه على الصعود للكافيتيريا مرة أخرى. أهانته فكرة أن يتغرب عن أهله وبلده، ويتعرض لإطلاق نار كاد يقتله، ويُجذّثه مديره في حفنة أرز أو رغيف عيش، فكان موظف الكافيتيريا يُحضر له وجبته حتى السكن.

تلاشت الفكرة التي زرعتها حفاوة استقبال الناس في أول مرة يدخل فيها المستشفى، عن كرمهم أو تقديرهم لما يفعله. شعر أنهم لم يضطروا للاصطدام معه فحسب.

أيّاً كانت دوافعه وراء أحواله في الشهور التالية للحادثة، فإنه كان في النهاية موظفاً مثاليّاً بالنسبة لأي مدير؛ يحضر في مواعده، وينصرف بعد مواعده، ويتحمل مئات الحالات يومياً دون كلمة تأفف، وتجنبه الحالات فلا يتشاجرون معه.

في إحدى مرّات المرور من لجنة التأمين الصحي الشامل لفت نظرهم أن موظفاً يبصم كل يوم، لم يرغب يوماً واحداً عن البصمة لمدة ٩٠ يوماً. «تزوير واضح»، كان هذا قرارهم! لكنهم تراجعوا عنه حين رأوا «عمران» وسألوا كل من في المستشفى عن حقيقة أنه يعمل ٦ أيام أسبوعياً لمدة ٩٠ يوماً. وببصم في يوم الجمعة كذلك كي يثبت أنه على قوة العمل وتُصرف له وجبات الطعام.

سحبت اللجنة تهمّة التزوير، لكنها أوصت بضرورة أن يخرج من المستشفى لفترة ثلاثة أسابيع إجازة عن الشهور الثلاثة، كي لا يتأثر أدائه أو تعامله مع المرضى.

وصل القرار إلى «عمران» وهو مع «زينب» في غرفة الكشف. زمّ شفّتيه قائلاً: «لم يحدث شيء مشابه أبداً!! لجنة تجبر موظفاً على الراحة كي لا يتأثر أدائه». ضحكت «زينب» وقالت:

- طول عمرك طيب.. القرار سببه أنك ما دمت لم تأخذ إجازة فستأخذ مُقابل كل ساعات العمل الإضافية رقماً إضافياً وحوافز، هم يُجبرونك على الإجازة كي لا تُكلّف المستشفى أكثر مما يجب.. ومكانك الخالي في الأسابيع الثلاثة سيشغله أي حدّ من زملائك.

فهم «عمران» من كلامها أنه مضطر للعودة إلى بيته لأسابيع ثلاثة. قال لها:

- يبدو أن هذه آخر مناوبة لنا معاً، نلتقي بعد ثلاثة أسابيع.

تنحنحت «زينب» كأنها تريد قول شيء. قال لها عمران: «ماذا تُخفين يا ساحرة الجنوب؟»، قالت: «لم

يهمني أن تنقل كلامي إلى المدير أول ما تقابلنا، لكن ما سأقوله لك لاحقًا هو ما لا أريد فعلًا أن تنقله لأحد». قالت تلك الجملة وهي ترفع كوب الشاي من على المكتب.

قالت:

- عجائبي ابن جارنا الحاج «الشاذلي» عاد من الخليج وحالته بائسة.. منذ شهر يجلس في غرفته لا يكلم أحدًا ولا يدخل عليه أحد، المشايخ والقساوسة يئسوا منه، وجلسات الزار لم تنفع، وأطباء البلد كلهم يئسوا منه، ربما تنفع أنت معه. فهل توافق على الذهاب إلى منزله والتحدث مع أبيه ومعه؟.

قال عمران:

- ربما يُعاني من أي مرض عضوي، هل زار طبيب باطنة أو مخ وأعصاب قريبًا؟». قالت له زينب: «كل الأشعة والتحليل سليمة.

اطمأن «عمران» بتلك الجملة، وعلم أنها حالة نفسية. سأها:

- هل حدث له شيء سيئ مؤخرًا؟.

أخذت ما تبقى من الشاي في الكوب وقالت:

- شيء؟ قل أشياء.

وعدها «عمران» أنه حين يعود ستكون زيارة هذا الشاب أول ما يفعل.

عجايبي

دخل «عجايبي» الشقة أولاً، ثم اندفع العساكر والضابط خلفه.

يفتح باب الشقة على صالة واسعة، تتوسطها طاولة سفرة حولها ثمانية كراسي؛ وجود السفرة غير معتاد في بيوت معتاد الأكل على الطبلية أو على الأرض.. لكن «إنجي» هي من أصرت على تأسيس البيت على الطراز الحديث: سفرة وغرفة للمعيشة وصالون وأنتريه.

طرق أحد العساكر على ذراع زميله ليلفت نظره إلى شيء ما. نظر «عجايبي» حيث ينظرون فوجدهم يدققون في المطبخ المفتوح؛ المطبخ الأمريكي كما أرادته «إنجي»، رغم معارضة «عجايبي» وجميع أهله، فإن والدها أصرت على أن يكون المطبخ كما تطلب ابنته.

«لا أحد غريباً سيدخل الشقة» هكذا فسّر الأب موافقته.

ثم أكمل أنه لو اكتشف أنه غير مناسب بعد الزواج فيمكن وضع ستارة ثقيلة على الجدار المفتوح لتُغلق وقت وجود غرباء، ثم تفتحها «إنجي» متى أرادت.

لم تنفع معارضة أحد في ثني البنت وأبيها عن موقفها. الحاج «البغدادي» يحب «إنجي» التي جاءت على شيخوخة منه.. أمها تحبها أيضاً، لكنها دائماً كانت تقسو عليها قليلاً كي تتعلم أمور النساء في إدارة البيوت. لكن «البغدادي» يمنعها: «معك ٤ بنات غيرها»، يشير إلى زوجات أولاده. يقول لأمها:

- اطلبي من زوجات الصبيان ما تريدن، أمّا «إنجي» فلن تفعل شيئاً، هي أميرة وعلى اسم أميرة، وبنت أميرة.

تضحك «فاطمة» لمغازلة زوجها المضمرة، وتضربه على كتفه قائلة:

- تضحك عليّ بالكلام.

لم يرد أهل «عجايبي» إغضابه ولا إغضاب ابنته. فقد كانت موافقتهم على الزواج صعبة، وأتت بعد أن فهموا جميعاً حيلة «البغدادي» للتخلص من الزواج، ويئسوا أن تتزوج «إنجي» من «عجايبي». قضت والدة «عجايبي» شهرين تجوب «عزبة جهنم» بحثاً عن عروسة لابنها بعد أن قررت تزويجه.. علّ حاله ينصلح. لكن الرفض كان النتيجة دائماً.. لا تسمع رداً مثل الآخر؛ أحياناً البنت صغيرة، البنت مخطوبة لابن عمها، البنت تغوى التعليم...

هي في داخلها تعرف أن البلد أضيق من ضرع الجاموسة، ولا بُدّ أنهم يعلمون بحال «عجايبي» فلا يُريده أحد.

الرد المختلف أتى من أمّ قالت لها: «لماذا تخطبون من آخر البلد وعندكم لحكمكم ودمكم؟». نظرت أمّ «عجايبي» إليها تُخبرها أنها دارت على كل اللحم والدم الموجود في العائلة فلم تجد عندهم بنات، ثم تستطرد

بفخر: «تعرفين أننا أرض عفيفة لا تطرح إلا الرجال».

انتفضت أم «عجايبي» حين أخبرتها السيدة عن «إنجي» بنت أختها، وردت:

- صغيرة، البنت لم يأتها العُذر.

حلّت لها السيدة هذه المعضلة؛ قالت:

- اخطبوها له، وحين يخرطها خراط البنات زوّجوهما، وفي هذه المدة يبحث «عجايبي» عن عملٍ وتكون الشقة قد اكتملت.

ضحكت أم «عجايبي» قائلةً:

- معك حق يا حربية، حتى فترة الخطوبة أحسن من الزواج وستجعل الولد أحسن.

ضحكت السيدة بدورها قائلةً:

- اعزمونا على الفرح.

قامت أم «عجايبي» متوجهةً إلى بيت أختها أم إنجي. شيعتها السيدة بنظرة حسرة قائلةً:

- ربنا يكون في عونك يا «إنجي»، حبل المشنقة لا بُدّ له من رأس، لكن لن تكون بنتي، وعندك خمسة رجال يحمون ظهرك.

وصلت أم «عجايبي» إلى منزل أختها، لم تخلع عنها طرحتها ولا حذاءها.. دخلت على المطبخ حيث أختها، جذبتها من يدها إلى كنبه في ركن الصالة. همست لها: «بتك لابني»، لم ترفض «فاطمة» طلب أختها، ولم تقبل. قالت: «وردة البنت لم تفتح». قالت أم عجايبي: «خطوبة فقط».

جرت «إنجي» على أبيها حين سمعت الحوار:

- يريدون تزويجي لعجايبي.

طمأنها أبوها وأخبر «فاطمة» أن هذا لن يتم، لم تُشاركه «فاطمة» الرفض. ردّت أن المهم أن يبحثوا عن

حل لا يجعلها تخسر أختها. رد البغدادي:

- قولي لها البنت صغيرة.

قالت فاطمة:

- قُلت، لكن الحقيقة أن بنتك جاءها العُذر، هي لم تُخبرني لكنني أفهم، وألاحظ زيارات زميلاتنا لها كل شهر بأكياس سوداء. وما دام أختي جاءت فمعناه أنها علمت شيئاً من أمّ واحدة من زميلات بنتك.

ردّ «البغدادي» يدعوهم لترك الأمر له.

بعد أسبوع كان «البغدادي» يجلس مع عائلة «عجايبي» في بيتهم، أخبرهم أنهم موافقون على خطوبة فقط

حاليًا؛ لأن البنت ما زالت صغيرة. تهلّل وجه الوالدين، لكن تنح «البغدادي» فقطع فرحتهم.

قال لهم إنه يفكر في «عجايبي» كواحد من أبنائه؛ ولهذا قرّر أن يبحث له عن فرصة عمل تناسبه وتُبعده عن عيون أهل القرية الذين لن ينسوا ما حدّث في موضوع الكلية.

تعلقت عين أمّ «عجايبي» به، فأجابها «البغدادي» بأنه أتى له بعقد عمل في الخليج.. «يعيش الولد هناك ستين أو ثلاثة يُكوّن نفسه، ثم يعود فيتزوج ويسافر مع زوجته». ثم ضحك قائلاً: «حتى لو عينه زاغت على بنت ثري خليجي فسُنحله من الفاتحة وحلال عليه الخليج؛ فلوسه وبناته!».

تبادل أهل «عجايبي» النظرات.. كلام الرجل غير مريح لكنه غير مُخطئ. في الظاهر هم موافقون على الزواج، وأتى للولد بعقد عمل. كما أنها لا يَتملّان بعد «عجايبي» عنهما، لكن لا بُدّ فعلاً أن يعمل، لن يعيشا له العمر كله.

قطع «عجايبي» هذه الحيرة حين خرج وسلّم على الحاج «البغدادي»، وقال:

- أسافر بإذن الله.

قالت أمه: «اشكره على «إنجي» أولاً، ثم العقد». رد عجايبي: «عقد العمل أهم، لكن لا خطوبة حالياً». انفعَل الشاذلي قائلاً: «الرجل في بيتنا، موافق، ونقول له صرّفنا نظراً». هدّاه «البغدادي» قائلاً:

- البنت لن تحتفي، هي هنا، وأضمن لكما أننا لن نوافق على أي عريس في السنوات القادمة، هي تريد أن تُكمل دراستها للنهاية. فليذهب «عجايبي» مطمئناً وليركّز في حاله هناك. قالت أمّ عجايبي:

- فلنقرأ فاتحة الآن ليعرف الناس أن البنت للولد.

همّ «البغدادي» بالرد لكنّ «عجايبي» قاطعهم قائلاً:

- لا، نسافر الآن وبعدها نرى.

من الطائرة بدأ كل شيء ضئيلاً في عين «عجايبي». ارتفعت الطائرة بصعوبة يشعر بها هو دون باقي الركاب. كأن الطائرة مربوطة بخيوط سميكة تشدّها إلى الأرض؛ خيوط خييات «عجايبي» وخذلانه لأهله ولنفسه، خيوط المستقبل الذي تبدّل فجأة ودون إنذار، خيوط البنات اللاتي رفضنه خوفاً على أنفسهن. كان الثقل الموجود في قلب «عجايبي» وروحه كفيلاً وحده بالألّا يجعلها تطير، لكن الآلات لا تُبالي بقلب الإنسان فطارت وارتفعت.

تقاربت البيوت، فالشوارع، فالمدن. باتت القاهرة التي كان يُلمّ بها مجرد كتلة خرسانية بشعة المنظر.. تابعت الطائرة تحليقها فانضمت إلى القاهرة باقي المحافظات شمالاً وجنوباً.. لا تختلف القاهرة كثيراً عن باقي المحافظات من تلك الزاوية.

لون أصفر يغطي كل شيء، شريان وحيد ضيق يحمل الحياة لكنّ القاهرة تمصّها كلها منه وترسله لباقي المحافظات معكراً وملوثاً بحضارتها وهمومها ومخلفات سكانها.. يتجدد النيل في الجنوب ليدور مرة أخرى نحو الشمال على الأرض الكروية، فتلوّثه القاهرة مرة أخرى.

يدقق «عجايبي» النظر، يبحث عن القاهرة وسط كوم الرمال الذي بات يراه من الطائرة. لم يرها، لكنها لم تختفِ، تمنى لو أنها بلعت في باطن الأرض، أو غطتها عاصفة بالرمال. لكنه يعلم أن القاهرة لا تختفي، ستظل قاهرةً للزمن والبشر. لن يُعاقبها أحد على حُلْمه الذي سحقتة، ولا عن المرضى النفسيين الذين تمنحهم حق التحكّم في مصائر الآلاف من الطلاب. ربما القاهرة هي التي تحوّلهم إلى هذه المسوخ، لا أحد يدخل القاهرة ويبقى إنساناً.

حاول البحث عن شمس القاهرة التي استقبلته في أول أيام الجامعة.. لم يجدها، رغم أن النهار في بدايته، ولم يكن الغروب قد حلّ. شعر أنها أغوته ثم هربت وتركته وحيداً يواجه بلداً لا يعرفه، ومستقبلاً لا يتخيّل كيف سيصبح أفضل أو أسوأ.

اقتربت منه مضيئة الطيران لتُعطيه وجبة طعام.. شكرها وتناولها، اكتشف أنه جوعان، جوعان جداً. ناداها ليسأل عن إمكانية الحصول على وجبة أخرى؛ ترددت المضيفة، لكنها اعتذرت بعدم إمكانية ذلك. ظلّ الجوع مسيطراً عليه.. الجوع علامة الحياة، هكذا قال لنفسه. يبدو أن السفر سيكون فيه علاج «عجايبي» حقاً.

هبط سُلم الطائرة مسرعاً يبحث بعينه ورأسه عمّن أتى ليُقلّه، ساعتان في صالة الوصول دون أن يأتي له أحد. وقف خارج المطار لم يجد أحداً. إلا شمس الخليج، رفع عينه إليها فوجدها شمساً باردة، تُنير الجو لكن لا تشعر أن أشعةً تنبعث منها.

أخرج الورقة التي أعطاها له حماه المستقبلي وفيها عنوان ورقم هاتف «زياد» الوسيط بينه وبين الكفيل. لا يملك هاتفاً برقم محلي؛ لذا فالأسهل هو الوصول للعنوان.

قدّم الورقة لسائق التاكسي فأخذه للعنوان، دفع له من بضع ورقات نقدية أعطاها له حماه، وعلمه كيف يوزع الأوراق النقدية في ساعة اليد والجوارب وجيوب البنطلون كي لا تضيع أو تُسرق كلها دفعة واحدة.

دلّه الجالسون في العنوان عن الوحيد المُسمى «زياد»، رحّب به واعتذر عن نسيانه موعد إقلاّله. سأله «عجايبي» عن العمل الذي سيؤديه، فأخبره «زياد» أن يستريح اليوم من السفر وغداً يتحدثان. قاده «زياد» إلى غرفة مبنية من الخشب؛ الخشب المستخدم في صبّ الأسقف والأعمدة صنع منه العمال ما يشبه المربع الكبير وسمّوه غرفتهم.

دخلها «عجايبي» فوجد أرضها هي أرض الموقع، وسقفها غير موجود. نظر إلى «زياد» متعجباً، فقال له: «ماذا أخبرك البغدادي؟ ستأتي هنا لتعمل ولياً للعهد؟!»، لم ينطق «عجايبي»، فبادره «زياد» قائلاً: «المهم أن

تُرسل حوالة لأهلك بمبلغ محترم، لا يهم كيف ستحصل على هذا المبلغ».

التفت «زياد» ليرحل، لكنه استدار ليوضح كلامه:

- ليس المهم كيف تحصل عليه، لكن طبعاً مهم أن يكون المبلغ بصورة شرعية حتى لا ترحلك الشرطة لأهلك.

وضع حقيبته في زاوية الغرفة الخشبية، وأسند ظهره إلى الجدار. اهتزَّ الجدار فجفل «عجايبي» وابتعد عنه. أسند رأسه إلى ركبتيه وجلس ينظر إلى عمال البناء من باب الغرفة المغلق بستارة مكوّنة من شكاير الأسمنت المخيطة شيكارةً إلى جانب الأخرى.

عاد الثقل إلى روحه وقلبه.. كاد يغرق في النوم لكن دخل عليه رجل متوسّط الطول، جسده ممتلئ، وجهه ليس أبيض، لكنه ليس أسود أو قمحياً. إنها الكلاحة التي تعلقو وجه الشرقيّ صاحب البشرة الداكنة حين يبتعد عن الشمس لسنوات طويلة.

طلب الرجل بصوت مرتفع جواز السفر. سأله عجايبي: «مَن أنت؟»، فقال الرجل: «أنا كفيلك، هات الجواز». لم يوافق عجايبي، فصرخ الرجل منادياً «زياد».

جاء «زياد» وعبارات الاعتذار تسبقه إلى أذن الكفيل قبل أن يصل جسده إلى الغرفة، وقبل أن يعرف عن أي شيء أخذ يعتذر.

أشار الرجل لـ «زياد» بإحضار جواز سفر العامل الجديد. تقدّم «زياد» نحو «عجايبي» قائلاً: «إمّا أن تعطيني جواز سفرك الآن، وإمّا أن تعود إلى مصر». قال عجايبي: «سأرحل من هنا». تدخل الكفيل قائلاً: «لن ترحل، إمّا جواز سفرك وإمّا أسلمك بنفسك للسلطات لترحلّك، ولن تدخل الخليج أبداً بعدها».

هدأت نبرة «زياد» حين أدرك أن «عجايبي» صغير السن، ربما ملامحه تعطيه سنّاً أكبر بسبب ما عاناه، لكنّ صوته وعينه تعود لشاب لم يخبر الحياة بعد. استأذن «زياد» من الكفيل أن يعود هو للجلوس في القاعة المكيفة وسيأتيه «زياد» بالجواز خلال دقائق.

جلس «زياد» بجوار «عجايبي» وتلامست ركبتهما. قال «زياد» إنه مرّ بتلك الصدمة، ويعرف كيف تكون، وإن كل واحد من الموجودين في الموقع كان مشروعاً لشيء أكبر، لكن الظروف قضت على تلك المشاريع والأحلام.. «الجميع هنا كان شخصاً مختلفاً في مصر، لكن جئنا هنا نبحث عن لقمة العيش لأن الطموح لن يُطعمنا».

بدأ جسد «عجايبي» المشدود بفعل سجاله مع الكفيل يرتخي، مد «زياد» يده وربت على ظهر «عجايبي» قائلاً:

- لن نسألك ماذا كنت قبل أن تأتي، ولا ما الذي أتى بك؛ لأنها قصة حزينة لنا كلنا، وسنفتح خزان أحزان على الجميع؛ لذا مهما يحصل هنا، فسوف ننسأه هنا. حين نعود إلى مصر ربما نلتقي، والأغلب أننا لن

نلتقي لأننا لن نريد تذكر ما حدث هنا. استسلم لما يحدث، ودعته يحدث وأنت موافق؛ لأنه سيحدث في كل الأحوال. اصنع الكذبة التي تشاء واحكها لأهلك، كل جمعة نرتدي أحلى ملابسنا ونذهب إلى المناطق التجارية ونلتقط صورًا هناك لنرسلها إلى أهلنا فيظنون أننا في الجنة، والحالات التي نرسلها لهم تُثبت لهم كلامنا، رغم أنها ربما تكون كل ما كسبنا، لكن لن نجمع عليهم عذاب تركنا لهم وعذاب قلقهم على بؤسنا. سكرانًا من الكلام؛ أخرج «عجايبي» جواز السفر لزياد، أخذه «زياد» وهو ينصحه أن ينام هذا اليوم؛ لأنه غدًا سيبدأ الطحن، ويصبح النوم بحساب.

نام من التعب، اليوم الجديد بدأ، لكن لم يرد «عجايبي» أن يستيقظ، الشمس التي استقبلته ببرود أمس تلسعه اليوم ليقوم. كانت باردة ربما لأنها تدرك أنه سيضيع يومه بلا عمل، فلم ترد منحه أي استفادة منها. لكن اليوم أول أيام العمل، الأرض من تحته تصبح أسخن، يتقلب «عجايبي» فتلسعه حصة من الأرض.. يرفع يده ليهرش في بطنه فيجد فوقه بطانيتين. يتمنى أن لو كان كل ذلك حُلْمًا، وأنه لم يزل في المدينة الجامعية، لكن صوت «زياد» يغتال ذلك الحُلْم.

يرفع «زياد» الباب المُكوّن من الشكائر ويدخل على «عجايبي».. يقرفص إلى جواره ويهزه ليستيقظ. يرد «عجايبي» بانفعال: «صاحي». يضحك «زياد» قائلاً: «هيا لتعرف مهمتك». ينظر إليه «عجايبي» ثم يستدير إلى الجهة المقابلة. يقول لزياد: «أنت السبب». يتسم «زياد» متسائلاً: «السبب في...؟»، يقول عجايبي:

- أنك جعلت هذه النومة هي الفاصل بيني وبين الطحن، لو قطعها الآن فسأقوم للطحن.

يضحك «زياد» قائلاً: «لا تخف، نحن في الأساس لا ننام هنا. حاولت إيقاظك بالأمس لكن لم تستيقظ، فوضعت لك البطاطين لتحميك من برد الليل». يقوم «عجايبي» ويدفع البطانيتين، يسأل زياد: «أين الحمام؟»، يشير «زياد» خلف أحد المباني، قائلاً: «لو كان حمامًا خفيًا في غياب الكفيل. لكن في وجوده أو كان حمامًا ثقيلًا فبدورة المياه في سكننا في البدروم».

يفرغ «عجايبي» من الحمام، فيجد «زياد» خلفه. يخبره أن الكفيل قد حضر ويريد أن يراه يعمل. يسأله «زياد» عن مهام النجارة المسلحة التي يُتقنها فيجيب «عجايبي» أنه لا يعرف منها شيئًا. يسأل «زياد» عن مهارات الحدادة، فيهر «عجايبي» رأسه بالنفي. يمد «زياد» يده ليتفحص عضلات «عجايبي» فيجدها طرية ومسطحة، فيقول: «وأنت أيضًا لن تصلح لرفع الطوب أو الرمل».

وجه «زياد» بدأ في الانكماش، قلق «عجايبي» من خاطر أنهم سيعيدونه إلى أهله مرة أخرى. لكن «زياد» أشار بيده قائلاً: «انتظر». دقائق وعاد إليه قائلاً:

- لقد وافق الكفيل على أن تعمل حاليًا على ونش رفع الأسمنت، أو لودر التحميل، حتى تعتاد المنطقة ثم تتناوب على المهام الأخرى معنا.

لم يكن «عجايبي» يعرف القيادة كذلك، لكنَّ «زياد» أخبره أن قيادة الآلات الثقيلة في منطقة محدودة سهلة: - احفظ الخطوات الأساسية كي يسير العمل، ثم أدرك حين تسمح الظروف.

تتابعت الساعات في حرّ الخليج، ثم صارت أيامًا فأسابيع، كان يعدّ الأيام الأولى بنوبات الأرق والحنين. يتكوّر على نفسه وهو نائم كالجنين، يبكي حتى يلحظ حركة من حوله وتلاحم أجسادهم في المساحة الضيقة المخصصة لمبيتهم فيصمت.

كان يعدّ الأسابيع لا يضطراره إلى الاستحمام في حمّام العمّال العام. كان يتبوّل في أي مكان في موقع العمل. ويجبس البراز حتى لحظات الفجر، ينتظر رائحة الحمّام لتهدأ من استخدام زملائه طوال ساعات النهار وأول الليل.

تحولت الأسابيع في لحظات إلى السنة الأولى. أدرك أنه قد مضى عامٌ كامل حين أخبره «زياد» بذلك. اشتكى له «عجايبي» من حرقان في عينيه، وأنه يشعر بشيء يشكه فيها باستمرار. طمأنه «زياد» بأنه الجفاف الذي يصيبهم جميعًا بعد فترة من العمل في الحرّ.

ردّ «عجايبي» أنه لم يلحظ أي شيء غريب في عيون العمال الآخرين. ردّ «زياد» ضاحكا أنهم لهذا السبب يسمحون للمستجد بقيادة الآلات، رغم أنها تبدو مهمة بسيطة. لكن مع التركيز في القيادة، ورفع وتنزيل المون، ولفحة الحر الدائمة، والرياح المستمرة، تُصاب عيونهم بالجفاف والحرقان.

سأله «عجايبي» عن الحل، فردّ زياد: «الآن موعد ترقيتك». وأكمل أنه سينقل «عجايبي» لأي عمل في الظل، لكنه عليه أن يتحمل رفع الأحمال، والطلوع والنزول المستمر. فرك «عجايبي» في عينيه، فنصحه «زياد» بنوع قطرة للعين، وأخبره أن تلك القطرة يجب ألا تُفارق جيبه منذ اللحظة، كلّمَا شعر بالحرقان وضع منها نقطتين في عينيه.

إذن تنتهي السنة الأولى نهاية صعبة، بشعور مزمن بالإزعاج في العين.

لكن كانت «إنجي» هي من هوّنت أواخر هذه السنة لعجايبي، ثم جعلته يحتمل سنواته التالية.

عمران

تنفخ «نسرين»؛ فعمران مشغول بمكالمة امتدت لنصف ساعة. أنهى المكالمة مبتسماً وعاد للركنة حيث يجلس الأولاد وأمهم. سأله متهمكاً: «العروسة الجديدة لا تحتمل غيابك؟»، ضحك قائلاً: «مسئول الشؤون القانونية اتصل ليسألني عن الدفاية التي أخذتها معي في أثناء العودة. حولني موظفو المخزن للشؤون القانونية بتهمة تبديد العهدة؛ ولأن الشؤون القانونية فيهم الخير اتصلوا ليتأكدوا».

نظرت «نسرين» تسأله:

- أي دفاية؟.

قال لها:

- واضح أنك لم تفتحي الشنطة حتى الآن، دفاية صوف أخذتها من المستشفى كي تحميني من برد القطار ودخول الحمام باستمرار.

لم يبدُ عليها الاقتناع، لكنَّ «عمران» لم يهتم بإقناعها. الوضع في المستشفيات لا يفهمه غير العاملين بها. مكان مقدس لإنقاذ أرواح البشر، لكن لو تحتم عليك أن تختار بين إنقاذ روح وبين توقيع الحضور في مواعده، فعليك أن تختار التوقيع؛ لأن الروح التي منحتها بضع سنوات إضافية على الأرض وسط أحبابها لن تشفع لك عند موظف الدفتر الذي سيبليغ موظف الشؤون القانونية الذي سيرسل مذكرة لموظف الحسابات لاقتطاع اليوم الذي لم توقع فيه من راتبك، حتى لو تعرّضت لمحاولة قتل.

صرف نظره عنها واستدار للتلفزيون. قالت: «هذه المكالمة الطويلة من أجل قطعة قماش؟»، ضحك «عمران» مؤكداً أنها كذلك. قالت متأففةً: «لو أمك صبرت على الحياة في «كوم الأخضر» كان طالنا من ثروة ابن عمك جانب»، يردّ «عمران» مبتسماً: «يا ريتها صبرت فعلاً، كنا فزنا براحة بالنا، ولم نقع في حُفر بوريج الجبل».

أخرجت «نسرين» طرف لسانها لعمران، فقد فهمت تلميحه.. وأعادت الحديث للمكالمة، قائلةً: «تريد التمويه على المكالمة الطويلة». لم يردّ عمران، ولم تنتظر «نسرين» رده.

«نسرين» لا تعرف كيف يعمل موظفو الحكومة. لا تدخل مصلحة حكومية إلا وجمالها يسبقها، ثم أموال «عمران» تتكفل بالباقي.. تتكلم بهدوء وتنفق ببذخ، فيأتي لها كُرسى وزجاجة عصير وتقضي مصلحتها في دقائق.

نظر إلى التلفزيون الذي يشاهده ابنه، «ياسين» و«نرمين»، وعادت «نسرين» لها تفهها تتصفح.

دقيقة ونظر «عمران» إلى «نسرين» يسألها: «لماذا لم تفتحي الحقيبة حتى الآن؟ أسبوع والملاص متراكمة فيها، ربما تعفنت». مصممت شفيتها وسأله إذا كان عائداً من باريس وهي لا تدري، وأنه لا شيء ينتظرها

في الحقيبة غير ملابس برائحة العرق. «أغسلها حالاً أو بعد يوم لا تشغل بالك.. المهم ستجدها نظيفة يوم عودتك».

التفت مرة أخرى إلى التلفزيون يفكر في شعوره الآن، لم يكن هو شعوره وهو يركب قطار العودة بعد الإجازة الإجبارية، كان مشتاقاً للقاء أولاده وزوجته، طوال مدة السفر كان يفكر كيف سيكون مقابلتهم له هذه المرة؟ هل ينتظرونه على المحطة لعدم تحملهم ضياع وقت إضافي في المواصلات لقرية بوريح؟ هل تحضنه «نسرين» وتقبل يده وتعتذر عن أذاها له طوال السنوات الماضية؟ أو ربما تقول له إنها عرفت قيمته وتريده أن يتظلم لدى الوزارة كي ينقلوه إلى طنطا مرة أخرى.

تلاشت تلك الأحلام عند رصيف المحطة الفارغ من زوجته وأولاده، ثم قضت «نسرين» على ما تبقى من أحلامه حين حاول التقرب بعد عودته منها فرفضت؛ لأنها مرهقة من أعمال المنزل. نام والنكد يحضنه، ثم جلس الغضب معهم على طاولة الطعام حين رأى الطعام مجرد بواقي طعام الأسبوع.

- أنا مسافر من شهر، أستحق أكلة حلوة.

قالت «نسرين» بهدوء:

- أنت تعرف أن يوم الخميس هو يوم بواقي الأسبوع.

دفع «عمران» الطبق من أمامه وقام ليدخل الغرفة. طلبت «نسرين» من ابنتها نرmin أن تُخبر «عمران» أنه لو لم يحضر فسيتتهي الطعام. سمعها «عمران» فقال بصوت مرتفع:

- كلوا أنتم، لن أطفح.

في الغرفة نظر «عمران» إلى هاتفه، لم يمر إلا ستة أيام على عودته؛ فوجئ حين مرّت شهر في الأقصر، والآن يتوسل الأيام كي تمر وهو في بيته.

انقضى أسبوع آخر والبيت في حالته المعتادة من الصمت الحزين أو المترقب كالذي يخيم على جمهور الشارع وهو يحضر عملية تفكيك قنبلة، إما تنفجر القنبلة فيرتاحون من حياتهم، وإما لا تنفجر فيعودون لأهلهم بقصة عن يوم مختلف في حياتهم الرتيبة.

في قصة «عمران» القنبلة لم تنفجر، لكن استمرت الرتابة.

«عمران» حريص على ألا تنفجر تلك القنبلة أبداً.. سوف يستمر البيت مهما حدث، ومهما كلف الأمر.

لن يفصل عن «نسرين»، و«نسرين» لن تفصل عنه. تعلم أن فرصها في الزواج معدومة بعد أن أرهقتها الحمل والولادة وتربية طفلين. تبدو «نسرين» جميلة، لم يفارقها جمالها، ولا يبدو أنه سيفعل، لكن جمالها يظهر لمن يراها لأول مرة، لكن أهل البلد أو من رآها قبل الزواج لن يندم كثيراً على فوات زواجها منه، فقد تحوّلت لامرأة تُشبه كل نساء البلد.

ويعلم «عمران» أنها لو انفصلا فسوف تقول له نسرين: «أولادك لك، خذهم»، وسترحل وحدها.

لا يريد الرهان على عاطفة الأمومة لدى «نسرین»، كل العواطف الأخرى لديها تأكد «عمران» أنها لا تهم. لم يرها منذ شهور، وسيسافر بعد أيام ليقضي عدة شهور أخرى، ولا تسمح له بالاقتراب منها.. أعارها تنوع؛ مرة الإرهاق، وأخرى عندي العذر، وغداً، أو الأطفال لم يغرقوا في النوم، فتغرق هي في النوم قبل أن يناموا جميعاً.

قضى «عمران» أسبوعين في الاستيقاظ عند العصر؛ يجلس على الركنة يتصفح هاتفه أو يشاهد فيلمًا. ثم يأتي الطفلان من المدرسة والدروس الخصوصية فيجلسون للطعام، يأكل دون أن يُعلّق على الطعام، أو يشعر بطعمه.. يتناول الطعام كما تتناول البهائم أكلها.

يقول لنسرین:

- لو وضعت لي قشًا وتبناً لأكلتهما كي لا نتشاجر.

يقضي الطفلان ساعة في عمل الواجب المدرسي فيساعدتهما فيه.. ثم يقضيان اليوم في مشاهدة التلفزيون أو ألعاب الفيديو، فيجلس معهما. تمر عليهم «نسرین» فتقول: «مسئولة عن ثلاثة أطفال، صبرني يا رب». فيرفع «عمران» صوته بالتأمين على كلامها: «صبرها وصبرنا يا رب».

قبل خمسة أيام من العودة، جاءه اتصال من صديق من أصدقاء الثانوية الذين فرقتهم الجامعات يُخبره أنهم سيتجمعون اليوم في عقيقة ابن أحدهم.

لم يقابل «عمران» تلك الشلة منذ سنوات، الكلية أخذته منهم.. تزوجوا جميعاً فيما هو لم يزل طالباً، فتحوا البيوت وأنجبوا الأطفال وهو ما زال يتلقى مصروفه كالأطفال من والديه. «ملعون الطب، خزي في الدراسة وخزي في الحياة»، قالها لنفسه وهو ينظر إلى «نسرین» كي يُخبرها أنه سيسهر اليوم مع زملائه.

نظرت إليه تتعجب من الكلمة، لم تعرف أن له زملاء في القرية أصلاً. قالت: «اسهر معهم، ستعود للأقصر بعد عدة أيام ولن نراك لأشهر، ثم تقرّر بمنتهى الهدوء أن تخرج لرؤية أصحابك». قال عمران:

- أنا لم أخرج من البيت منذ جئت، ولن أقضي معهم إلا ساعتين أو ثلاثاً.

مشت نحو الشرفة وهي تحمل كومة من هدوم «عمران» المبلولة. وضعت الكومة في طبق كبير داخل الشرفة، ثم تهيأت لنشرها. قالت بصوت مرتفع:

- اخرج معهم طبعاً، أنا موحولة في هدومك واخرج أنت مع أصحابك.

ارتقى «عمران» على الركنة.. يعلم أنه لن يقدر على الخروج بعد هذا الموشح، انطفأت شاشة التلفزيون لانقطاع الكهرباء، فتوجهت «نسرین» تلقائياً لعكس سكينه الكهرباء وتشغيل المولد.

في دقائق انطفاء الشاشة رأى فيها انعكاس صورته. لم ينظر في المرآة ولا مرة في الأقصر. لا توجد مرايا في السكن ولا الحمام، سكن شباب بالطبع لا توجد فيه مظاهر الحضارة، تعجّب كيف كان ينزل بتلك الثقة ليقابل الناس دون أن يتأكد أن شعره كما يجب، وملابسه مهنمة. حتى لحيته اكتشف أنه لم يشذها منذ ثلاثة

أشهر.

هلّ طفلاه حين اشتغلت الشاشة مرة أخرى. نظر إليهما متسائلاً: هل سيتهي الحال بهما مثله أم مثل نسرين؟ «نسرين ليست سيئة»، قال لنفسه وهو يراقب حركتها من الشرفة للحمام. قال إنها لا تُقصر في مهام المنزل. وطفلاه حالهما جيد، تهتم بتعليمهما، عودتهما على الصلاة رغم أنه و«نسرين» لا يصليان. «عيال مؤدبة، تتكلم بأسلوب جيد، وتحترم الكبير، وتنفذ ما تريد. لا يمكن أن ينشأ الأطفال بصورة أحسن من هذه».

ضحك الطفلان وهما يشاهدان طفلة صغيرة تُعطي حقنة لدب. نظر إليهما يفكر في أن المشكلات بين الوالدين غالباً ما تؤثر على الأطفال، ربما تأثيراً أسوأ مما يفعل الانفصال. ابتسم وقال لنفسه إن المشكلات بين الوالدين تأتي من وجود الوالدين معاً، وأنت لست موجوداً معظم الوقت؛ من مناوبة في الحكومي لمناوبة في الخاص، تخرج وتعود وهم نائمون. ربما لم تكن أباً جيداً، لكن لم يفت الأوان، يمكن أن تصلح هذا الأمر، لكن المهم ألا تنفجر القنبلة.

التقط «ياسين» جهاز التحكم من يد «نرمين»، قائلاً: «دوري أنا». بكت «نرمين» وجرت تشتكي لأمها. أدار «ياسين» القنوات بحرفية حتى وصل لقناة تعرض أفلام الأكشن. «عمران» يعرف هذا الفيلم، لكنه مليء بالقتل والعنف. سأل ابنه: كيف عرف هذا الفيلم؟ رد «ياسين» دون أن يدير عينه من الشاشة:

- أخبرني عنه صديقي إياد.

عادت «نرمين» قائلة لياسين إن أمها قالت إنه سيشاهد الفيلم لعشر دقائق فقط، وستأتي الأم لتغير القناة. «طيب»، قالها ياسين منفعلًا لكنه لم يُرد إضاعة الدقائق الثمينة في الجدال.

لن تنفجر القنبلة، وبالتأكيد لن تنفجر بسبب خناقة على أنه لا يريد لطفل في هذه السن أن يشاهد هذا القدر من العنف. فأثر الصمت، ومشاهدة الفيلم معه.

عدة أشخاص يتصارعون، وفي يد أحدهم حيوان أتى به هدية لابنه. وضع قفص الحيوان على الرصيف ثم جرى لينضم للمشاجرة، هذا هو البطل غالباً لأنه صرع الجميع بمجرد أن دخل المشاجرة. عين «عمران» تسمرت على القفص. قفص كبير بداخله عجلة دوارة يجري عليها «هامستر».. يجري فتدور العجلة، فيجري أكثر لتدور العجلة بسرعة أكبر.

عجايبي

انتشر العساكر في الشقة، دخل «عجايبي» إلى المطبخ ليسحب السكينة، فتح الدرّج الأول فلم يجدها. أشار الضابط له أنهم وضعوا له سكينة مختلفة بجوار البوتاجاز. مشى «عجايبي» نحوها وقبضها بقوة، ثم وجّهها تجاه العساكر والضابط فانزاحوا جميعاً من طريقه.

استدار ليخرج من المطبخ نحو الصالة مرة أخرى. سأله الضابط إذا كان متأكداً أنه أمسك السكينة قبل أن يقابل «إنجي» في الشقة أم بعدها؟ أجاب «عجايبي» أنه لا يذكر. ردّ الضابط داعياً إياه للتذكّر؛ لأنه قال في تحقيقات النيابة إنه أمسك السكينة بعد بداية المشاجرة، لكنه الآن يقول إنه أمسكها منذ لحظة دخوله المنزل.

ردّ «عجايبي» بلا مبالاة أنه لا يتذكّر سوى أنه قتل «إنجي». اقترب منه الضابط وهمس في أذنه يُخبره أنه لا خلاف حول القتل، لكنّ القتل العمدي مع سبق الإصرار والترصّد يختلف عن القتل العمدي دون سبق الإصرار. ثم اقترب من أذنه أكثر قائلاً إن القتل يختلف تماماً إذا كان هناك شيء متعلق بالشرف.

الكلمة استفزّت «عجايبي» فصاح في الضابط: «قلت لكم قتلتها في لحظة شيطان، لا شرف ولا غيره». قطع انفعاله رؤيته تابلوها مُعلّقاً أمامه في الصالة.

في أثناء تجهيز الشقة أصرت «إنجي» على أن تكون تلك الصورة في الجدار المقابل لها كي تراها وهي تطبخ. قالت ل«عجايبي» إنها تجعلها تشعر بأنها تطهو أمام البحر. كما أنها تجعل «عجايبي» حاضراً في بالها دائماً.

صورة كبيرة لعبارة بيضاء اللون وسط البحر؛ البحر في الصورة يبدو هادئاً، والعبارة قوية بما يكفي لتُضع هذا البحر الشاسع.

لكن الحقيقة لم تكن أبداً كما في الصورة.. كانت العبارة متهالكة.. استخدمها «عجايبي» وزياد في السفر لأن العودة بها أرخص من الطائرة. حتى البحر في الحقيقة يختلف عن ذلك البحر في الصورة، البحر كان مرعباً. والسُّعال الذي يملأ العبارة المُكدسة بالمسافرين يجعل المأساة أضعافاً.

الموت يسبح في البحر تحت العبارة، ويتمشى في الهواء على سطحها، وفي أنفاس رُكابها؛ لذلك لم يهدأ «عجايبي» حتى في اللحظات التي هداً فيها البحر، لم يفارق الرعب ركاب العبارة خصوصاً كلما مات أحدهم من العدو.

ذلك الرعب اعترى «عجايبي» و«زياد» حين رأيا العبارة منذ اللحظة الأولى. «زياد» طمأن «عجايبي» أنها الطريقة الوحيدة للهروب من الجمارك والدخول على أهلهم ومعهم القليل من المال والهدايا. لم يكن «عجايبي» يحمل أي هدايا، بضع ورقات نقدية خبأها في ساعة يده كي يهرب من أي تفتيش مُحتمل.

كانت تلك أيضاً فكرة زياد؛ شراء ساعات يد شاشتها كبيرة، ثم تفريغها من الماكينة والبطارية، وترك

الورقة المرسوم عليها الأرقام فقط. ثم كبس الورقات النقدية فيها، أو إغلاق غطاءها الخلفي مرة أخرى بلاصق قوي. «عجايبي» عاد بساعة واحدة فقط، أمّا «زياد» فارتدى واحدة، ووضع في حقيبته اثنتين، بعد أن شوّه منظريهما كي لا تثيرا أي شك.

يقفان معًا على حافة العبّارة يتحسران. يقول زياد: «كانت أيام شقاء لكنها كانت مثمرة، وكنا في أمان». يرد «عجايبي» قائلاً: «أنهكتني تلك الأيام». يحمّد الله أن تلك السنوات الثلاث مرّت. يقول: «لا أعرف كيف مرّت تلك السنوات، لكن الحمد لله أنها مرّت». ثم يُخرج قطرة العين ويضع منها نقطتين في كل عين، قائلاً لزياد: «أصبحت لا أرى من دونها».

يخبط «زياد» على عضلة ذراع عجايبي، ويكرر متهكماً: «لا تعرف كيف مرّت؟ مرّت في شغل الفاعل يا صديقي؛ شيل وحط، إهانة وخضوع، حاضر ونعم، شاي وسجاير، وقطرة مرطّبة للعين.. لكن لا يهم، المهم أنها مرّت».

ينظر «عجايبي» إلى العبّارة قائلاً:

- لم تمر ما دمنا في عبّارة الموتى هذه.

يضر به «زياد» بقوة:

- تفاعل يا عجايبي، سنعود لأهلنا أحياء.

يرد «عجايبي» قائلاً:

- هذا ما أخشاه؛ أن أعود حيّاً.

ينفض «زياد» يده مبتعداً وهو يقول:

- لو كنت سأموت فأفضّل أن أموت متفاجئاً، لكن الوقوف معك يجعل الموت أمامي طوال الوقت.

جسد «عجايبي» أصبح جسد رجل بالغ؛ العضلات وسُمرة الشمس جعلته أكثر خشونة وأقوى، اللكنة الصعيدية التي امتزجت بها كلمات القاهرة ومصطلحات الخليج جعلت لسانه ثقيلاً.. كأنها يجتار عقله عند نطق الكلمات بأي لهجة سيتحدث، وأي مفردة تعبّر عن المعنى الذي يريده.

برزت تلك العضلات مع ملابسه التي ضاقت عليه. لا يمتلكون رفاهية شراء ملابس جديدة، إلا للهدايا التي يحملونها وقت العودة.

لكنّ «عجايبي» اشترى عدة أطقم يرتديها كل جمعة للذهاب إلى منطقة جديدة من مناطق الخليج كي يلتقط لنفسه صورةً هناك كي يُريها لوالديه.

كان يُرسل الصور إلى أزواج إخوته البنات، ثم تأخذ أخته هاتف زوجها لثري والديها الصور.. أسبوع تلو الآخر، تلمل الرجال من هذا العبء، أن يوجد هاتفك بشكل أسبوعي في يد زوجتك بعيداً عنك أمرٌ مُرعب.

بخبث قالت إحدى أخواته: «لماذا لا يُرسل الصور لخطيبته كي يُريها كيف صار رجلاً يملأ عين الشمس؟». فكرت الأخت في الاقتراح، لكن نطقه لسان أمه، حين قالت له:

- أريدك أن تُرسل لإنجي، فبيتها أقرب لنا، ومسئولياتها أخف فتأتي برسائلك أسرع.

خضع لطلب أمه بعد أن استأذن من «إنجي». أخبرها أنه يُدرك أنها ليسا مخطوبين، وحين يأتي في أقرب إجازة سوف يخبر الجميع بأن موضوع الخطبة مُلغى.

تتابعت رسائله المصورة إلى «إنجي» عبر «واتساب».

تعرضها على والديه، وتُسمعها رسائله الصوتية، وبعض الفيديوهات للأماكن الفخمة.

ثم تنقل له رسالة مصورة لهما وهما يدعوان له بالهداية والرزق الوفير.

رسالة تلو الأخرى بدأت صورة «عجايبي» في ذهن «إنجي» تختلف.

لم يعد الفاشل المكتتب، بل صار مسافرًا للخليج يمتلك عضلات بارزة ومالاً وفيرًا يُمكنه من التسوق كل أسبوع في تلك الأماكن الفخمة. لم يلحظ والداه أنه يلتقط الصور في نفس المركز التجاري كل جمعة، لكن «إنجي» لاحظت وقالت له مازحة:

- ألا يوجد في الخليج مكان آخر غير هذا، مللتُ منه.

فرح برد «إنجي»، لم يكن يتخيل أنها ترى رسائله وفيديواته، كان يعاملها كساعي البريد. لا يراه الناس لكنهم يرون الرسالة التي يحملها. ربما الساعي أيضًا لا يرى الناس إلا توقيعاتٍ عليه أن يحصل عليها كي يُنهي الحمل القابع على كتفه.

ردّ عليها أنه سيذهب كل أسبوع لمكان حتى يلفّ بها الخليج كله. ضحكت «إنجي» وردّت: «سنرى». تحدّ وضعه «عجايبي» لنفسه أن يجوب الخليج قدر إمكانه فيلتقط لها صورًا من كل مكان.

وقف «زياد» أمامه وهو خارج بهندامه للسفر. نَهَرَه وأخبره بأنه سيضيع كل ما يكسبه على تلك الرحلات. «عجايبي» يعلم أن «زياد» مُحَقٌّ، لكنّ شعاع من الحب بدأ يُنير حياته المظلمة ولا يريد «عجايبي» أن يُطفئه.

قال له زياد: «لو الموضوع فيه بنت، فالأمر بسيط». سكت «عجايبي» فتأكد «زياد» أنه يريد إبهار إحداهن، فقال: «التطبيقات كثيرة، وكل شبر في الخليج موجود على الإنترنت سوف نسرق الصور وأرسلها لك وترسلها أنت لها».

قال «عجايبي» إنه يريد أن يظهر في الصور، هو يريد أن تراه «إنجي»، ولا يهتم بالأماكن لمجرد الأماكن.

سأله زياد: «هل هي من البنات اللاتي يتعاملن كثيرًا مع الإنترنت والكمبيوتر؟». أجابه «عجايبي» بالنفي منتظرًا تفسيرًا لذلك السؤال. قال «زياد» إن له زميلًا يعرف في برامج تركيب الصور يمكن أن يضيف

صورته في أي مكان يريده في العالم. لكن لأنه محترف فهو لا يفعل ذلك مجانًا. لكن المقابل سيكون أرخص بكثير من السفر الفعلي.

وافق «عجايبي» على الفكرة، لم يدرك السؤال التالي ل«إنجي».

- ماذا تعمل كي تكسب ما يكفي للسفر كل أسبوع لمكان؟ طيارًا؟

لم يعرف كيف يرد، فهي تدرك أنه ساقط هندسة. حاول المماثلة فقال لها: «أسأل والدك، هو من أتى بالعقد؟»، ردت بأنه «قال إنك تعمل مساعدًا لمهندس في مواقع إنشائية». «مساعد مهندس»، كررها «عجايبي» وهو يبتسم من خداع الكلمة، وقدرتها على تحويل مهمة الفاعل والشيء والصبي لمساعد مهندس.

حاول التهرب، لكنها منحته الإجابة في السؤال، فقال إنه ليس طيارًا ولا قبطانًا، لكنه يعمل مساعد طباخ على مركب سياحي فاخر يسافر بالأفواج السياحية عبر الخليج. وفي كل أسبوع يأتي وفد جديد، يرغب في قضاء الإجازة في مكان مختلف.

كانت إجابة مقنعة، مقنعة أكثر من اللازم. قالها «عجايبي» لنفسه وهو ينظر في شاشة هاتفه ينتظر رد «إنجي» على تلك الكذبة. صدقته «إنجي»، لكنها طلبت صورة لهذه العبارة الفخمة. أرسل لها صورة من الإنترنت، قائلًا:

- يمكن أن نطبعها ونعلقها في منزلنا الجديد.

رمى «عجايبي» كلمة «منزلنا الجديد» ليعرف ماذا تريد «إنجي» من كلامها معه.. هل ترى فيه نافذة على مكان جديد لكن لا تريده زوجًا أم أنها تلتزم بالخطبة التي تهرب منها أبوها، فقد بدأ هو الآخر في التعلق بوجود «إنجي» في حياته.

ردت «إنجي» على طلبه بتعليق الصورة قائلة:

- بإذن الله.

لا يعرف ما وراء هذه المشيئة، لكنه اكتفى بأنها لم تستنكر الكلمة، أو تُغلق المحادثة، أو تقول له: «أنت ابن خالتي ومثل أخي»، أو تسأله أي بيت تقصد.

كلها ردود توقَّعها، لكنَّ هذه المشيئة لم يكن يتوقعها. قد لا تكون دلالة قبول، لكنها بالتأكيد ليست دلالة رفض.

ردَّه اهتزاز المركب إلى واقع أنه في وسط البحر الآن، وسحبه من تلك الذكريات البعيدة.

لا يعرف ما سيقول لهم حين يعود. المصريون الموجودون في الخليج كلهم سيعودون. الوباء قضى على تطورات الدول للسنوات القادمة، كل ما يريدونه هو تجميد اللحظة حتى يتلاشى الوباء من تلقاء نفسه، بجانب محاولاتهم ألا يموتوا. توقفت الإنشاءات، وصارت العناية الطبيَّة بالمواطنين أمرًا مكلفًا، وتحول

«عجايبي» ورفاقه من أيدي عاملة لأيدٍ ملوثة تفتك بأبناء الدول المضيفة، فبات ترحيلهم هو أهون الحلول. لكن البقية كانوا في الخليج لسنوات طويلة، لا لثلاث فقط. أو سافروا إليه باحثين عن لقمة العيش فحسب، وليسوا هارين من فضيحة.

ينظر «عجايبي» إلى الأفق يفكر ماذا سيفعل حين يعود لوالديه بعد كل هذه السنوات؟ و«إنجي»، ماذا سيُخبرها؟ سيعود ليعمل ماذا في «عزبة جهنم»؟

فتلك الأفواج العائدة من الخليج سترفع أسعار كل شيء، وتبدأ مشاريع في كل شيء. أما هو فلا يمتلك المال ولا الخبرة في مجال سوى رفع الإسمنت والرمل. وظيفة حقيرة لكن قبلَ بها في بلد بعيد حيث لا يعرفه أحد ولا يراه أحد، أما في «عزبة جهنم» فستكون فضيحة.

جاء «زياد» يمد يده بسيجارة إليه. يسأله:

- فيمَ تفكّر؟

أخبره «عجايبي» بقصته كلها. ألقاها على كتف «زياد» دون مقدمات أو فواصل.. ثلاث سنوات لم يحك «عجايبي» شيئاً ولم يسأل زياد، كما اتفقوا في اليوم الأول، الآن تقياً «عجايبي» قصته كلها، وحكى له كذبه على «إنجي».

ألقي «زياد» سيجارته قائلاً: «لماذا هذا الغم؟ قلت لك احمل همّك وحدك». نفخ «زياد» ما تبقى من دخان السيجارة في صدره، ثم استدار لينظر إلى الجهة المقابلة.

دقائق والتفّ نحو «عجايبي» يربت على ظهره، يعتذر عن انفعاله قائلاً: «كلنا نحمل همومًا، ولا نريد أن نكون أعباءً على غيرنا». اعتذر «عجايبي»، لكنّ «زياد» بادره قائلاً:

- لكنّ همّك همّ يا صاحبي.

نظر إليه «عجايبي» سائلاً: «هل لديك حل لهذه العقدة؟». ابتسم زياد، وضحك «عجايبي» قائلاً: «حين سمعتهم يطلقون عليك (زياد العقدة) توقّعت أنك تخلق مشكلات، لم أتوقع أنهم أطلقوها عليك لأنك حلال العقدة».

ابتسم «زياد» وأخذ نفسًا من سيجارته الجديدة قائلاً: «أطلقها عليّ الكفيل، قال لي: يقولون في مصر كل عقدة ولها حل، لكن أنا أقول كل عقدة ولها زياد!». منذ تلك اللحظة وزياد بات اسمه «زياد العقدة».

قال زياد:

- لا أعرف كيف تُحل تلك المشكلة، يجب أن تعود لأهلك ويجب أن يعرفوا كل ما حدّث؛ بعد شهر أو بعد سنين يجب أن تعود إليهم، سنقول لهم: إنك في إجازة!. لكن متى تنتهي تلك الإجازة؟! يجب أن تُخبرهم.

هز «عجايبي» رأسه قائلاً:

- أعرف، يجب أن أخبرهم.

غادر «زياد» وترك «عجايبي» وحيداً على حافة العبّارة. يحاول ألا يميلاً رثته بهواء العبّارة، وأن يطرد من رأسه صوت موج البحر الآخذ في الارتفاع. وألاً يركز مع صرير الألواح الخشبية في سقف العبّارة، راجياً أن تكون الألواح في قاعها أكثر تماسكاً.

بعد نصف ساعة جاء «زياد» يجري قائلاً:

- وجدتها، ستعود إلى أهلك وستسافر مرة أخرى، لكن هذه المرة لن تسافر إلى الخليج رغم أنك ستُخبرهم بذلك. سوف تأتي إلى طنطا.

استطرد «زياد» يخبره عن أخيه المعلم صبحي، صاحب قهوة بلدي في «كوم الأخضر». حكى له صبحي عن رجل أعمال من القرية بات يملك توكيلاً لكبرى شركات الأجهزة الكهربائية، وله معرض كبير في المركز التجاري الجديد في طنطا.

وقد فاتحه المعلم في أمر «زياد»، ووعدته بتوفير وظيفة له في المركز التجاري ليكون بجانب أهله بعد ١٠ سنوات في الغربية. ولن يُعجزه أن يجد لك وظيفة في أي مصنع أو شركة تابعة له.

رد عجايبي:

- وتظن أن أهلي لن يكتشفوا.

رد «زياد» ساخراً:

- حتى لو أهلك يزورون طنطا كل خميس وجمعة، ويعيشون في رحاب السيد البدوي، فلن يصلوا إليك؛ قريتنا منسية، ومواصلتنا بعيدة عن مواصلات طنطا نفسها أو محطة القطار.

ضحك «عجايبي» وبدأ وجهه يُشرق مرة أخرى، يفكر في الكذبة التي سيرويها لأهله ول«إنجي».

لكن سأله:

- وفارق الأجر والعملة.

ردّ «زياد» سريعاً:

- ستقول لهم: مصاريف السفر في ظل الوباء ارتفعت، والشركة أصبحت تخصص مبلغاً أكبر في مقابل التأمين الصحي عليك؛ ولأن العالم شبه متوقّف، فسوف تُرسل لهم الأموال بطريق غير شرعي، يأخذ منك الكفيل أجزتك، ويحول أحد معارفه من مصر الأموال لبطاقة والدك حوالة بريدية بالعملة المصرية.

لم تغرق العبّارة كما تخيل عجايبي، ولم يمت بالعدوى كما تمنّى، لكنه الآن وصل إلى قريته.. كان وصوله مُربكاً.

والداه فرحاً به، لكن أمّه تنتظر إتمام خطبة تعلم أن أختها وزوجها تهرّبا منها.. أمّا أم إنجي فكانت مرعوبة من اقتراب لحظة تمرد «إنجي» وإعلان «البغدادي» أن الزواج لن يتم.

ليلة وصول «عجايبي» إلى «عزبة جهنم» دخل «البغدادي» مع زوجته على «إنجي» يخبرانها بوصول «عجايبي». قالت: «أعلم».

نظراً إليها ينتظران منها إجابة للسؤال المعلق في الهواء.. لم تتكلم، فقالت أمها: «وبعدين؟».

وضع «البغدادي» يده على كتف زوجته فسكتت. التفت ل«إنجي» يخبرها أنه من المستحيل أن يجبروها على شيء، لكنها بحاجة لمعرفة رأيها بشكل واضح.. لم تنطق «إنجي».

فقاطعت أمها قائلة: «السكوت علامة الرضا». أشار «البغدادي» لها، فخبطت فمها بيديها قائلة: «سكتنا».

أعاد عينه لإنجي فوجدها تضحك. قال: «أنتِ أنهيّت دبلوم التجارة، والآن سيتوافد العرسان، وأمامك فرص كثيرة، و«عجايبي» كذلك أمامه البلد كلها فقد نسي الناس قصته الأولى».

قالت «إنجي» بصوت مبسوح: «عجايبي كويس». زغردت أمها، وخبطت زوجها على كتفه بعنف قائلة: - البنت تريد، أو حتى لا تريد لأمها أن تحسر أختها، فلا تضغط عليها أنت لترفض.

بعد إجازة قصيرة تمّت فيها خطبة «عجايبي» على «إنجي»، سافر إلى طنطا. لكنه ذهب إلى مطار القاهرة أولاً حيث أصر والده على إيصاله، وانتظاره حتى يصعد إلى الطائرة.

لكن بعد إلحاح «عجايبي» غادر والده المطار، ليبدأ «عجايبي» رحلته في السفر إلى طنطا.

استقبله «زياد» في موقف «سبرباي» وصحبه إلى المركز التجاري، حيث سيعملان معاً فردّي أمن على معرض الأجهزة الكهربائية.

حين رأى السيّد به، صاحب المكان الذي يعملان فيه، قوة «عجايبي» قرّر أن يخصّه بحراسة صندوق زجاجي يحتوي ساعات فخمة.

أخبره «زياد» بأن هذا الصندوق أهم عند صاحب المعرض من ابنه شخصياً. وعهدة ذلك الصندوق تساوي الدخل القومي للمحافظة كلها. ضحك «عجايبي» لكلمة الدخل القومي، فلم يسمعها سابقاً من «زياد». لكن طبيعة «زياد» تسمح له أن يتأقلم مع لهجة أي مكان يجلس فيه يوماً. تراه فتظن أنه وُلد وتربى وسيموت في هذا المكان.

دبّر له «زياد» مكاناً ينام فيه في مساحة لم تشغل بعد في منطقة المطاعم.. جفاه النوم في أول أيامه بسبب رجاء أمه له ألا يسافر مرة أخرى. قالت له إنها تشعر أن أجلها اقترب، وتُرّيده بالقرب منها.

ضحك «عجايبي» وطمأنها، أخبرها أنها شهور بسيطة ويعود ليتزوج، وعندها لن يُغادر مرة أخرى. يوماً بعد الآخر اعتاد النوم في مكانه. وبدأ ينشغل في مراقبة الناس وأحوالهم. يحاول التوفير بأكبر قدر بعدم شراء أي طعام من المركز التجاري، أو حتى من المحلات الرخيصة الموجودة أمامه.

يُحضر زملاؤه الخيار والطماطم وعلب الجبنة الرخيصة. يتناولونها وهم يتحدثون عن يومهم أو حياتهم، حاول تناولها في البداية لكن لم يستطع الاستمرار. كان يتناولها ثم يقترب من التقيؤ. كان الخيار والجبنة هما طعم الغربة بالنسبة له. أكله في الخليج، وأكله في المركز التجاري.. طعمهما في فمه يزعجه!
تعجب من نفسه، هل يمكن أن يكره الخيار والجبنة فجأة؟ وهل يكره أحد في مصر الخيار والجبنة أصلاً؟ لكن لم يدرك الربط بين أشياء مختلفة والغربة إلا حين سمع رنة منبه أحد زملائه ضبطها لتُخبرهم بانتهاء الاستراحة.

كانت نفس رنة هاتف «زياد» التي توقظهم لأيام العمل في الخليج. ثم أتت لحظة دخول «زياد» عليهم في المركز التجاري وهم يأكلون ومع رنة المنبه لتكتمل اللوحة السوداء لأيام الغربة.

يوماً بعد الآخر كره «عجايبي» الالتقاء معهم على الغداء، حاولوا معرفة السبب منه لكنه كان يتحجج بمواعيد عمله التي اختلفت، أو «السيد بيه» الذي بات يُكثر الحضور والوقوف بجانب صندوق الساعات وأنه يجب أن يكون واقفاً بجواره. عند تلك الحجة أدركوا أنه يكذب؛ لأن «السيد بيه» يجب أن يقف مع الساعات وحيداً، ويعرضها هو للجمهور.

خصوصاً حين رأى «عجايبي» يضع القطرة باستمرار في أثناء وقوفه، فأضواء الصالة ساطعة، وانعكاسها على الساعات تجعلها أقوى. كما أن تفحص «عجايبي» الساعات ودقة صنعا وتفاصيلها التي يسأل عنها الزبائن كانت تزيد من إرهاق عينيه. فكان «السيد بيه» يخبره أن يذهب للراحة في أي ركن غير مشغول وإضاءته خافتة من المركز التجاري.

في مرة حاصره زملاؤه: «هل تكرهنا؟».

رد «عجايبي» بانفعال أنه يكره الخيار والجبنة، ورنة المنبه؛ ضحكوا أكثر، ولم يجادلوه.. لكنهم لم يعودوا للجلوس معه مرة أخرى. رأوا إجابته إجابةً بالإيجاب على سؤالهم، فمن المختل الذي يكره الخيار والجبنة، أو يهرب من مكان بسبب رنة منبه؟!!

لم يكن مهتماً بالشرح لهم، فرأسه يشتعل بالأسئلة والقلق.

لا يعرف «عجايبي» ماذا سيفعل في تلك الكذبة التي ابتلعتة.. «زياد» أخبره أن «السيد بيه» سيفتح مصنعاً في الصعيد بعد خمسة أشهر وربما يُعيّنه فيه مشرفاً على العمال. وظيفة نظيفة تُناسب نظرة أهل البلد إليه. لكن ماذا لو لم يُفتح هذا الفرع، أو لم يوافق صاحبه على أن يمنح ساقط هندسة مهمة يوجد العديد من المهندسين وأصحاب المؤهلات يطمحون إليها؟

عمران

رأى «عمران» نفسه مكان الهامستر. ربّاه أبواه أن يكون الأوّل دائماً، الثاني يساوي السُّقوط. كان أوّل الابتدائية والإعدادية والثانوية العامة، دخل كلية الطب التي أرادها دون أن يعترض أو أن يوافق، كان هذا هو المسار الطبيعي لكل المتفوقين.

في الكلية اكتشف «عمران» شيئاً مشابهاً لما رآه في الهامستر الآن، لكن لم يجد الكلمات لوصفه حينها. شعر أنه سيظل يهرول في مجال الطب دون نهاية؛ لتكون الأوّل في الطب عليك أن تجري في عجلة هامستر من المذاكرة والاطلاع بلا توقّف، والمفاجأة أنه لا أحد اسمه الأوّل في الطب، يمكن أن يكون الأوّل على الدفعة هو أقل الأطباء مهارة.

لم يفهم والداه إلا أنه فشّل أن يصبح معيداً في الكلية.

«الولد يخيب»، قالها «إبراهيم» لـ «نجاة» ذات مرة وسمعها «عمران».

كانت أحواله في الكلية قد انتصفت، يمكنه أن يُعوّض المجموع التراكمي بمجاميع السنوات الثلاث القادمة لكنه لم يُرد؛ أهله وضعوه في منافسة مع قريب له من العائلة في «كوم الأخضر»، لا يعرف «عمران» عن هذا القريب إلا أنه صار غنياً، أغنى من عمّه «إبراهيم» الذي كان أغنى من في العائلة. وعلى «عمران» الآن أن يضيف شيئاً لوالده وأمه لم يستطع قريبه هذا أن يحصل عليه؛ أن يكون طبيباً.

كان «عمران» مرهقاً من الدراسة، وبات كارهاً للقراءة ذاتها.. وبعد التخرج حين صمّم على الزواج من «نسرين»، تيقنوا أن بختهم مال في ابنهم. وأن سنوات الصبر على غياب الأطفال لم تؤدّ إلى حصولهم على الابن المثالي الذي توقعوه.

يقول «إبراهيم» لـ «نجاة» بانفعال في كل مرة يخيب فيها ظنّه في «عمران» إن الولد ورث الجنون من جهة أمّه.

تثور «نجاة» عليه، تمسك بأي شيء تلمحه وتلقيه على الأرض، فيضغط «إبراهيم» عليها أكثر ويقول لها: «أرأيت، جنون أمك انتقل إليك، وأنتِ نقلتِه للولد».

كانت «نسرين» تذكيراً لـ «نجاة» بأخر مشاجرة بُعث فيها جنون أمها. فقرّرت مقاطعتها، وكذلك فعل «إبراهيم».

لا تحتمل «نجاة» أي شيء يُذكرها بأمها «تهاني». اشتهرت «تهاني» في قرية «كوم الأخضر» بأنها مجنونة. طلقها زوجها، أبو نجاة، وهي حامل فيها. طارد سبب الطلاق نجاة في طفولتها وعند زواجها. أمها كانت تُصر على أن «تهاني» زوجها يحاول أن يجعلها تبصم وهي نائمة على عقد لبيع ما ورثته من أبيها وأمها.

وُلدت «نجاة» وسط عدد من أخوالها، عاشت «تهاني» سنواتٍ لا تنام إلا في غرفة مغلقة من الداخل.. تخاف أن يسرق أي أحد بصمتها على أي ورقة.

تقدّمت «تهاني» في العمر، خفّت وسواسها حين قرّرت أن تكتب كل ما لديها لابنتها «نجاة». لكن بعد شهور من الراحة طاردها كابوس جديد، أطلقتته «نجاة» حين أتت لها بقُرص مشبّك أهداها أحد أخوالها لها من أحد الموالد. فرعت «تهاني» من القُرص. أمسكت بنجاة ورزعتها في باب الغرفة، وصدفت كل شبر في جسد نجاة وهي تصرخ: «تريدين موتي... تريدين قتلي».

تدخل إخوة «تهاني» وخلصوا البنت من أطافر أمها. عاشت «تهاني» بعد هذه الحادثة شهورًا قليلة، رفضت فيها كل أنواع الأكل مخافة السّم، ولم تسمح لأي طبيب بأن يقترب منها. لم توافق على تعاطي أي حبة دواء؛ فهي مسمومة، كما تقول.

ماتت «تهاني»، ولم تمت سيرتها. حتى حين تقدّم «إبراهيم محروس» للزواج منها. شعرت أن أهله يرفضونها، ولولا الأرض التي تملكها، وإصرار «إبراهيم» عليها، لما وافقوا، تأكد شعورها حين نقلت لها إحدى نساء البلد أنها سمعت أم إبراهيم تقول له: «من سبقونا قالوا: «تغور العُورة بفدّانها»، فردّ عليها إبراهيم قائلاً: «وقالوا أيضًا شربة من برّه، توفّر الجرّة».

وافقت في النهاية. لكن رغم رفضهم لم يقاطعوها، حضروا فرحها لكن أسكنوهما في بيت بعيد عن بيت العائلة.

وكذلك فعلت «نجاة» و«إبراهيم» مع ابنهما الطبيب الذي فشل وتزوج «نسرين».

حضرا بجسديهما فرحه على «نسرين» بإلحاح العُرف، لكنّ وجهيهما كانا كوجوه من يتقبل العزاء.

عادت العلاقات مع مولد «ياسين».. حفيد أوّل لعائلة لا تمتلك إلا «عمران» أملاً في حفظ ذكراها.. وفرحًا بتحقيق هدفها من تسميته بعُمران، أن يكون «عمران» بيتهم من ذريته.

انتبه «عمران» الآن إلى أن عودة العلاقات مع أهله كانت بداية التوتر مع «نسرين»، عامَلها «عمران» على أنها ملكة، وحلم صعب المنال سعيدٌ أنه ناله، أخبرها ذات مرة أنه لم يصدّق أنها وافقت عليه، تعجّبت «نسرين» من الكلمة لكنها لم تعلق.

لم تكن تعرف كيف يسحق الطب ثقة طلابه في أنفسهم، يظهرون أطباء متفوقين، يرتدون ملابس مهندمة، ويتحدثون بلغة أجنبية.. لكن ما وراء الكواليس أن الطب يعاملهم مثلما تعامل «نسرين» فرشاة تنظيف الحمام.

تلاشى شعور «نسرين» بالتميُّز حين عادت أمُّ «عمران» لحياته. لكنه لم يعرف سببًا لذلك، هما يتعاملان بتنافر نعم، لكنّ كلّاً منهما تحترم الأخرى.. هذا ما يراه «عمران»، لكن ما لا يراه أن أمه تخبرها أنها في نعمة لم تحلم بها.. زواج لم تكن تتجرأ أمّها أن تدعو به لها في الحرم المكي ليلة القدر.

في مشادة بينها قالت لها أم «عمران» إنه عليها ألا تشعر بهذا الاطمئنان. فيوماً سوف يفيق «عمران» لنفسه ويكتشف خطأه ويتزوج دكتورة بنت دكتور تشرفه في المؤتمرات التي يذهب إليها، وتعرف كيف تتحدث مع أصحابه الدكاترة.

«عمران يكره المؤتمرات، ولا أصحاب له»، ردّت «نسرين» على حماها بتلك الجملة، لكن بدا لها أنها غير كافية. صممت عدة ثوانٍ ثم استدارت لحماها قائلةً:

- المفروض تحمدي ربنا أني لم أسرقه منكم، كما فعلت مع أهل عم إبراهيم.

تجاهلت «نجاة» تلك الجملة وردّت على نصف الكلام الأول. قالت لها إنه لا يذهب للمؤتمرات خوفاً من أن تشبّط فيه، ولا يأتي بأصحابه للمنزل خوفاً من أن تفضحه أمامهم بجهلها. ردّت «نسرين» قائلةً:

- أو مثلاً يسأله عن مكان بقية أهله، ولماذا غادر أبوه من قريته الأصلية؟. انفعلت نجاة قائلةً:

- خرجنا نسعى لأكل العيش، ولولا خروجنا من كوم الأخضر، لما كنتِ زوجة الدكتور عمران. ضحكت «نسرين» واستدارت بعيداً عن «نجاة».. صرخت فيها نجاة تسألها عن سر ضحكتها، فلم ترد نسرين. ووقفت «نجاة» أمامها تسألها بإصرار. فأجابت «نسرين» بهدوء:

- لا شيء، كل الناس تسعى لأكل عيشها، وعموماً أهلي ناس عاقلة وسيرتهم تشرف لا أريد أن أهرب منهم، ولا من سيرتهم.

تنهدت نجاة قائلةً: «قلت له ألف مرة، قرد موالف ولا غزال شارد». تضحك «نسرين» وتردّ: «المهم اعترافك إنني غزال».

تُراعي «نجاة» ابنها، وتُنهي دائماً الجدل مع «نسرين» حين تشعر أنها تريد أن تغرز أقرب سكينٍ في رقبة زوجة ابنها.

يموت الجدل عند «نسرين» فلا تنقله لعمران. اشتكت له «نسرين» مرة من أمّه، فانفعل. ثار وهددها بأنها لا شأن لها بأمّه.. أمه تفعل ما تُريد، وتقول ما تُريد. لم تكمل «نسرين» شكواها. تيقنت أنها الخاسرة لو دخلت في صراع مع أمه، وتيقنت من كلام أمه أيضاً أن «نسرين» رخيصة عند «عمران».. خطأ دفعته إليه فورة هرمونات الشباب وما إن هدأت حتى عاد عقله للعمل.

اشتعلت النار في قلب «نسرين» ولم تجد أأمن من إفراغها على «عمران» نفسه؛ فأمه وأبوه خط أحمر، كما يخبرها دائماً، وهي لا تُطأوعها نفسها في إسقاط غضبها على أولادها، وبما أن «عمران» لا يتهاون في حق والديه، لكنه يتهاون في حق نفسه، فليكن هو من يدفع الثمن إذن، فهو أيضاً من بدأ تلك المأساة، ومن

سكت عليها حتى أكلت «نسرين».

انتهت الدقائق العشر المخصصة لياسين. فحاولت «نرمين» أن تخطف جهاز التحكم منه لكنه أمسكه بإحكام.. ورفع صوت المشاجرة أكثر ليغيظها.

انتبه «عمران» إلى أن الهامستر لا يزال يجري في عجلته دون أن يُبالي بالمشاجرة داخل الفيلم، ولا المشاجرة خارجه بين الطفلين.

قال «عمران» إنه ربما يحاول الهامستر الهروب من مكان المشاجرة فعلاً، لكنه لا يدرك أنه يهرب في نفس المكان.

رأى «عمران» الهامستر شبيهه في هذا.. قضى ثلاثة أشهر في آخر بلاد الله، بعيداً عن «نسرين» وتحكماتها ولم يخرج خارج سور المستشفى مرة واحدة، ثم يأتي هنا ليتوسل الخروج لساعتين؟! «حيوان فعلاً»، قالها لنفسه لكنه أردف: «ربما الحيوان أذكى!».

الحيوانات تفرض على أصحابها رغبتها في الخروج فلا تستسلم حتى تخرج.. ابتسم وهو يفكر أن الحيوانات تفرض على أصحابها كذلك رغبتها في التزاوج أيضاً، كثيراً ما رأى أصحابه يبحثون عن عريس للقطّة، أو عروسة للقطّ، وإن لم يفعلوا يدمر الحيوان أثاث البيت، وربما اغتصبهم شخصياً.. امتعض حين تذكر أن أصحابه يختارون تعقيم الحيوان كي يرتاحوا، لكن لا يجب «عمران» هذا الاختيار، وأكد أنه لا يريد لنفسه!

انتهت المشاجرة في الفيلم، وانتصر البطل وعاد لابنه بالهامستر.

«ياسين» ألقي على أبيه سؤالاً دون أن يلتفت عن الشاشة: «لماذا الهامستر بالذات هو من يضعون له تلك العجلة في قفصه؟»، قال عمران: «لا أعرف»، فقال الطفل: «سأسأل أمي». استفزه السؤال وأغضبه ردُّ ابنه، فقال:

- ابق مكانك، سوف نبحث عن الإجابة.

أخرج هاتفه وكتب السؤال.. نتائج البحث أخبرته أن الهامستر حيوان طاقته هائلة، ولولا وجود تلك العجلة لم يجد ما يهدر طاقته فيه، وسيصبح شرساً أو مكتئباً؛ فالعجلة هي التي تُحافظ على توازنه النفسي، والتزامه قواعد السلوك المتوقعة من حيوان لطيفٍ وصغير الحجم مثله.

قرأ «عمران» الإجابة، ولم يرفع عينه عن شاشة الهاتف. شغل مقطع فيديو لهامستر يجري في عجلة دوّارة. للمرة الثانية يرى نفسه في العجلة، طاقة مهددة في دائرة لا تنتهي.. تجري أكثر ظناً أنها سوف تنتهي أسرع، لكنك تكتشف أنها لا نهائية.

دقق النظر أكثر سائلاً نفسه: ماذا لو قفز الهامستر من تلك العجلة؟ ماذا لو ركّز طاقته على جدار القفص

الهش؟ هذا الاحتكاك كفيلاً بإذابة معدن القفص. «وأطراف الهامستر»، قالها لنفسه بصوت مرتفع. أطراف الهامستر أيضاً ستأكلها النار لو فعل ما تقول، لقد اختار الهامستر الاختيار الأمثل.

مسح وجهه بيده، يحاول الوصول إلى خطة أذكى ليهرب بها الهامستر، لكن اكتشف أن ما فعله الهامستر هو الاختيار الأمثل حقاً، ربما يُبدل عجلة بعجلة، لكن عليه أن يبقى دائراً في العجلة ما دام سوف يبقى في القفص.

اعتدل على الركنة، ثم قال: «ولماذا يجب أن يبقى في القفص أصلاً؟»، قالها بصوت مرتفع سيمعه «ياسين»، فردّ عليه قائلاً:

- لأنه حيوان.

جاءته الإجابة من قفا «ياسين»، فصّدق عليها عمران:

- فعلاً؛ لأنه حيوان.

يفكر «عمران» أنّ من ليس حيواناً يمكنه أن يخرج من القفص؛ ولأنه أذكى من الحيوان فلن يكسر القفص القديم، سيفتح الباب بهدوء، يخرج من القفص، يجرب أقفاصاً جديدة أو يعيش حرّاً فترة، ثم يعود مرة أخرى للقفص القديم كأنّ شيئاً لم يحدث.

أشّرت عين «عمران» كإشراقها حين كان يخطط مع الأطفال لسرقة الجوافة من حديقة العمدة الموجودة في أول طريق البلد، أسند ظهره إلى الركنة، وترك هاتفه وشبك يديه خلف رقبته ونظر إلى السقف.. يفكر في أن أفضل طريقة للخروج من القفص الحالي هي سفر لمدة ١١ ساعة بعيداً عن القفص، وترسل لأصحاب القفص مبلغاً طائلاً أول كل شهر نظير حرّيتك، فتكون خارج القفص أكثر فائدة لهم من داخله، خصوصاً مع ارتفاع تكلفة المدارس الخاصة التي أصرت «نسرين» على إلحاق الطفلين بها.

أخبرها «عمران» مراراً أنه وهو الدكتور لا يمانع من دخول أطفاله مدرسة البلد الحكومية. «نسرين» أصرت على أن أولاد الدكتور «عمران» لا يمكن أن يختلطوا بباقي طلاب البلد.. وأن التعليم هو الاستثمار الأفضل. «عمران» لا يُبالي باختلاط أولاده مع أبناء البلد، يجادلها بأن الأفضل أن يختلطوا بدلاً من أن يصيروا أطفالاً ناعمين بلا مخالب، سيكون مع أول موقف صعب، ويهرعون إلى ماما مع أول تنمّر.

تجرّبه «نسرين» قائلةً إنه طبيب نفسي ومن المفروض أن يؤمن بالتربية بالإيجابية.. يزمّ شفّته، ويحاول أن يتلع الكلام، يعلم أن «نسرين» ستفعل ما تريد في النهاية. لكنها تدعوه لأن يقول ما يدور في جوفه، فيقول لها: «لا أو من إلا بأن العفو يأتي عند المقدرة، فأعلم أطفالاً أن يأخذوا حقهم ويمسكوا من ضربهم ويرموه على الأرض ويجلسوا فوق رقبته بركبهم ثم يقولوا له: عقّونا عنك، ولن نكسر أسنانك أو نحطّم أنفك».

تضرب «نسرين» كفاً بكفّ من كلامه، يريد أن يُلقني في جبهتها حجراً ويخبرها أنها تتمسك بالتربية الحديثة لأنها حديثة فحسب، تظن أنها بهذه الطريقة ترتبط بطبقة أعلى من الأمهات فلا تصبح «نسرين» بنت

قرية بوريج، بل «نسرين» بنت الكومباوند.

تُنهي «نسرين» الجدل قائلةً:

- أنا من أقضي معهم حياتي وسأختار المناسب لهم.. أنت عليك فقط العمل.

يرد أنه لا يمانع العمل والمزيد من العمل، لكن الأفضل للأولاد أن يدخلوا مدارس حكومية؛ شهقت «نسرين» من الكلمة. اختياراتها بين الدولي والتجربي والأمريكي والبريطاني، لم تتوقع أن تُدنس الاختيارات بذكر الحكومي بينها.

يدافع «عمران» عن فكرته قائلاً: «ما أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعليم هؤلاء؟ أن يصبحوا أطباء أو مهندسين أو أي شيء؟ فلندخلهم مدارس حكومية دون أن يحضروا فيها، ونشترك لهم في دورات في جميع اللغات والأنشطة». تقول نسرين: «ثم؟».

يُجيب:

- ثم يدخلون جامعة حكومية مرموقة بمصاريف قليلة. أو لو كان مجموعهم أقل من الجامعات فليدخلوا جامعات خاصة بمبالغ فلكية. تقاطعه قائلةً: «أنت الآن تقول ما أقول»!.

يجيبها:

- الفارق أن دفع الآلاف في الابتدائي والإعدادي استنزاف لا داعي له. لكن في الجامعة نكون بشكل واضح نشترى لهم شهادة جامعية نهائية لتخصص جيد، ونفتح لهم باباً مباشراً لمستقبل هم حدوده.

تنفخ «نسرين»، وتُنهي المحادثة بعبارتها المفضلة:

- تسترخص في العيال لأنهم مني أنا!.

ضرب كفاً بكفٍّ، وقام ليدخل الحمام حيث تُخرج «نسرين» ملابس أخرى من الغسالة.

ضحك حين رآها، فألقت قطعة الملابس التي في يدها في وجهه.. لم يسألها عن سر انفعالها، هو يعرف.

ضحكته الدائمة كلما رأى «نسرين» تغسل أو تنشر الملابس تُذكرها بخناققتها مع حمايتها. أم «عمران» لا يعجبها طريقة «نسرين» في نشر الغسيل؛ تنشر أي شيء يخرج في يدها بجوار الآخر، لا تلتزم بترتيب الجبال لتبدأ بالقصير ثم تضع الملاءات والعباءات الطويلة في الخلف.

سحبته أمه من يده مرةً إلى الشارع. رفعت إصبعها تدعوه أن ينظر إلى الغسيل الذي تنشره زوجته.. لم يفهم «عمران» مقصد أمه. لكنها رفعت صوتها لتُسمع «نسرين» أن نشر الغسيل يدل على نظافة المرأة ونظامها في بيتها، وأن الحالة الوحيدة ليكون نشرها بهذه الفوضى هو أن تكون دكتورة وراءها أشغال ومذاكرة، لكن عيب أن فلاحة لا تعرف كيف تنشر الغسيل!!.

ضحك «عمران» قائلاً أنه هو الذي يطلب من «نسرين» أن تضع الطويل من الملابس في الجبل الأول.

وفسّر لأمه بصوت منخفض أنه لا داعي أن تكون ملبسه الداخلية معروضة أمام كل الناس. تدخلت «نسرين» مضيفةً: «خصوصًا أن بياض غياراته الداخلية مثل بياض غيارات طفل بعد اللعب في الطين». رفعت أم «عمران» صوتها تُخبرها أنها لو كانت امرأةً فعلاً لعرفت كيف تُعيد للأبيض لمعانه.

«عمران» يُشاهد ويضحك. ازداد ضحكته حين أخبرته أمّه أنها مستعدة لتزويجه من بنتٍ أخرى، غسلها مسطرة. ومنذ تلك اللحظة كلما ابتسم مصادفةً، ولو لسببٍ آخر، في أثناء يوم الغسيل أو في أثناء نشر الغسيل، تنفجر «نسرين» في وجهه.

أزاح «عمران» قطعة الملابس التي ألقته «نسرين» في وجهه. قال لها إنه سوف يذهب إلى المركز التجاري الجديد عند منشأة الأوقاف ليشتري أشياء يحتاج إليها للسفر.. طلبت منه ألا يتأخر عن موعد الغداء.

رد عليها: «لا داعي أن تتعبي نفسك بتحضير الطعام، يكفي الغسيل، سأحضر الطعام». وافقت «نسرين» دون تردّد. ارتدى «عمران» ملبسه مُسرّعاً وانطلق إلى المركز التجاري. وهو يقول في نفسه: «لا مشكلات سوف تحدث إذا خرجت من هذا القفص مؤقتًا، فأنت تعلمُ وهم يعلمون أنك ستعود للقفص بالتأكيد، بعد يوم أو عام، ستعود».

عجايبي

انتهى تمثيل الجريمة.. يغلق الضابط باب الشقة بإحكام، يضع بعض العساكر قفلاً إضافياً ليمنعوا دخول أحد للشقة حتى ممن يحملون مفتاحها.

يستدير الضابط للمجموعة ويُعطيهم الإشارة بالتحرك.. ينزلون جميعاً السُّلم، العساكر ممتنون لهذه المعايينة السريعة والجريمة المكتملة؛ جثة وسلاح واعتراف ودافع وتمثيل لكيفية التنفيذ.. لن يقضوا مزيداً من الوقت في الأحرش أو في الجبال حيث العقارب لبيحثوا عن الجثة حال تخلص منها القاتل.

ينزل «عجايبي» فتسارع الصور لذهنه.. كأن لكل درجة سلم ذاكرتها الخاصة، أو أن «عجايبي» يعلم أن هذا هو النزول الأخير من هذا السُّلم، فعصر ذاكرته كي يكتف ذكرياته في المنزل.

تذكر يوم نزل بعد حديثه مع أبيه في أول مرة يشاهدان فيه تلك الشقة، يوم أفصى له بفصله من الهندسة. كان نزولاً خفيفاً سريعاً، كان الجبل قد انزاح من على كتفه.. التقطه أبوه بيده وحمله عنه، ذلك اليوم نزل مولوداً جديداً.

الانتحار كان يراوده في كل لحظة، أن يضع حدًا لنهاية كل شيء، لكن صورة أبيه وأمه ظلت تراوده، انكسارهم بعد غيابه عنها، وقهرهما على أنه لم يعد موجوداً بينهما، وحسرتها أن ابنتها ماتت متحرراً فلا بُدَّ أنه ليس في الجنة.. سيحزنون عليه للأبد، حُزنًا لخسارة الدنيا وخسارة الآخرة.

بعد درجة تذكر نزوله بعد أن جلس مع الدكتور «عمران» في الشقة، كانت أول مرة يقابل فيها «عمران»، لكن نزوله بعد جلستها كان نزولاً بحلٍّ جديد أغاثه مما كان فيه، وحلَّ له أزمته بكذبة أخرى.

يتخيل في هذه اللحظة لو لم يستمع لكذبة «عمران»، ماذا لو سار الأمر بصورته الحقيقية!. لم يكن حاله سيكون أسوأ مما هو فيه الآن، وستكون «إنجي» على قيد الحياة.

يفيق من شروده على أمر الضابط للعساكر بالانصراف وأن يتركوه منفرداً مع «عجايبي». يتمم أحد العساكر وضع القيود في يد عجايبي، ثم ينصرفون.

يقترّب منه الضابط يخبره بهدوء أنه لا يصدق ما حدث، يُبادر «عجايبي» بالقسم أن ذلك هو ما حدث بالحرف. يخبره الضابط أن وضعك ورقة الكراسة كي تمنع إغلاق الباب يعني أن نيتك مبيتة من قبل على دخول البيت دون أن تعلم زوجتك، وهذا يعني سبق الإصرار والترصد، لكنه أيضًا يعني أن هناك ما دعاك للشك سابقاً.

يقاطع «عجايبي» الضابط قائلاً إنه أراد أن يُبازحها فحسب، يرفع الضابط يده لئسكت «عجايبي»، ثم يكمل موضعاً ل«عجايبي» أنه يشعر أن هناك شيئاً غامضاً في ما حدث في الأعلى.. أن «عجايبي» يقول إنه أراد مفاجأة زوجته لكن لم يثبت في التحقيقات أنه كان يحمل أي هدية، ولا أي حجز لسفر لمصيف مثلاً.

تبدأ ملامح «عجايبي» في الاستسلام لتحليل الضابط، لكن كلماته تُقسم أن ما فعله في الأعلى هو ما

حدث؛ أنه قتلها بسبب مشاجرة بينها على موضوع لا يستدعي.. نفخ الضابط بقوة، ثم استدار ل«عجايبي» قائلاً: «حتى موضوع المشاجرة التي أفضت للقتل أنت نفيتها بوجود السكين في يدك بمجرد دخول الشقة». تنهّد الضابط وأكمل:

- أنا هنا لتصوير معاينتك، لكن أنصحك لأني أشعر أن هناك شيئاً ناقصاً.

هدأت حدة كلام الضابط قليلاً ثم اقترب من «عجايبي» قائلاً: «لو هناك ضغط عليك بأي شكل ومن أي أحد لإخفاء دافع القتل فيمكن أن أوفر لك الحماية». ابتسم «عجايبي» قائلاً:

- وماذا يكون الدافع يا حضرة الضابط؟ وكيف يُغيّر الدافع حقيقة موت إنجي؟.

بعصبية رد عليه الضابط: «يمكن أن يغيّر الكثير، يمكن أن يغير كل شيء. من الإعدام للمؤبد أو للبراءة نهائياً حتى». تحرك «عجايبي» نحو الأسفل مُنهياً هذا الحوار، قائلاً: «لا شيء يا باشا، أنا قتلتها بالطريقة التي قُلتها لكم، وللأسباب التي قُلتها لكم. اعدموني وارحموني».

يبرز «عجايبي» من بوابة المنزل منفرداً فيهرول العساكر للإمساك به، يظهر الضابط من خلفه، فيهدءون قليلاً. يقتادون «عجايبي» عبر الحشد إلى سيارة الشرطة.

يقترب «عمران» من السيارة طالباً من الضابط التحدّث مع «عجايبي». يرفض الضابط، لكنّ «عمران» أخبر الضابط أن هناك شيئاً خاطئاً فيما يحدث، ويجب تصحيحه.. أمسك الضابط كتفه بقوة: «هل تعرف شيئاً؟».

ارتبك «عمران» وخرجت كلمات النفي منه بصورة تلقائية.. بلع ريقه ثم قال للضابط: «لا أعرف ما حدث، لكن أنا واثق أن «عجايبي» لم يقتل «إنجي».. ربما هناك شيء خفي، ولو استطعت أن أقنع «عجايبي» بالكلام لظهر».

نادى الضابط على العساكر أن يُحضروا «عجايبي» بعيداً عن الحشد، ويسمحوا له بالحديث مع «عمران». احتضنه «عمران» فور رؤيته.. حضنه بقوة، قوة لا يتحملها جسد «عجايبي» الذي هزّمه الحبس والحزن، وقوة لا تتناسب مع جسد «عمران» الذي يبدو عليه الهُزال. سأله «عجايبي» مبتسماً عن سبب شكله الغريب؛ شعره المنكوش، ولحيته غير المنسقة، وملابسه التي تبدو أنه لم يخلعها منذ أيام؟ قبل «عمران» رأس «عجايبي» وبكى.

ثم قال له:

- قل الحقيقة، وأخبر النيابة حتى عن آخر حوار دار بيننا.

قال عجايبي:

- الحقيقة يا دكتور أنها أوهام فعلاً، كفاية ظلمتها حيّة، حرام أظلمها ميّنة.

الفصل الثاني

(1)

انتهت الإجازة أخيراً، وعاد «عمران» إلى الأقصر، يشعر أن الطريق إلى المستشفى أجمل هذه المرة، وأن وجوه الناس أكثر بشاشة.. ويخبره عقله أن المستشفى نفسه أهدأ، دخل مباشرةً إلى غرفة الكشف دون أن يصعد إلى السكن.. وجد «زينب» تجلس فيها. قال: «تملئين المستشفى جمالاً ودلالاً». ضحكت قائلةً:

- وصلت لحشيش الأقصر؟.

ضحك «عمران» قائلاً: «كل ما في الأقصر جميل». نظرت «زينب» خلفه فلم تجد سوى حقيبة ظهر صغيرة، فقالت:

- جئت من طنطا بهذه؟.

ردّ بأنه قرّر ألا يحمل حقيبة السفر مرة أخرى، قرّر أن يشتري كل ما يحتاج إليه من هنا. ابتسمت وقالت: «وأنا أساعدك، لكن كي تحملها للعودة ستحتاج إلى الحقيبة». فردّ عليها وهو يمشي تجاه سلم الصعود:

- وما يدريك أني سأعود؟!.

ردّت عليه بصوت مرتفع: «المهم لا تنسَ حالة «عجائبي»، حالة الكشف المنزلي». عاد «عمران» ونظر إليها باستغرابٍ. فقالت:

- حالة الشاب المكتئب.

فقال لها: «هيا نذهب إليه». قالت: «تحتاج للراحة». أخبرها أن السفر هذه المرة كان ممتعاً، كأن السحاب هو ما يحمله؛ مخرقة الرقبة وساعة الأذن والعديد من المأكولات جعلت السفر كأنه رحلة. والأهم أنه حجز في الدرجة الأولى وليست الثانية.

ابتسمت «زينب» وهي تخلع البالطو الأبيض وتضعه في حقيبتها قائلةً: «والأهم، تخيل حال الدكتور الذي يحمل الدفاية المسروقة».

ضحك «عمران» قائلاً:

- وصلك الخبر؟.

قالت:

- المستشفى كله عرف، لو عرفوا موعد قطارك لخرجوا على المحطة ليستقبلوك بالبنادق.

مشت «زينب» ناحية سلم النزول للدور الأرضي.

ناداها مستفسراً. قالت: إن عليها أن تستأذن قبل أن تنصرف، وتجد زميلة لتشغل مكانها. لم يبال «عمران»

وانتظرها.

بعد أن خرجا من بوابة المستشفى سألتها: مَن تستأذن من الدور الأرضي الإدارة كلها في الدور الأول؟ ضحكت «زينب» ضحكة مستتره هذه المرة، تجمّد وجهها في الشارع، واكتسبت ملامحها خشونة وزاد جحوظ عينيها.

كانت شخصاً مختلفاً عن «زينب» داخل المستشفى. قال لها: «لولا أي خرجت معك خطوة بخطوة من داخل المستشفى لقلت إنك شخص مختلف». ردّت «زينب» دون أن تلتفت إليه قائلةً:

- الأصول أصول.

انعطفا في طريقهما. قالت زينب: «الإدارة الحقيقية في البدروم.. أيمن العقيلي هو المدير الحقيقي للمستشفى». قال متعجباً:

- أليس هو المدير المالي والإداري فقط؟

ردّت «زينب» نافيةً أن يكون مديراً مالياً أصلاً. قالت إنه حاصل على دبلوم تجارة بطلوع الروح.. صحيح هو من يشغل المنصب: «لكن كله بالكوسة». حكّت له أن ذات مرة أرسلت إحداهن شكوى إلى النيابة الإدارية بخصوص أنه غير حاصل على مؤهل عالٍ ويشغل هذا المنصب. قرّرت النيابة عزله وأرسلت موظفة أخرى لتحل محله. في ظرف شهرين كانت تلك الموظفة تجلس في بيتها مهددة بشيء لا نعلمه.. تمنحه الحق الكامل في إدارة كل شيء. وباتت يده أطول ولسانه أجراً، لأنه يختلس ما يشاء والتوقيع باسم غيره.

سألتها «عمران» بحسن نية:

- المدير يعرف؟.

ردت «زينب» بعصبية أنه هو من جاء بالمدير من الأساس.. مدير المستشفى لا يملك سوى بكالوريوس الطب والجراحة. في حين أن المستشفى مكتظ بحمّلة الدكتوراه والزمّالات، لكنه استطاع بعلاقته بأيمن أن يصبح المدير.

ردّ «عمران» قائلاً: إن المسألة بسيطة لو حصل المدير على أي دراسات عليا يمكن أن يصبح المنصب له رسمياً، ثم يطيح بأيمن، ما دام الجميع يكرهه.

نظرت «زينب» إلى «عمران» فشرع أنه قال جريمةً تستدعي أن تتجاوز «زينب» أصولها وتنتظر إليه في الشارع.

تنهّدت وقالت: إن «أيمن» يملك كل ما يدين البغل الجالس في كرسي المدير. مكتب أيمن في البدروم؛ لأن غرفة مراقبة كل كاميرات المستشفى في البدروم.. ولأن البغل لا يستطيع التحكم في أعضائه، فقد التقطت الكاميرات محاولاته للتحرش بالتمريض وعاملات النظافة.. والتقطت وجود بنات ليل داخل المستشفى. كلما أعجبته موظفة أمن أو عاملة رقاها لتصبح خاصة بمكتبه ثم يستبدل بها أخرى؛ ترصدهن

الكاميرات وهن داخلات إلى مكتبه، ثم ترصدهن خارجات. لهذا فالغرفة مقفلة ومفاتيحها مع أيمن. وكل فترة يحذف ذاكرة الكاميرات، طبعاً بعد أن ينقل هاتفه المقاطع الخاصة بالكبير كي يذله بها. وأحياناً يوجد مقطع أو اثنين لفاروق الضبع.

نظر «عمران» إليها مذهولاً.

الصندوق الأسود للمستشفى انفتح أمامه للتو!!.. سأها:

- كيف عرفت، أو عرفتكم كل هذا؟!

قالت: «أبانوب، فني التمريض، لديه محل لتصليح الأجهزة الإلكترونية، مرة ذهب إليه «أيمن» لتصليح هاتفه، أبانوب أخبرنا أنه لم يتركه لحظة، لكنه استطاع بضغطة واحدة أن ينقل كل الصور والفيديوهات الموجودة على الهاتف إلى الجهاز دون أن يدرك أيمن هذا. ورأى تلك الوساحة، فأخبر من أخبرنا».

قال عمران:

- معنى كلامك أي لو أردت أن أخلع من المستشفى يوماً لأنتزه في الأقصر، فعلياً أن أستأذن من أيمن؟

أجابت زينب:

- عامل أيمن على أنه مدير المستشفى؛ لأنه هو مدير المستشفى فعلاً.

هز «عمران» رأسه.

خطف محل ملابس طبية عينه لبضع لحظات ثم التفت إلى «زينب» مرة أخرى. سأها: «إذا كانت الأصول تمنعك من النظر إليّ في أثناء المشي، فربما سببت لك إحراجاً بالذهاب في النهار والمشى معك وسط الشارع كل هذه المسافة».

ردّت زينب بالنفي، قائلةً:

- البلد كلها تعرفك، وتعرفني قبلك.. وهم بالتأكيد يعلمون أننا ذاهبان الآن لحالة منعها مرضها الشديد من القدوم إلى المستشفى؛ لهذا فنحن نلفّ من هذا الطريق، رغم أن بيت جارنا قريب من المستشفى، كي لا يعرفوا اسم الحالة.

مشت «زينب»، وخلفها «عمران» كطفل يلمح كل حين أمّه ليطمئن أنه في أمان، وينظر حوله يحاول رؤية كل شيء في وقت واحد، رأى مجموعة من أهل البلد يتصارعون بالعصيان وسط حلقة كبيرة من الرجال والأطفال، خلفهم مسجد مطليّ بالأبيض، وأنغام المديح تتصاعد من المسجلات في كل المحلات.

أخبرته زينب أن «هذا هو المرمّاح». تعجّب من الاسم، فقالت: «من الرّمح، الجري يعني».

سأها:

- أين الجري في الموضوع؟

قالت إن المرمح يحدث في المناسبات المهمة، كالمولد النبوي أو فرح ابن عائلة مهمة من عائلات أي قرية في الصعيد؛ يحضر الفرسان بخيولهم، يبيتون ليلة قبل بداية الاحتفالات، يعلفون الخيل، ويسقونها، ويضعون الزينة على رقبتها، خصوصاً الخرز الأزرق ليحميها من عيون الناس.

قاطعها «عمران» قائلاً:

- وما المناسبة الحالية؟

قالت: «مولد سيدي إبراهيم الهاشمي، نسله يرجع للنبي، ومدفون في «عزبة جهنم» منذ أجيال». قالت له بجديّة: «هذه هي كعبة الأقصر، لولا الخوف من الله لصلّى الناس تجاهها».

ضحك «عمران» فتوقفت مكانها وقالت:

- لا أمزح، الناس في «عزبة جهنم» يصلّون للكعبة لكنهم يجعلون مسجده بينهم وبين الكعبة. وداخل المسجد يجعلون قبره بينهم وبين الكعبة. وكل القرى المجاورة مساجدها مبنية بزواية تجعل مقام سيدي إبراهيم بينهم وبين الكعبة.

شعر «عمران» بأنه جرح اعتقاداً بداخلها، فسألها عمّا يحدث في المرمح أيضاً ليعيّر الموضوع.

قالت: «في ليلة الاحتفال، ينزل الفرسان، ويعزف الطبل والزمارون.. يبدأ الفرسان الجولة بالمشلاية». فتح «عمران» عينه، فقالت: «يلفون بشكل دائري في الحلقة التي يصنعها الناس، ثم يتوجهون إلى فرقة الطبل والزمر ليعطوهم النقطة». ابتسمت قائلةً: «أظنك ستسألني عن النقطة أيضاً؟».

ضحك «عمران» قائلاً:

- لا، أعرف هذه، إكرامية يعني.

«الله ينور عليك»، قالتها وأكملت أنه بعد الإكرامية يبدأ الفرسان بالتسابق للوصول من نقطة في طرف الدائرة لنقطة أخرى، كأنه سباق عادي، ومن يصل أولاً يفز. ثم يتوجهون بالعصي وهم على الأفراس، كأنه تحطيط من على ظهر الخيول.

لاحظت انشغال «عمران» بالنظر بعيداً عن المسجد.. رأى تجمهراً من الأهالي يحملون أطفالهم ويقفون في طابور طويل، يضع أحدهم طفله بين يدي امرأة عجوز لبضع دقائق، ثم يحمله ويهرول به؛ خبط «عمران» على كتف «زينب» فنفضت يده سريعاً.. تعجّب من رد فعلها، فقالت: «الأصول أصول». أشار لها بكلتا يديه يعتذر، وأشار بعينه ناحية المرأة والجمهور.

ردّت «زينب» قائلةً: «هذه هي الشيخة بدور أم العقارب». ابتسم «عمران» للاسم، فردّت «زينب» بجديّة: «هي حاوية العقارب على القسم الرفاعي». لم يبد عليه فهم ما تقول؛ فاستطردت تحكي أنه حين يلدغ أحد يذهبون به أولاً إليها، لتقرأ عليه، ثم يأتون بالمددوغ إلى المستشفى.

ردَّ «عمران» قائلاً إنهم يضيِّعون وقتاً ثميناً على الملدوغ. ردَّت زينب بأن الأهالي يؤمنون بذلك ولا يستطيع أحد أن يقنعهم بغير ذلك. سبقته بخطوات، ونظرت خلفها قائلةً له:

- إجْلح.

لم يفهم «عمران» الكلمة، لكن فهم أنها تستعجله.. مشى سريعاً فغُرست قدمه في حُفرة بها مياه راکدة. قالت منفعلَةً: «قلت لك: إجْلح»، وتشير بيدها إشارةً تُوحي بالقفز.. اعتذر «عمران» قائلاً: «لم يحدث شيء».

أكْملاً سيرهما، فتوقفت «زينب».. أخبرت «عمران» بأن الغرباوي تدخل في هذه المشكلة، وسيُحضر الشيخة بدور لتجلس في الاستقبال.. ضحك «عمران» بصوت مرتفع لفَت إليه أنظار المازة، مضت «زينب» مسرعةً تبتعد عنه. سبقته بأمتار كثيرة فهرول ليلحق بها بعد أن كتم ضحكته.

قالت «زينب» إن تفكير الغرباوي صحيح، ما دام لن يقتنع الأهالي بإحضار الملدوغ إلى المستشفى أولاً، فالحل هو أن تكون الحاجة «بدور» في الاستقبال كي نلحق المريض بالمصل، وتقرأ عليه ما تريد في الوقت نفسه.

قالت له «زينب» إنها تتفق مع الغرباوي هذه المرة؛ لأنه كان يأتي لها شاب في الاستقبال ليأخذ حقنة مسكنة للمغص، لكنها لا حظت أنه يطلب منها بعد الحقنة أن تتركه وحده كي يضبط ملابسه. تقول «زينب» إنه بعد أكثر من مرة لاحظت أن السرنجات الموجودة في الغرفة تنقص عندما تجردها في نهاية الشيفت.

«شككت فيه، وحين أتى بعد ذلك عددتُ السرنجات في أثناء انتظاره خارج الغرفة ثم ناديت عليه وأعطيته الحقنة وخرجت كالعادة، لكن دخلت عليه فجأة فوجدته يضع السرنجات في جيبه».

قال عمران:

- هذا مدمن إبر.

قالت زينب:

- عرفت، وأمسكته وكشفت عن ذراعه فوجدته مليئاً بالنُّقر مكان الحقن، فنصحته أن يبتعد عن ذلك الهباب.

قاطعها «عمران» قائلاً:

- وما علاقة ذلك بالحاوي والعقارب؟

قالت:

- لأنه لم يترك الهباب، وبدأ يأتي للاستقبال برفقة أكثر من واحدٍ، فعلمت أنهم أصبحوا يتشاركون السرنجة.

قاطعها «عمران» قائلاً: «مصيبة إضافية». قالت زينب: «بالضبط، حين عرفت أنهم لن يتركوا الهباب، قلت لهم: إذا كنتم لن تتركوه فعلى الأقل ليأخذ كل واحد منكم في سرنجة مستقلة». ابتسم «عمران» قائلاً:

- مديرة مكافحة العدوى بين المدمنين!

نظرت إليه مستاءةً من سُخريته قائلةً:

- سوف تسخر أكثر حين تعرف أني بعد ذلك ركبت لأحدهم كانيولا كي يتعاطى فيها. بعد أن انغلقت كل أوردة ذراعه، أصبح يحقن في أوردة رجله، فخفت أن يحقن الجرعة في شريان أو يتليّف ويريد مهم فركبت له كانيولا، وأخبرته أني سأغيّر لها كل ثلاثة أيام. فتح «عمران» عينه متعجباً. قالت:

- ما دام سيتعاطى في كل الأحوال، فلنحميه من الأمراض والموت حتى يعود لعقله ويترك طريق الهباب. ثم هل ظنك لو أصابه الإيدز مثلاً أنه سيهجر زوجته؟ تنحج عمران، وبعض المنطق بدأ يتشكل في كلامها. قالت:

- لا لن يتركها، فيصبح عندنا مريضان بالإيدز، وأطفال يصبحون مشاريع يتامى، أو جنين إضافي يصبح يتيمًا ومصائبًا.

اعتذر «عمران» عن سُخريته، قائلاً إنه فهم الآن وجهة النظر في وجود الحاوي. ابتسمت زينب قائلةً:

- وجهة النظر في الحاوي، لكن في الكانيولا لا.

هرب من الحوار قائلاً:

- لكن يبدو أن الغرباوي اهتمّ بإقناع الشيخة أكثر من اهتمامه بتوفير مصل العقرب. ردّت زينب قائلةً:

- يوماً ما ستحدث مصيبة بسبب الزفت الذي يتعاطاه هو وفاروق الضبع، وبسبب انشغالهم بالنسوان عن توفير احتياجات المستشفى.

وصلا إلى سلم مرتفع مبني من الخشب والحديد.

تراجعت «زينب» وأشارت لعمران أن يصعد.

حين وصلًا إلى آخره وجدته «زينب» غارقًا في عرقه. قالت: «لم أظنك عجزت لهذه الدرجة». قال إنه يخاف المرتفعات، لكن لأن الحالة تهمّها لم يستطع أن يقول لها هذا. قالت: «هذا ليس بيت الحالة، سندخل هذا البيت ونمر من خلاله، ثم من خلال البيت المجاور، حتى نصل إلى البيت المنشود». مشى «عمران» غير مصدّق ما يحدث.

يمر من صالة منزل كأنه شارع.. الحياة في المنزل لا تتوقف لمروره ولا يلتفت له أحد. تُسلم «زينب» بصوت خفيض وتُكمل طريقها.. بعد البيتين وجداً سلماً مشابهاً عليهما أن ينزلاه؛ نزل الاثنان ثم دخلا في ممرّ ضيق يكفي لفرد واحد فقط. مشت «زينب» أمام «عمران» كي تقوده في هذا الدهليز. لم يستطع «عمران» أن يلف رأسه ليرى أي شيء.. تخيّل أن رأسه سوف ينحشر لو أداره.

في نهاية الدهليز وقفت «زينب» أمام باب خشبي صغير.. يبدو باب حظيرة؛ طرقت عليه، فتح رجل نحيل وشعره رمادي.. رحّب بها ثم خطا خطوتين كبيرتين نحو «عمران» ماداً يده.. قبض الرجل على يد «عمران» بقوة، وشكره على موافقته على القدوم لابنه.

زَمَّ «عمران» شفّيته مبتسماً ليرد المجاملة.

قال الرجل: «أنا الشاذلي أبو عجايبي»، ثم تقدّمهما الشاذلي قائلاً: «يا ساتر».

وجد «عمران» بيت «عجايبي» أحدث من البيوت التي مرّ بها قبل أن يصل إليه؛ دهان جديد، وسجاد بدلاً من الحصير، ومبرد مياه بدلاً من الزير الفخاري.. لاحظت «زينب» نظراته المتفحصة للمكان، فتمهّلت في سيرها حتى حادثه وقالت: «غُصّ بصرك، للبيوت حُرمة». اعتذر «عمران»، فقالت زينب: «البيت مختلف فعلاً، فلوس الخليج». قالتها زينب لتشرح بها كل شيء.

تذكر «عمران» أنه نسبي أن يسأل «زينب» عن تفاصيل هذه الحالة. لو عرفها مسبقاً لجَهَّز عددًا من الكلمات في ذهنه، لكن لا يهيم، سيرتجل. دخل «عمران» الغرفة مع «زينب» و«الشاذلي». انقبض صدره حين رأى السواد المحيط بالراقد على السرير. نساء مرتديات الأسود، لا تبدو وجوههن فقد وضعن عليها الطُّرح. قال الشاذلي معتذراً:

- خالته وأخواته البنات وزوجات أعمامه لم يتركونا منذ وفاة المرحومة أمّ عجايبي.

همس «عمران» لزينب أنه يحتاج خروج الجميع من الغرفة، فقالت لهن دون استئذان من الشاذلي:

- اخرجوا.

خرجوا، فجلس «عمران» مقابل «عجايبي». فارق السن بينهما لا يبدو كبيراً من ناحية الشكل.

ألقي «عمران» السلام، فلم يرد «عجايبي».

تنحنح «عمران» إحراجاً.. ثم أكمل:

- الحقيقة أنني لا أعلم شيئاً عنك، وأنت لا تعلم شيئاً عني.. وهذا هو المزيج المثالي للفضفضة، تحكي وأحكي، يرتاح كلانا، ثم يرحل كلٌّ منا عن الآخر.

لم يردّ «عجايبي»، فأخذ «عمران» يقلّب نظره في الغرفة.

رأى قميصاً لبيبي اللون مكتوباً عليه الحروف الأولى للمنطقة اللوجيستية بوسط الدلتا. سأله عمران:

«هل تعمل في المركز التجاري في طنطا؟»، انتفض «عجايبي» لهذا السؤال، وقال: «لماذا تسأل؟»، رد «عمران» مشيراً إلى القميص.

قام «عجايبي» مُسرِعاً وأخفى القميص في الدولاب.

شعر «عمران» بأنه نَفَذَ إلى نفس «عجايبي»، وأنه يريد الحُكي، لكنه يُخفي شيئاً عن الموجودين.

«ربما سيكون أفضل لو تكلمنا في مكانٍ مختلف»، قالها «عمران» ثم أضاف: «أعلم أن والدك لن يوافق

على أن يراني الناس معك في الخارج، لكن لو لديكم مكان آخر، عُرفة أخرى، أو على السطوح مثلاً بعيداً

عن الجماهير الموجودة بالخارج». لم يردّ «عجايبي» بالرفض، فعلم «عمران» أنه لا يُناع.

نادى «عمران» على الحاج «الشاذلي» فدخل في ثانية.. أدرك «عمران» أنه كان خلف الباب، فقال: «نريد مكانًا آخر للحديث». نظر الشاذلي لعجايبي فهز «عجايبي» رأسه بالموافقة.. تهلّل وجه الشاذلي، فقال: «سيصحبكم التوكتوك أبو ستارة للشقة الجديدة».

وصلاً إلى الشقة الجديدة. كان الشاذلي قد سبقها وفتح الباب لهما. دخلاً، لكن استمر الصمت حتى خدشه «عمران» بسؤال عن دلالة صورة معلقة فوق رأسه لعبارة كبيرة.

نظر «عجايبي» إليها طويلاً ثم قال:

- هذه هي المشكلة.

لم ينطق «عمران»؛ فاتحاً الساحة كلها أمام «عجايبي» ليتحدّث كما يرغب.. قال له «عجايبي»:

- إن الجميع يظنون المشكلة في وفاة أمي، لكنها ليست كذلك.

تزعج «عجايبي» قليلاً للخلف ليسند ظهره على كرسي الأنتريه وأكمل كلامه بأن وفاة أمّه تخنقه؛ لأنها طلبت منه بكلمات واضحة أن يبقى لأنها تشعر أن الأجل قد اقترب، لكنه لم يفعل، لم يُصدّق.

بكى «عجايبي» قائلاً:

- لم أستطع أن أبكي على أمي حين وصلت إلى هنا؛ لأنني كنت قد أنهيت كل دموعي في القطار. تخيل ١١ ساعة في قطار يحملك ببطء وتردد إلى جثة أمك. بكيتُ على كل يوم قضيته بعيداً، وعلى كل لحظة إخفاق خذلتها فيها.. بكيتُ حتى أني شعرت بأني وضعت زجاجة القطرة بكاملها في عيني.

جرت دمعة من عين «عمران» وغاص في كرسيه فاتحاً فمه، يفكر في المهمة التي أوقعته فيها «زينب».. يهز رأسه لينفي في داخله أن تكون «زينب» هي السبب، بل غروره هو الذي ساقه لحالة ظن أنها ستكون مثل البقية.. شرد «عمران» فلاحظ «عجايبي» شروده وأفاق من المكان الذي كان فيه.

نظر «عجايبي» إليه يسأله: «هل يريد أن يقول شيئاً». قبل أن يجيب استطرد «عجايبي» يُنبهه أنه سمع الكثير من المشايخ والقساوسة، وأن جلسات الزار تلت على أذنه المفهوم وغير المفهوم من الكلام. فلو كان يريد الوعظ فيمكنها أن يجلسا لبضع دقائق ثم يخرجوا لوالده ويتفرقا.

تنهّد «عمران»، فقد حاصره «عجايبي».. كان يُحطّط أن يبدأ بالوعظ المحفوظ ريثما يُكون عقله الكلمات المناسبة لحالة «عجايبي».. لكن الآن «عجايبي» يريد الكلام المحدّد مباشرةً.

ابتلع «عمران» ريقه، أسند رأسه للكرسي، ثم قرّر أن يُناور.. سأل «عجايبي» قائلاً: «إذا كنت تريد كلاماً مختلفاً فربما يجب أن تقول أنت شيئاً مختلفاً». ذكره «عمران» بكلمته أن وفاة أمه ليست السبب.. وألقى عليه سؤالاً عن السبب الحقيقي إذن.

رد «عجايبي» عليه قبل أن يُنهى سؤاله. قال: «سأخبرك لأنك قلت إننا سنفترق، لا تعرفني ولا أعرفك».

طمأنه «عمران» لسرية كل ما سيقول.

فردّ عجائبي:

- إنجي...

سأل عمران:

- من إنجي؟

فقال عجائبي:

- خطيبيتي.. نظرياً قرأنا فاتحة قبل أن أسافر إلى الخليج لأنها كانت صغيرة، لكن أعرف أنها لم تكن صغيرة، لا بنت في هذا الجو الحار تصل إلى الإعدادية دون أن تحيض، ولا أعرف كيف فات ذلك على أمي، الله يرحمها.. لكنّ والدها أتى لي بالسفر للخليج كي أكوّن نفسي، ففهمت أنه يرفضني بأدب. قبلت الرفض والسفر؛ في الغربة اضطررت للتواصل مع «إنجي» لتكون حلقة وصل بيني وبين أهلي.. تعلّقتُ بها وتعلّقت بي.. وبدأت أشعر أنها بدأت تُحبنى، قبل أن آتي للإجازة فاتحتها في الزواج فوافقت، فأتمنا الخطبة رسمياً، واتفقنا أن أسافر ٦ أشهر أخرى للخليج ثم أعود للزواج.. لكنّ والدي مات بعد ٣ أشهر فاضطررت للعودة.

توقف «عجائبي» عن الحديث، ولا يزال «عمران» ينظر إليه.

نظر إليه عجائبي، فلم تتحرك عينا عمران.

سأله عمران:

- أين المشكلة إذن فيما قلت، ما لم تكن المشكلة هي وفاة أمك وحزنك عليها؟

ثار «عجائبي» واقفاً ورفع صوته قائلاً: «ألا تفهم؟». صرخ وهو يشير بيده نحو باب الشقة ويغمز بعينه.

فهم «عمران» أن الشاذلي يتجسّس عليهما، لكنه لم يدرك بعد المخفي.

لم تتبدل نظرتة، فاقترب منه «عجائبي» غاضباً وأخذ حقيبة عمران. فتشّ فيها بعنف، وعمران يشاهد ويدفعه الفضول للصمت. أخرج «عجائبي» قلماً ومذكرة من حقيبة عمران، وكتب فيها: «لم أعد للخليج، لا أحد عاد للخليج بسبب الوباء، أنا كذبتُ.. أعملُ في مركز تجاري في قرية مشريّة الأوقاف».

ضيق «عمران» عينه وأخذ القلم من عجائبي، وكتب على الصفحة المقابلة: «منشأة الأوقاف تقصد؟».

هز «عجائبي» رأسه بالتأكيد.

كتب «عمران» في نفس الصفحة: «في طنطا؟».

هز «عجائبي» رأسه بغضب مؤكداً.

جذب المفكرة من يد «عمران» وكتب: «القميص»، ووضع تحتها عدة خطوط.

أشار «عمران» له بكفيه، فعرف «عجائبي» أن «عمران» قد استجمع خيوط الموضوع.

عاد «عجايبي» إلى كرسيه.

وأسند «عمران» ظهره إلى الكرسي أكثر.. مسح وجهه بكفيه، ثم ضرب وجهه بقوة يُبعد النوم الذي بدأ يزحف إلى خلايا محه.

لاحظ «عجايبي» حيرته؛ فقام وتنحنح قبل أن يصل إلى باب الشقة. فتح الباب وطلب من أبيه كوبي شاي من القهوة المقابلة للمستشفى لأن الدكتور «عمران» يُحبها.

رؤية «عجايبي» يتحرك ويتكلم جمّده مكانه.. كرّر «عجايبي» طلبه، فاحتضنه والده قائلاً: «لا، كفاية شاي، لنا شهور لا نشرب غير القهوة والشاي، سأحضر أعلى عصير في القهوة».

لم يعارضه عجايبي، المهم أن يتعد الشاذلي عنهما.

جلس «عجايبي» فبادره «عمران» بالكلام:

- لا أرى مشكلة فيما قلت.

انفعل «عجايبي» وأطلق لنفسه العنان هذه المرة في رفع صوته قال: «البتت تتزوجني على اعتبار أنني أعمل في المركب الذي خلفك، وأنها مسألة وقت وأخذها معي للخليج.. وأنا أنام على الأرض في طنطا».

قام «عمران» نحوه وهدأه قائلاً: «لا أظنها تُحبك لمجرد أنك ستأخذها للخليج، ربما كانت تلك الفكرة عاملاً من عوامل حبها لك.. لكنك قلت إنها رفضتك في البداية وحين تعرّفت عليك وافقت. فلتتمّ الزواج حتى تعرفك أكثر، وتتعلق بك أنت كشخص، ثم شهرًا بعد الآخر تمهّد لها أنك لم تعد تستطيع الابتعاد عنها، وستحصل على عمل هنا في الأقصر».

هدأت ملامح عجايبي.. الكذب حين يخرج من طيب يبدو أفضل من الصدق.

دخل «الشاذلي» بعصير تناوله الاثنان ثم صمتا، فهم الشاذلي الرسالة فانصرف.

أكمل «عمران» كلامه قائلاً: «الآن ماتت الوالدة». قال عجايبي: «نعم».

شرب «عمران» رشفة من العصير، وبان على وجهه التقرُّز. شرب «عجايبي» فشاركه الشعور.

لكنه طلب من «عمران» أن يقول ما يريد دفعة واحدة.

قال عمران:

- ب وفاة والدتك أصبح من المنطقي أن تطلب تعجيل الزواج كي ترعاك البنت وأباك.. تزوّجا وقل لها

إنك أخذت إجازة لشهرين كاملين ستقضيهما معهم في الأقصر.. بعد الشهرين عد لطنطا واقض هناك ٦

أشهر كاملة. في هذه الأشهر احكِ لها عمّا فعله الوباء بالبلد، وبالمرتبات، وأن الأمر لا يستدعي الغربة. وأنت

بعد وفاة الحاجة أصابك الوسواس أن يموت أبوك أو يُصيبها هي مكروه وأنت غير موجود معهم، لهذا تريد

الوجود باستمرار. ولو حصل حمل فهذا أفضل، فتكون هي من بحاجة إلى وجودك بجوارها. في هذه

الشهور التي تقضيها في طنطا حاول أن تجد وظيفة بعيدة عن الأقصر كلها، لو لم تُفلح فيكفي أن تعمل في

مكان مُغلق كمصنع مثلاً، بعيداً عن «عزبة جهنم». وربما تجد زينب واسطة لأيمن العقيلي كي يجد لك وظيفة

في مكتب من مكاتب المستشفى تبع الشركات الخاصة المسئولة عن الأمن أو المطبخ.

شرب «عمران» رشفة أخرى من العصير فامتعض. قال مازحًا:

- نسيت لماذا توقفت عن شربه!!

قال له عجائبي:

- هذا كذب، هي شابة وتريد أن تحيا حياة مختلفة.

رد «عمران» ببرود:

- وهل تظن أن أمامها فرصة لتتزوج أي أحدٍ آخرٍ سيحملها معه للخليج أو خارج عزبة جهنم؟

هز «عجائبي» رأسه:

- مُستبعد لكنه وارد.

قال «عمران» بهدوءٍ:

- لو لا بُدُّ أن ترى الدنيا، فيمكنكم أن تروا أم الدنيا أولاً.

بعنفٍ رزَع «عجائبي» كوبَ العصير على الطاولة قائلاً:

- المفروض أن تقول لي: صارحها.. أن تنصحنِي أن أتوقف عن الكذب وأن أقول الحقيقة مهما كان

الثمن.

صمت «عمران»، لم يعرف كيف يرد.

هو لا يعرف كيف نطق بالكذب بهذه السلاسة، وكيف يُساعد مريضًا على خداع الآخرين، ويساعد شابًا

على تأسيس حياة كاملة على كذبة؟!!! شعر «عجائبي» بأنه تجاوز الحدَّ فاعتذر.. لكنَّ «عمران» رفع يده

قائلًا: «لا داعي للاعتذار».

ابتلع «عمران» رشفة من العصير لتطرد عنه النوم قائلاً: «ربما لو التقينا قبل أن أسافر الإجازة السابقة

لقلت لك ما قلتَه أنت الآن. لكن ربما من عاد إلى الأقصر في هذه الإجازة هو «عمران» غير الذي خرج منها.

شخص آخر قرّر الهروب من قفص العادي والحقيقة والصواب إلى مجهول المغامرات والمنطقة الرمادية

الواقعة بين بياض الحقّ وسواد الخطأ».

لم يفهم «عجائبي» كلام عمران. ولم يُبالِ «عمران» بالشرح له.. فقد كان يُخاطب نفسه لا «عجائبي».

مرت شهور بعد جلسته الأولى مع «عجايبي»، لا يعرف «عمران» عدد تلك الشهور. لكنه يعرف أنه أرسل العديد من التحويلات البنكية لنسرين. لا يكاد المرتب يدخل حسابه حتى يفتح هاتفه ويحوّله لها على حسابها، ويعرف أيضًا أن لون بشرته يتحول للون جديد داكن. لا يعرف هل هذا اللون لوجوده في الأقصر عمومًا، أم لتعدد خروجاته من المستشفى لأرجاء الأقصر.

تشابهت خروجاته؛ يجلس على مقهى في أي مكان يطل على النيل سواء في «عزبة جهنم» أو في الأقصر نفسها. إلا مرة واحدة خرج فيها لمكان مختلف.

كان المستشفى أكثر هدوءًا من المعتاد، لا وجود لهذا الضجيج المتكاثف المنتشر في الجو. خرج «عمران» من السكن يبحث عن تفسير، لم يجد أحدًا من العمال أو التمريض.. دَوَّرًا بعد الآخر كان المستشفى شبه خاوٍ. شعر للحظة أن أسيرة المرضى فارغة أيضًا. خرج على البوابة الرئيسية فوجد فرد الأمن يحمل هاتفه مشدودًا يبتث مباشر لحدث ما.

على البوابة لمح «الشاذلي»، اقترب منه وسلّم عليه. بعد أن تعافى «عجايبي» وتزوج «إنجي»، بات الشاذلي من مجاذيب عمران. يزوره باستمرار في المستشفى، ويحمل له كل فترة فطيرًا أو جبنًا. أو ينتظر عودته من إجازة عيد الأضحى التي يقضيها مع أهله كي يعزمه على وليمة من لحم الأضحية التي يقدمها «الشاذلي» أو أهل «إنجي».

يقبل «عمران» دعوات الشاذلي لكنه لا يقبل دعوات «عجايبي» للزيارة أو للطعام. لا يريد أن يدخل الشقة التي نسج الأحياء فيها خيوط حياتهم على كذبة رقعها هو.

«إنجي» هي من تطهو في الخالتين، لكن وجود طرف ثالث يجعل الأمر أهون. أول عزومة كان رفضه شديدًا، لكن بعد أن ذاق الطعام بات يرفض من باب المجاملة، ثم يقبل فورًا حين يكرر «الشاذلي» دعوته، أو يقسم بأي قسم. لم يعرف أنه يفتقد طعام البيوت إلا حين تذوق طيبخ «إنجي».

يأكل طعام المستشفى أو مطاعم الأقصر. وحين يعود في إجازاته القليلة تجتمع العائلة للسلام عليه فتضيق «نسرين» بالطهي، وتطلب من صفحات على الإنترنت. يجد على طاولته طعامًا يشبه في الشكل أكل البيوت، لكن طعمه مُعلَب. وفي الأيام القليلة التي يخف فيها الزائرون تقول له «نسرين» إن الأولاد بحاجة إلى التنزه معه، فيخرجون للمركز التجاري أو أي مطعم في طنطا. وبما أن الأولاد هم أبطال النزهة فهم من يختارون المكان، واختياراتهم دائمًا برجر أو دجاج مقلي.

سأل «عمران» الشاذلي: «أين الناس؟»، وهو يُشير إلى القهوة المغلقة وكل المحال التي أغلقت أبوابها. قال الشاذلي: «تعال معي وستعرف». ثقلت رجل «عمران» في الأرض، لكن قال لنفسه: «لم لا، نحن في حالة المغامرة الآن، في وضع الهروب من القفص».

وضع «الشاذلي» ذراعه في ذراع «عمران»، مَنْ يراها يظنها صديقين منذ الصُّغر. لم يرفض «عمران» هذا التَّأبط، لكنه ليس مرتاحًا له. التفت للشاذلي قائلاً: «أين نذهب؟».

ردّ الرجل:

- لردم بؤرة الدم.

وقف «عمران» مستفهمًا!

قال الشاذلي:

- جلسة صلح عرفية واليوم موعد تقديم الجُودة.

استدار «عمران» ناحيته قائلاً: «تعني جلسة تقديم كفن؟»، فهزّ رأسه بالإيجاب.

سحب «عمران» ذراعه من كوع الشاذلي قائلاً:

- لا أحتمل منظر الدم.

ضحك الشاذلي قائلاً: «لا وجود لأي دم في الموضوع». تجهم «عمران» وهو يستدعي المشهد الذي سينطق به؛ لحظة وضع القاتل والخروف متجاورين، والسكينة في يد صاحب الدم، تكون أمّ القَتيل غالبًا، ويختار ذبح أي منهما.

قال الشاذلي:

- لكنهم في المسلسلات دائماً يختارون الخروف.

قال عمران:

- حتى مشهد ذبح الخروف مُرعب.

ثم توقف لحظة قائلاً:

- ماذا تقصد بالمسلسلات؟ تعني أنهم هنا قد لا يختارون الخروف؟

ارتفع ضحك «الشاذلي» حتى غضب «عمران». فاعتذر «الشاذلي»، ثم تمالك نفسه قائلاً:

- إن مشهد الخروف والسكينة لا وجود لهما في الحقيقة، وأصلاً لا توجد امرأة تجلس في رَدْم بؤرة الدم.

صمت «عمران» غير مصدّق. فاستطرد «الشاذلي» مؤكداً، وبهدوء أخذ يشرح لعمران قائلاً: «تخيّل أن صاحب الدم يجد فجأة قاتل ابنه أو أخيه أمامه، ثم فجأة يضعون في يده سكينة، ثم يعطونه الحق أن يقتل الخروف أو يقتل قاتل ابنه مثلاً. حتى لو كان الأمر متفقاً عليه من قبلها، فبالتأكيد أن تلك اللحظة سيكون لها وضعها، والشيطان على نصل السكين، وفي أذن صاحب الدم قد يغيّر القلوب. ثم تخيّل أن هذا كله يحدث ووليّ الدم هو أمّ أو ابنة، قلبها محروق على قتيلها، فربما في تلك اللحظة تغيّر رأيها وترفض حكم قُضاة الدم».

هز «عمران» رأسه مقتنعًا، فسحبه «الشاذلي» واستمر في السير.

وصلاً بعد دقائق إلى سُرّادق كبير مملوء بالناس وبيعض مرضى المستشفى وجميع عمالها وأطبائها. حين رأى زملاءه بين الحاضرين التفت إلى الشاذلي يسأله: «هل يقدمون طعاماً؟»، استغرب «الشاذلي» السؤال لكنه أجاب بالإثبات. وقال ويقدمون أيضاً المزاج لمن يريد. وأشار برأسه إلى أحد أركان الصّوان، فرأى «عمران» طاولة منفصلة يجلس عليها «الغرباوي» و«العقيلي» و«فاروق السبع».

قال عمران: «يبدو الأمر مُكلفاً». قالها «عمران» في دخول أحد كبار السن لِيُسلم على «عمران» والشاذلي. قال الشاذلي لعمران: «هذا الأمير الدندراوي راعي البيت».

سَلّم «عمران» عليه، وهو ينتظر تفسيراً للكلمة «راعي البيت».

أجاب الشاذلي:

- الأمير، رضي الله عنه، من الأطراف المحايدة بين صاحب الدم والقاتل، ويتحمل تكلفة السرادق والطعام واستضافة كبار الضباط والقضاة وأحياناً وزراء، وبعد قبول العفو يجلس مع أهل حامل الجُودة ليعطونه ما أنفق.

بدأت عين «عمران» تمسح المكان. اللون الأبيض يطغى على ملابس الحاضرين، وفجأة صمت الكل. مال «عمران» على رأس الشاذلي يسأله عن سر الصمت. فأجاب الشاذلي هامساً أن حامل الجُودة قد وصل إلى مشارف السرادق. وأن الجميع يصمت؛ لأن هذه تُعد جنازة القاتل، كأنه قد مات بالفعل وسيقرر أصحاب الدم بعد أن يصل إليهم أن يمنحوه الحياة مرة أخرى؛ لذلك تشييعه نساء عائلته بالنواح حين يخرج من بيته إلى مشارف السرادق.

صمت «عمران» ليشاهد.

أتى جموع من أهل البلد يرتدون الأبيض. يتقدمهم شاب ثلاثيني يسير حافي القدمين، يرتدي جلباباً أسود بالمقلوب، رأسه بلا عمامة.

تقدّم الشاب تجاه رجل عجوز يقف وخلفه نصف أهل البلد، ومجموعة من شخصيات ترتدي بدلاً أنيقة وملابس رسمية. قبل أن يصل الشاب إلى العجوز تقدّم أحد مشايخ الأوقاف يحمل في يده ميكروفوناً. احتضن الشاب من عنقه وجعله يردد وراءه قائلاً:

- أطلبُ العفو منك الله ولرسوله وللأجاويد الحضور.

ثم ذهب الشيخ إلى العجوز فجعله يردد:

- قبلتُ منك العفو الله ولرسوله وللأجاويد الحضور.

ثم تعانق الاثنان.

تراجع الشيخ وتقدّم رجل أكبر سنّاً من الزمان نفسه.. وقف في نقطة ما. سريعاً ما تشكل على يمينه صفٌّ يتقدمه صاحب الدم ثم خلفه رجال أسرته. كانوا قرابة ٥٠ رجلاً. وعلى اليسار وقف القاتل وخلفه صفٌّ

طويل من أهله كذلك. تناول الرجل مصحفًا عتيقًا ورفع على يده، وضع صاحب الدم والقاتل يديهما على المصحف. ثم وضع كل رجل في الطابورين يده على كتف الرجل الذي يسبقه.

خبط «عمران» كتف الشاذلي وأشار بيده مستفهمًا.

قال الشاذلي:

- ويكأنه يعني...

لم يفهم «عمران» فقال الشاذلي:

- ويكأنهم كلهم وضعوا أياديهم على المصحف وأقسموا عليه.

ردد الطابوران كلمات عن قبولهما الصلح والتزامهما به.. وتقدّم أحدهم وخلع عن القاتل جلبابه المقلوب وألبسه إياه معدولًا. وتقدّم أحد أهله ولفّ عمامة حول رأسه.. وألقى له آخر مداسًا. ثم ارتفع صوت أصحاب الدم يعلنون أنها سيتلقون العزاء في مغدورهم غدًا في سرادق أمام منزلهم، بعد صلاة المغرب وبعد أن يدفنوا الكفن في قبر ابنهم.

بدأت الحشود في الانصراف، لكنّ «عمران» ظل جامدًا.

سحبه «الشاذلي» نحو الخارج، فقال عمران:

- كنت أظن الأمر أكثر قسوة مما رأيت.

قال الشاذلي:

- كانت الأمور أقسى في الماضي. مثلًا كان حامل الكفن يأتي به مرتديًا إياه، أو يأتي به أهله محمولًا على نعش متبوعًا بالعديد والصراخ، لكن اندثرت تلك العادات لقسوتها، وحكم قضاة الدم أن يكون الأمر مقتصرًا على حمل الكفن على اليد أو الكتف، كما رأيت. وكانوا يربطون على رقبة حامل الجُودة منديلًا أبيض ويُمسكه قاضي الدم أو أحد الأجاويد من المنديل، ثم يُقدم طرف المنديل لوليّ الدم كأن القاتل صار بهيمة ولصاحب الدم سلطة كاملة عليها.

في طريق العودة قال عمران:

- لكن يمكن أن يعودوا للثأر بعد أن يُبعدوا الشبهة عنهم.

هز الشاذلي رأسه قائلاً: «لذلك يوقعون على ضمانات كبيرة، وإيصالات على بياض بمبالغ لا يستطيعون دفعها ولو باعوا ملابسهم». قاطعه «عمران» قائلاً: «فرضًا فعلوا...»

قال الشاذلي:

- لكل حالة ظروفها، لكن لو شعر قضاة الدم أو الأجاويد بأن ذلك ممكن فسيحكمون على أهل القاتل بالتغريب لمحافظة أخرى كي يُنهبوا الخصومة إلى الأبد.

ودّعه «الشاذلي» على بوابة المستشفى. ومشى «عمران» نحو السكن يفكر في هذا العالم الذي ظنّ أنه يفهمه، وأن التلفزيون نقل له كل شيء عنه. وهو الآن يكشف أنه لا يعرف شيئاً. قطعت أفكاره مشادة على باب غرفة الاستقبال.. سأل فرد الأمن، فقال له: «حالة تريد الكشف والدكتورة لا توافق على النزول لها».

كانت الساعة قد قاربت من الواحدة ليلاً، ولا يرى بين المتشاجرين مريضاً راقداً على سرير الإسعاف، أو أحداً ينزف أو يتلوى من الألم. التفت للأمن يسأله مرة أخرى: «أين المريض المطلوب الكشف عليه؟»، أشار إلى فتاة متوسطة الطول تقف إلى جانب الباب خارج دائرة الشجار.

اقترب «عمران» من المشاجرة فوجد «زينب» وسطهم. ناداها، فصمت الأهالي عن المشاجرة. قالت إن البنت فاتتها الدورة، ويريدون التأكد من الحمل. قال عمران: «اختبارات الحمل في الصيدليات». ردت «زينب» بأنهم لا يثقون بها.. يريدون عمل اختبار دم والتأكد من أن الكيس ظاهر في السونار.

هز «عمران» رأسه لا يفهم أين المشكلة إذن. قالت زينب:

- المعمل يرفض إجراء أي تحاليل لغير حالات الطوارئ بعد منتصف الليل. حتى لو اتصرت مع بنات المعمل، فيجب أن تكتب دكتورة النساء والولادة هذا الاختبار. كما أن الكيس لن يظهر في السونار في بداية الحمل مباشرةً.

نفد صبره قائلاً:

- أين المشكلة يا ست البنات؟

قالت:

- إن دكتورة النساء ترفض النزول من السكن لأن الحالة ليست طوارئ، ولا على وشك ولادة، وتريدهم أن يأتوا غداً في العيادة. وحاولنا إقناعهم لكنهم من الأصل لا يريدون الدكتورة، يريدون دكتوراً رجلاً.

ضيق عينه متعجباً.. قاطعت سيدة كانت تسمع الحوار، الحشد كله كان يسمع الحوار، قالت:

- نحن لا نثق في دكاترة الولادة من السيدات. الرجال أفضل في هذا التخصص.

ردّ «عمران» بهدوء قائلاً:

- لكن يا أمي البنت ربما لا تريد أن تُكشف على رجل، ونصيبكم أن النوبتجي دكتورة.

قالت السيدة إنهم لن ينصرفوا حتى يكشف أي دكتور على البنت، «ويُرِيهم الكيس على التلفزيون».

أخذت زينب بذراع «عمران» وقالت له:

- اكشف أنت عليها.

رفض قائلاً إنه لم يستخدم السونار في حياته.. هددته وقالت:

- هيَّ حامل، كل الأعراض أعراض حمل. سأخبرها أن المعمل مغلق الآن، لكنك ستجري السونار لأجلهم، وهي حامل.

يثق «عمران» بزینب، الشهور التي تقترب من أن تصبح عامين كاملين جعلته يبصم وراءها على التشخيص والعلاج أحياناً؛ لهذا كان طلبه الوحيد من الإدارة أن تكون هي الموجودة في كل مناوباته وسهراته.

بعد أن فرغ من السونار الكاذب أكد لهم الحمل، اتجه إلى المكتب كي تعدل البنت ملابسها ويكتب لها بعض علاجات الحمل التي يتذكرها من أيام حمل «نسرین» بطفلها الأول. لكن زینب منعتة قائلةً:
- يكفي أن تنصحهم بالعودة إلى دكتور متخصص في النساء والولادة؛ لأن البنت قد تحتاج إلى حقن تحت الجلد.

لم يفهم «عمران» التفسير، وقطعت الأم تهامسه مع زینب قبل أن تشرح له، تسألته: «إيه فيه؟». قال: «خيرًا، كل الخير»، ثم سأها بهدوء: «لماذا أتيتم في هذا الوقت المتأخر، وهناك مهرجان ردم بؤرة دم؟».

ضحكت الأم وقالت:

- كنّا نريد الاختباء في ستر الليل وانشغال الناس بالصلح، أنت تعلم أن العين حق، وحمل بنتنا عزيز. لكن لم نكن نعلم أن البلد كلها ستعلم بنا.

نظر إليها وقال: «لماذا الاختباء، أليس لها زوج؟»، قالها مازحًا، لكن السيدة انتفضت وشهقت البنت. تدخلت زینب مسرعة تقول:

- غريب أعمى، غريب أعمى.

قالت الأم:

- لا يهملك يا دكتور عمران، أنت تقول ما تشاء.

شعر «عمران» بالنشوة كونه أصبح مشهورًا في «عزبة جهنم». قالت الأم:

- هذا حمل على شُوقه.

استمر «عمران» في النظر لها ينتظر التفسير. تدخلت زینب شارحةً له أن البنت لم تحمل بعد الزواج مباشرةً. فطافوا على المشايخ والأطباء، حتى سافروا إلى مركز خصوبة في القاهرة منذ شهور، وبدأت الأعراض تظهر، ويخافون من عيون الناس قبل أن يثبت الحمل.

غمزت زینب لعمران وهي تُردف بكلمات بطيئة ومنفصلة:

- لهذا يجب أن يعودوا إلى مركز الخصوبة ليكتب لهم مثبتات الحمل.

ابتسم «عمران» قائلاً:

- عموماً مبارك الحمل، واسمعوا كلام ميس زينب.

خرجت البنت وأمها، فالتفتت إليه زينب تقول:

- البنت بيضاء بياض القشطة الجاموسي.

ضحك «عمران» قائلاً: «الجاموسي تحديداً؟!»، قالت زينب: «طبعاً لبن الجاموس أكثر بياضاً من لبن

البقر». ثم التفتت إليه قائلةً: «أنت من بحري، بلاد البقر».

ارتفعت ضحكة «عمران» فاعتذرت زينب. قال عمران: «لا عليكِ، أنتم بلد المعيز، ونحن بلد البقر».

قالت:

- كله خير، المهم أنها أميرة.

قال لها: «هل اسمها أميرة؟»، ردت بالنفي: «بل إنجي».

اسمها على اسم الأميرة «إنجي» في فيلم «رد قلبي». أمها كانت لا تنجب إلا الذكور، وحين شاهدت

الفيلم ظلت تدعو أن يرزقها الله بنتاً تشبه الأميرة «إنجي». نظرت «زينب» نحو الباب كأنها تستحضر طيف

البنت وقالت: «واستجاب الله حق الاستجابة». ثم قالت: «لكن الحلو لا يكتمل، البنت راديو، لا تتوقف

عن الكلام بمجرد أن تضغط على الزر.. لكن في الراديو هناك زرّ واحد للتشغيل، لكن مع «إنجي» أي زر في

أي موضوع مع أي أحد يجعلها تنفجر بالكلام».

قال لها عمران: «يبدو أن اسم «إنجي» منتشر هنا»، ردت زينب بالنفي قالت: «أبدًا، هي بنت واحدة في

«عزبة جهنم» كلها». وقف «عمران» قائلاً: «بنت واحدة، هذه إنجي...»، وقبل أن يكمل كلامه قالت

زينب: «أجل، زوجة عجائبي».

أخرج «عمران» هاتفه فوراً ليُجري اتصالاً يهنئ فيه «عجائبي» بالمولود.

تركته «زينب» يُنهي اتصاله ثم سألته وهي تنظر إليه مباشرةً: «تريدني أن أصدق أن هذا البياض لم يلفت

نظرك!». قال عمران: «لا».

قالت:

- كنت سأصدقك لو كنا خارج الأقصر. لكن هنا ليس معنى أنه لفت نظرك أنك شخص سيئ، لكن

لفت نظرك؛ لأن المعتاد هنا هو الأجساد السمراء أو حتى البياض لكن بياضها ملفوح بحرارة الشمس.

أخبرها «عمران» أنه بالفعل لم يدرك بياض بشرة البنت إلا بعد أن قالت هي بعد الكشف.

زامت «زينب» بشفتها دلالةً على عدم تصديقها، وقالت:

- يبدو أننا سنبنني ضريح سيدي «عمران» بجوار سيدي إبراهيم.

ضحك «عمران» وأخبرها أن الأمر لا علاقة له بالولاية، كل الحكاية أنه مع كثرة التعامل مع الحالات يفقد الطبيب شعوره بأنهم بشر يمكنهم تحريك غرائزه.. هم حالات فحسب

صار لـ «عمران» روتين ثابت في «عزبة جهنم»؛ مثل أنه أصبح يجلس كل جمعة مع «عجايبي» على المقهى المقابل للمستشفى لمدة ساعة أو ساعتين بعد صلاة الجمعة.

سته أشهر كاملة ولم يتخلفا عن جمعة واحدة، حتى بعد أن أنجبت «إنجي»، وصار معظم الجلسة أسئلة عن مراحل نمو الأطفال، ونوادير يحكيها «عجايبي» عن طفله.

دخل «عمران» القهوة، فاستأذن القهوجي شاين يجلسان على طاولة في الركن أن يقوموا لأن الطاولة محجوزة كل يوم جمعة لصالح الدكتور «عمران».. اعتذر لها «عمران» فتقبّلوا اعتذاره مرحبين. سأل «عمران» عن «عجايبي» فقال القهوجي إنه سيأتي بالتأكيد.

دخل «عجايبي» فقام «عمران» ليُسلم عليه.. بسرعة قال القهوجي: «طلبكما على النار». سأل «عمران» هل فاتح «إنجي» بعد؟ فردّ «عجايبي» أنه لم يستطع أن يخبرها الحقيقة كاملة.. لكنه أخبرها أن فرع شركته في الخليج حين علموا بولادة زوجته ورأوا اشتياقه لها ولابنه قرروا أن ينقلوه لفرع الشركة في مصر، ومكانه محفوظ في الخليج متى أراد العودة.

سأله «عمران» مندهشاً:

- هل صدّقت تلك الكذبة؟

هز «عجايبي» كتفه قائلاً:

- لا أعرف، هل صدّقتها أم أنها تجاريني فحسب.. لكن ما أعرفه أن وجودي مهم معها في تلك الشهور الصعبة. خصوصاً بعد الفترة التي قضاها «يامن» في الحضانة وموضوع تعب قلبه.. دائماً ما تقول لي إنها لم تسمع عن رجل يريح زوجته مثلما أفعل. أو يحاول أن يُسكت الطفل بأي طريقة كي تنام هي ساعتين.

قاطع «عمران» سائلاً:

- أين أمها؟

ضحك «عجايبي» قائلاً:

- أقامت عندنا أول أسبوع بعد الولادة، لكنّ بيتها أصبح حلبة مصارعة بين زوجات الصبيان؛ لهذا لم تستطع أن تُطيل المكوث عندنا، عادت لبيتها.. رغم أن منزلها القريب منّا فإنها تخشى أن تترك البيت لزوجات الصبيان، وفضّلت أن تأتي كل حين لتطمئن علينا. ولما أخبرتها «إنجي» أنني أخذت إجازة طويلة ونقلت عملي لمصر؛ فرحت فرحاً شديداً. كانت هي العامل الأهم في تهدئة «إنجي»، وإخبارها بأن الرجل سيوفر لها كل ما تحتاج سواء وهو في الخليج أو في مصر أو في آخر بلاد الله. سمعتها تقول لها إن وجودي مهم وسيخفف عنها الكثير. وأنا أحاول أن أحمل أعباء كثيرة عن «إنجي» كي تطلب هي مني ألا أغادر.

ضحك «عمران» قائلاً:

- سبحان الله، «نسرين» زوجتي طلبت مني بشكل صريح أن أبقى هنا.
تهلل وجه «عجايبي» وكاد يبارك لعمران، لكنه لاحظ تجهم وجهه فسكت. أكمل عمران:
- منذ شهرين حدثتها أني سأعود في إجازة لمدة شهر، لكنها قالت إنها ستأخذ الأولاد وتذهب إلى أختها
في إسكندرية لتقضي معهم شهر الصيف. وإذا أردت أن أعود إجازة فعلياً أن ألتحق بهم هناك.
قال عجايبي:

- لماذا لم تذهب؟ بحر إسكندرية حلو.
قاطعهم القهوجي بفنجان قهوة وكوب زجاجي كبير فيه خليط من الفواكه، ثم وجّه المروحة إليهما.
شكره «عمران» ثم التفت إلى «عجايبي» قائلاً:

- أردت أن أكون في بيتي وسط أولادي، وما دمت سأقضي الشهر مسافراً وضيافاً على أحد ووسط عائلة
كبيرة لا أحبهم ولا يتركونني عند رؤيتي إلا وقد صدّعوني بشكواهم عن كل أعراضهم وأعراض جيرانهم،
فضّلت أن أقضيه هنا في الأقصر.

ضحك «عجايبي» قائلاً:

- يعني أنت هذا الشهر موجود بيننا كسائح؟
رد عمران:

- بل أقل.

نظر «عجايبي» متفهماً. قال عمران: «إن مدير المستشفى عرف من فاروق السبع أني لست على قوة العمل.
فكلفوا العقيلي أن يأمر المطبخ بالألّا يصرف لي وجبة الغداء. ومنعوا العمال من تنظيف سريري».

فتح «عجايبي» عينه المتعرّقة. قال عمران:

- المدهش أكثر أني طوال الأسبوع الفائت لم أكن أعلم. فكنت أصعد لأخذ الوجبة كالمعتاد. لكن أخبرني
العقيلي بذلك حين رأى معي الوجبة أمس. وهدد بفتح تحقيق مع عمال المطبخ بتهمة تبديد المال العام
والعهدة.

اقترب «عجايبي» من «عمران» ليتأكد من أنه يتحدث بجديّة؛ فأقسم «عمران» أن هذا حصل.. «صعدت
للمطبخ لأستفهم، فأخبروني مُرحّجين أن اسمي مرفوع من قوائم الوجبات، وأنهم كل يوم يتنازلون عن
وجبتهم بالتبادل كي يعطوها لي».

خبط «عجايبي» على الطاولة وقال: «أهل الأقصر هم هؤلاء الذين في المطبخ، أما البغال الأخرى فهي
من خارج الأقصر». ضحك «عمران» قائلاً: «الغرابوي من الغربية، والعقيلي والسبع من الأقصر». ابتسم

«عجايبي» وقال: «إذن طعامك معنا اليوم».

رفض «عمران»، وأصر «عجايبي»، فأصر «عمران» على الرفض قائلاً:

- لا أستطيع أن أتحرك خطوة تحت هذه الشمس الحامية.

«المهم...»، قالها عمران، وهو يأكل قطعة تُفاح من الكوب الذي أمامه: «ماذا ستفعل في عملك؟».

أجاب «عجايبي» بأنه حين عاد من طنطا كانت معه ورقة موقّعة من «السيد بيه» شخصياً موجهة إلى مدير فرع الأقصر كي يعيّنه مشرفاً على المخازن فيه.. لكنه حين ذهب إلى الفرع أخبروه بأن الشركة بأكلمها سافرت إلى طنطا كي تُعزي الرجل في وفاة زوجته وابنه.

فتح «عمران» عينيه قائلاً: «زوجته وابنه ماتوا!». ردّ «عجايبي» مؤكداً. وأضاف أن الناس يقولون إن الوفاة نتيجة حريق. صمت عمران، فبادره «عمران» قائلاً: «ربنا يرحمهم ويصبره، هل تعرفه؟»، هزّ «عمران» رأسه قائلاً: «المفروض». ثم توجه إلى «عجايبي» يطلب منه أن يكمل ما حدث.

قال عجايبي:

- عدت للفرع بعد أسبوعين فقالوا: «إن التعيينات متوقفة ريثما يصدر قرار بصرف درجات مالية جديدة. بعد فترة بدأت المدخرات وفلوس نقوط الولادة وطهارة «يامن» في التناقص، فذهبت لأسأل فقالوا: إن الرجل اختفى، وابنه حلّ مكانه وأوقف كل التعيينات الجديدة».

قاطعه «عمران» ليصرف الحديث عن اختفاء السيد قائلاً:

- اعذرني أليس «يامن» اسماً غريباً على الأقصر، وعلى «عجايبي» تحديداً؟».

ضحك «عجايبي» قائلاً: «لا شيء يناسب عجايبي.. لكنه بالفعل غريب على الأقصر. لكنه رهان مع المدام، لو لم أحضر الولادة فستطلق هي الاسم الذي تريده». ابتسم «عجايبي» قائلاً: «ببركة سلك حديد مصر خسرت الرهان، وأصحبت أبو «يامن»، أو يمن كما تطلق عليه حماتي، أو أيمن كما يُطلق عليه الجميع». اعتدل «عمران» ثم توجه إلى عجايبي، نظر إليه للحظات ثم قال: «لا شيء». ضحك «عجايبي» قائلاً: «قُل ما تريد».

قال عمران: «بمناسبة الأسماء أريد أن أسأل عن...»، ثم سكت فقال عجايبي: «تريد السؤال عن معنى اسمي؟».

ردّ عمران:

- لا هو من العجائب، معروفة.

ضحك «عجايبي» قائلاً:

- ربما له جذر لغوي أعمق من مجرد العجائب، يمكن له علاقة بالحيوانات مثلاً.

قال عمران:

- لا يهم الجذر اللغوي، أي كلمة يمكن أن تحملها أي معنى تريده.

قال عجايبي:

- ماذا تريد إذن؟

رد عمران: «معظم من قابلتهم في الأقصر الذين يحملون اسم «عجايبي» غير مسلمين». هز «عجايبي» رأسه مؤكداً. أشار له «عمران» بيده يريد أن يستطرد في الحديث.

قال عجايبي:

- إن والديّ رُزقا بست بنات.. المشايخ وجلسات الزار لم تنفع في جعل أي حمل منها ولدًا. صديق والدي، «بُولا فوزي». قال له إنه سيتوسل للقديس «مارمينا العجايبي» كي يرزقه ذكرًا. لكن بشرط أن يسميني أبي بولا. كان صديقه يمزح في تلك الكلمة، فردّ والدي بمزاح أيضًا: لماذا أسمّيه على اسمك، لو حصل سأسميه العجايبي شخصيًا.. بعد أسبوعين أو ثلاثة من تلك المحادثة عرفت أمي أنها حامل.. أقسم أبي أني لو كنت ولدًا سأكون العجايبي، ولو بنت فسأكون مريم؛ لأن الحمل في الحالتين إما بركة العذراء أو بشفاعة العجايبي.

اعتدل «عجايبي» في كرسيه قائلاً:

- رغم أن الأطباء أقسموا له أن الحمل كان عمره شهرين، يعني حدث قبل محادثته مع «بولا»، فإنه صمّم على أن الحمل عجيبة من عجائب العجايبي».

تناول «عجايبي» رشفة من فنجان القهوة، ثم رفع رأسه فجأة لعمران قائلاً: «انتظر، يامن عمره شهر الآن، والحمل استغرق تسعة أشهر، وحدث بعد شهر طويل من الزواج، يعني حتى لو لم نحسب الفترة التي كنت فيها في الأقصر قبل أن أعرفك فيكون قد مر عليك هنا أكثر من سنة أو سنتين حتى، والشاذلي أخبرني ونحن نتحدث عنك ذات مرة أنك هنا منذ عام واحد فقط».

تنهد «عمران» وأزاح كوب الفواكه من أمامه.. نادى على القهوجي وطلب كوب شاي، ثم اعتدل على الكرسي.

لاحظ «عجايبي» هذا التباطؤ في الرد فاعتذر إذا كان قلبّ المواجه. قال عمران: «لا مواجه ولا شيء». حكى له: «نسرين أخبرتني أنها استطاعت أن تحضّل لهما على شقة في مشروع التمويل العقاري الذي طرحته الحكومة؛ شقة فخمة في منطقة الاستاد، أظنك تعرفها».

هز «عجايبي» رأسه بالتأكيد.

استمر «عمران» في حديثه قائلاً:

- أخبرتني أن الحياة في منزل قريب من أمّي مستحيلة، ويجب أن أفصل بينهما.. وهي وجدت لي الحل؛

شقة بقسط بسيط على ٣ سنوات. والمقدم هي دفعته من الذهب الذي اشترته لها على مدى سنوات زواجنا. وباعت السيارة أيضاً، بما إني في الأقصر فلم أعد أستخدمها.

ابتسم «عمران» قائلاً:

- تمنع نفسها بأني أنا الذي كنت أستخدم السيارة، وسحبت الأولاد مؤقتاً من المدارس الدولية لمدارس لغات افتتحتها الحكومة مؤخراً، برسوم أقل.

ابتسم «عجايبي» قائلاً:

- لكن كل هذا كان يحتاج إلى وجودك للتوقيع على الأقل.

«الله ينور عليك»، قالها «عمران» بصوت مرتفع. «أنا سألتها نفس السؤال، الشقة تقسيطها على مرتبي إذن أنا من ذهب إلى البنك وقدم الطلب، والسيارة باسمي إذن أنا من وقع على البيع ومضى التنازل عن الرخصة في المرور». كان ردها بدهياً: «الفلوس حضرت مكاني».

أمّن «عجايبي» على كلامها؛ بالفعل الفلوس تحل كل شيء. قاطعه عمران:

- المعضلة ليست في هذا، الفكرة أن الفلوس حضرت مكاني ويجب أن تستمر في الحضور بدلاً مني؛ القسط بسيط نسبةً إلى الراتب الذي أتقاضاه هنا. لو خرجت من مستشفى التأمين الصحي الشامل فسوف نضطر إلى التسول.

واستطرد قائلاً:

- قلت لها إن هذه مشكلة التطلع للطبقات الأعلى. يمكن أن تستدين لشراء شقة أو سيارة.. لكن الحياة في منطقة أغنى منك ستفتح عليك تطلعات لم تكن تفتقدها؛ لأنك لم تكن تعرفها. وستجعلنا نعاني مع أطفالنا، بدلاً من شعورهم أنهم أبناء دكتور، وحالتهم المادية أفضل من أحوال قريتهم، سيكتشفون أنهم في قاع الطبقة التي تشبوا بالصعود إليها، فيطلبون رحلة إلى الدولة الفلانية، وهاتفاً من نوع كذا، ومصروفاً قدره كذا... كلها أشياء تبدو تعجيزية لك، لكنها عادية لزملائهم.

حاول «عجايبي» أن يخفف من حدة الأمر، قائلاً: «هي تفكر في مصلحة الجميع.. وسنة إضافية هنا لن تقلك، مضى منها عدة أشهر دون أن تشعر». رفع «عمران» يده برقم اثنين، ثم قال: «بل ستان كاملتان.. يجب أن أقضي هنا عامين كي تنتهي أفساط الشقة». قال عجايبي: «من حُسن حظنا يا دكتور».

نظر «عمران» في ساعته قائلاً:

- الساعة الآن الثانية، أمّ يامن تنتظر على الغداء.

بينما يخرج «عجايبي» من القهوة، وهو يضع قطرتين من الدواء في عينيه، سمعوا صراخاً في الشارع. جروا جميعاً فوجدوا طفلة تصرخ: «عقرب.. أول مرة أعرفه». هداها أحدهم، وقال لهم الآخر: «هرب، لكنه فعلاً

كله غريب».

نظر «عمران» إلى «عجايبى» ينتظر تفسيرًا لهذا الهدوء البادي على وجوههم جميعًا تجاه رؤية عقرب سام يتجول في الشارع.

قال عجايبى:

- ليس هدوءًا، بل تعوُّد على قَدَرٍ لا مفرَّ منه.. الحرارة هذا الصيف شديدة، وحين تشتد الحرارة تخرج العقارب من جحورها في الجبال وتنزل إلى الظل والأماكن الباردة.

قال «عجايبى» كلمته وهو ينظر تجاه المستشفى:

- ليس هناك في «عزبة جهنم» مكان مكيف مثل هذا المبنى، فخذ حذرِك يا دكتور.

كان وجه «عجايبى» مازحًا، لكنَّ العقرب الذي رآته البنت يبدو جدًّا.

بعد شهر من تلك الحادثة دخل «عمران» إلى موقف الميكروباص المتجه من الأقصر إلى «عزبة جهنم».. ركب السيارة بجوار الشباك جهة السائق، علّمته المواصلات كيفية حساب أين ستكون الشمس، على السائق أم على الجهة المعاكسة له. سجّل بهذه القواعد ملحوظة صغيرة ووضعها على هاتفه المحمول. الآن ستكون الشمس على الركاب الآخرين، أمّا السائق ومن خلفه فلن تحرقهم الشمس.. لم يكن يبالي بهذه التفصيلة في البداية، لكنّ حروق الدرجة الأولى على كوعه جعلته يبالي.. لا يكفي أن الشمس حارقة، لكنّ مرور شعاع الشمس من زجاج الميكروباص يُكثّفه فيصبح «عمران» مثل ورقة كراسة تحت عدسة مُجمعة في صحراء.

من الشباك رأى «عجايبي» واقفاً على بُعد ٣ سيارات، نادى عليه عمران، فتهلّل وجهه عجايبي.. اقترب منه يصافحه ويسأله: «أين اختفيت؟». أجابه «عمران» أنه بعد ما صرخت البنت على القهوة صار مرعوباً وهو يمشي في أي مكان، ولم يعرف أن ينام في سريره، «زملائي قالوا: المستشفى أمان، ولا تدخلها العقارب. فطمأنت على نفسي، لكنّ حالات لدغ العقارب توافدت علينا طوال الأيام الأربعة التي قضيتها من بعد يوم الجمعة».

قاطع «عجايبي» قائلاً:

- لكنّ الناس معتادون، لا شيء غريباً.

ردّ «عمران» قائلاً:

- هذا هو الغريب، يدخل الناس بهدوء تماماً ويقولون ببساطة: العقرب دقّ الولد. وبعضهم يُحضر العقرب ملفوفاً في قماشة كي نراه». أزاح «عمران» زجاج الشباك أكثر، واقترب من أذن «عجايبي» قائلاً: «المشكلة أنني لم أتعامل مع هذا الوضع من قبل. معظم الحالات أطفال رُضع أو في عمر صغير، وضربات قلبهم ترتفع لدرجة أن شاشات مراقبة النبض تُطلق الصافرات طوال وجود الطفل تحت الملاحظة.

ضحك «عجايبي» قائلاً: «الحكاية بسيطة». ردّ عمران: «هكذا اكتشفت. أطباء الأطفال ينزلون بهدوء، فقبل نزولهم أو نزولي حين يكون أحدهم نائماً، يكون التمريض قد أعطى الطفل جرعته من مصل العقرب، لكن لم أستطع التحمّل».

يتسم «عمران» قائلاً:

- ذات مرة كان معي في غرفة الطوارئ ٥ أطفال، بعد أن خرجوا قُمت لألقي الكمامة التي أرتديها في سلة المهملات فوجدتُ ٣ عقارب متراكمة في السلة؛ فزعت لحظتها وقررت أني لن أستطيع مواصلة العمل في موسم العقارب هذا. كما أن وجود الشبخة على باب الاستقبال يُزعجني، كأننا لسنا في مستشفى..

والتمايم التي تقولها ترعيني.

سأله «عجايبي» مستفهمًا عمًا تقوله الحاجة «بدور»، وأخبره أنه لا أحد يفهم ما تقول. ردّ «عمران» أنه في البداية لم يكن يفهم ما تقول، لكنه اقترب من مكانها أكثر من مرة حتى ميز كلامها. بلهفة قال له «عجايبي»:

- إن تلك الجُمْل التي تقولها بُدور هي قَسْم ينتقل من حاوٍ إلى حاوٍ دون أن يُفصّحوا عنه للناس. ردّ «عمران» قائلاً: «الموضوع بسيط لكنّ هذه السريّة المُبالغ فيها هدفها خلق أسطورة حول الموضوع كي يصدّقه الناس». أشار له «عجايبي» بيده يستعجله في قول ما تقوله «بدور». قال «عمران» إنها تقول تقريبًا:

- يا هادي اهدي، ويا دليل دل، ويا الي عاقد عُقدة للزمان حل. ويا سم يا سموم، يا أحرّ من نار السّموم، لا تسري ولا تعوم... بإذن سيدي أحمد الرفاعي الشيخ علي أبو نور الدين الي حكم على ٣٦٦ جنسًا من جنوس الديب... جنس عقرب بلدي وإفرنجي.

جفل «عجايبي» من الكلام، لكن ابتسامة «عمران» أثارت فضوله. سأله عن سر ضحكته، فقال «عمران»: «إن المشكلة أنها بعد أن تقرأ هذا الطلاسم تخدش جلد المريض من جهة أصابع اليد أو القدم خدشًا بسيطًا لكنه كافٍ لينزف المريض بضع قطرات من الدم، ثم تضع ملعقةً من السُّكر على هذا الدم حتى يتشرب به السُّكر».

أكمل «عمران» أنه منذ لاحظ موضوع السُّكر بات شربه للشاي عذابًا، يتخيل السكر مملوءًا بالدم. ضحك «عجايبي» قائلاً: «لهذا فررت من بعد الجمعة التي تقابلنا فيها؟»، قال عمران: «بصراحة نعم، أنا كنت نظريًا في إجازة لمدة شهر، وطلبت من العقيلي إجازة لثلاثة أسابيع أخرى، فوافق؛ لهذا جئت إلى فندق مكة عند المحطة لأقيم فيه.. وأعرف أنك بالتأكيد اتصلت بي أكثر من مرة. لكن حين تركت المستشفى استمر زملائي في الاتصال بي لكي أحل محلهم في مناوبة ما، وضجرت من كثرة الاعتذار والشرح. شعرت بالذنب للحظة أنني سافرت في إجازة. ثم قلت لنفسي: هذا عملهم وليس عملك، هم الذين يجب أن يشعروا بالذنب لا أنت. لم أجرؤ بصراحة على أن أغلق الهاتف، لكن حين نفذت بطاريته لم أشحنه. وكنت أطمأن على «نسرين» والأولاد كل يوم من هاتف القهوة المقابلة للفندق».

سأله عجايبي:

- فلماذا لم تذهب لتقضي إجازتك مع العائلة الكريمة بعد أن يعودوا من المصيف؟
ردّ «عمران» بصوت هادئ:

- الحاج والحاجة سافرا إلى محافظة مجاورة لحضور فرح أقارب لنا، وسيقيمون أسبوعًا أو اثنين هناك. ولم أشعر أنني بحاجة لقضاء أسبوعين من الشجار الصامت مع نسرين.

شعر «عجايبي» أنه لأمس منطقة مؤلمة فأراد تغيير الموضوع. قال: «أتظن أن العقارب لا تعرف طريق فندق مكة». ثم تكلم بهدوء حين لاحظ امتلاء السيارة بالركاب، قائلاً: «العقارب تسكن الأقصر من قبلنا، نحن العقارب وهم السكان». وأضاف: «إن المرعب ليست العقارب في حد ذاتها، لكن العقارب الغريبة التي تجرفها السيول من مناطق بعيدة إلى القرية؛ فبعضها قد يكون ساماً أكثر من معظم ألوان وأنواع العقارب التي ألفها الناس في البلد».

قال عمران:

- قلت في نفسي.. إن السياح يقيمون في هذا الفندق فربما تُتخذ احتياطات ما.
ابتسم «عجايبي» قائلاً: «الاحتياطات هي نفس الاحتياطات التي يتخذها كل أهل الأقصر». قال «عمران» بحسرة: «اكتشفت ذلك، يأتون بقارورة مياه ويقطعون قاعدتها ثم يلبسونها لرجل السرير، حتى إذا صعد العقرب على رجل السرير فلا يستطيع الصعود إلى الراقد عليه».

امتلات السيارة، وقاطعهم سائقها مستأذناً من «عجايبي» أن ينطلق. تراجع «عجايبي» عن الشباك. قال له «عمران» ومحرك السيارة يبدأ في الحركة: «لم تخبرني ماذا تفعل هنا؟».

رد «عجايبي» مشيراً إلى السيارة التي كان يقف أمامها:

- ماذا سأفعل في الموقف، أنتظر دُوري لأحمل ميكروباصي.
جحظت عين «عمران»، لكنَّ السيارة تحركت فلم تترك له فرصة للاستفسار. دار برأسه ينظر إلى عجايبي، فوضع «عجايبي» يده على أذنه إشارةً إلى الهاتف المحمول. ردَّ عليه «عمران» بهز سبَّابته، دلالةً على أنه لا يستطيع.

أخرج هاتفه من جيبه يحاول أن يشغله لكنَّ شحنه قد نفذ. سأل السائق: «هل لديك شاحن سيارة؟»، فردَّ السائق بالنفي. أخرج له هاتف نوكيا قديماً وقال: «هذا هو هاتفي لا ينفد منه الشحن إلا كلَّ قرن».

ابتسم «عمران» مجاملاً، فرأسه الآن لا يفكر إلا في «عجايبي».

عين «أبو عيشة»، السائق، تراقب علامات القلق على وجهه.. يفرك «عمران» في مكانه، ويضغط على هاتفه أكثر.. بعد عدة دقائق نزل الراكب المجاور للسائق عند محطةٍ ما، فنادى السائق الدكتور «عمران». رفع «عمران» نظره له، فأشار إليه السائق أن يأتي ويجلس بجواره.

اعتذر «عمران» وسط نفخ الركاب. لكنَّ السائق قال:

- تعال يا دكتور، سأحكي لك كلَّ شيء.

سمع «عمران» الكلمة فانتفض من مكانه، واستأذن الراكبين إلى جواره أن يُنزلاه.

ركب «عمران» إلى جوار السائق؛ فقال له السائق مباشرةً إن الموضوع بدأ منذ عدة أسابيع. فأشار إليه

«عمران» أن يُخفض صوته؛ ضحك السائق، ونظر إلى الركاب في المرآة أمامه وقال: «أنت آخر من يعلم يا دكتور، «عزبة جهنم» كلها تعرف قصة الهندسة». نكس «عمران» رأسه وبدأ يسمع للسائق.

سعل السائق وبدأ يحكي له أنه منذ ما يقرب من شهرين سمعوا صريحاَ عالياً يأتي من شقة «عجايبي». تجمع الناس حول الشقة ظناً أن عقرب دقَّ أحد سكان البيت.. لكن فجأة نزل «عجايبي» من البيت ينفخُ ويمضي ناحية المستشفى. سأل فرد الأمن عن شيء ثم انصرف. «أخبرنا فرد الأمن بعد ذلك أنه سأل عنك». قالها السائق وهو ينظر إلى «عمران».

نظر إليه «عمران» متسائلاً عمّا حدث بعد ذلك. قال السائق:

- ما حدث البلد كلها تعرفه، لكن ما سرّ علاقتك بعجايبي؟
انفعل عمران:

- لا سرّ في الموضوع، نتقابل كل جمعة لمدة ساعة نحكي ونشكو حالنا على القهوة المقابلة للمستشفى.

استدار السائق ناحية الطريق. لم توافق الإجابة هواه. لكنه استمر يحكي لـ «عمران» أن «عجايبي» لم يبت تلك الليلة في شقة الزوجية ولا في بيت أبيه، لم يجده أحد لمدة يومين. جماعته اتصلت بأهلها فأتوا وأقاموا معها في الشقة».

سأله «عمران» عن المكان الذي ذهب إليه عجايبي، ومتى عاد؟

ابتسم السائق وانعطف من الطريق السريع إلى طريق أقل اتساعاً: «ما دمت متشوقاً للقصة بهذا الشكل، فاتركني أحكيها ولا تُقاطعي». ضحك الركاب الموجودون في الخلف، فأدرك «عمران» أن آذانهم تشاركها الكابينة.

قال السائق:

- عجايبي عاد بعد يومين، لكن لا نعرف أين ذهب، ولا من قابل.. أغلب الظن أنه أتى إليك في الأقصر.

لاحظ السائق تلمل «عمران» من استطراداته، فقال:

- عاد «عجايبي» وفجأة وجدناه بدأ الوقوف في محل أبيه للحدايد والبويات.. ظل في المحل أسبوعاً أو أقل، لكن ارتفاع الأسعار جعل الحركة بطيئة في كل شيء، فترك المحل. قلنا: إن المشاجرة كانت بسبب نقص المال؛ ولهذا يُعيد فتح محل أبيه المغلق منذ وفاة أمه. بعدها سمعنا أنه أجر قطعة أرض ليزرعها بالنصف من إخوة زوجته. أيام قليلة وعرفنا عن مشاجرة كبيرة بين «عجايبي» ونسيبه، فترك الأرض.

رأيناه يدخل ويخرج من مستشفى «عزبة جهنم» عدة أيام، فعرفنا أن العقيلي عينه فرد أمن. عينه أولاً على البوابة الخارجية للمستشفى، لكن «عجايبي» طلب أن يُنقل للأمن على أحد المكاتب داخل المستشفى. ولا

يوجد مكتب يوجد عليه أمن إلا مكتب «الغرباوي». أسبوعًا والآخر ورأينا يتشاجر مع مدير المستشفى ويقول.. إنه لا يعجبه ما يرى. ادّعى «عجايبي» أن المدير تحرّش بعاملة نظافة في مكتبه، لكنّ المدير أنكر، والعاملة نفسها قالت إنه لم يحدث.

استدار السائق ل«عمران» كي يلفت نظره إلى ما سيقول لاحقًا.

قال وهو يشير بسبّابته نحو نفسه: «أنا أتيت له بالحل...! ذهبت إلى الشاذلي وقلت إن «عجايبي» لن يحتفل الفلاحة، ولن يستطيع التعامل مع الناس. فليسافر مرة أخرى للخليج ويأخذ زوجته وابنه معه. قال لي «الشاذلي»: إن الشركة قد أغلقت تمامًا، حتى فرعها الموجود في مصر أغلقت. حينها قلت له: يعمل معنا «عجايبي» في الموقف».

نظر «عمران» إلى السائق مستزيدًا من الحكاية، فقال السائق: «قلت للشاذلي: بيع المحلّ، وبفلوسه نشترى للولد (ميكروباص) ملكًا له، إمّا أن يؤجّره لأي سائق ويعيش من إيراده، وإمّا أن يركبه هو، يقف في الدور حتى يكتمل تحميل السيارة، يقلب الركاب في الموقف، ثم يقف حتى يُحمل مرة أخرى. لا ينادي على الركاب ولا يدخل معهم في حوار. كل واحد فينا يعرف دوره، والركاب دائمًا يحملون الفكة هنا». تدخّل أحد الركاب من الخلف ضاحكًا:

- لم يعد أحد يحمل أي عملات صحيحة، الفكة هي كل ما نملك حاليًا.

هدأت السيارة سرعتها تمهيدًا لدخول موقف «عزبة جهنم».. نزل «عمران» مسرعًا وانتظر في مكانه. استدار السائق ليعود إلى الأقصر مرة أخرى، وسط لعنات باقي السائقين عليه لأنه سيأخذ دورًا جديدًا في الأقصر وسيحمّل كل الركاب الموجودين في الطريق.

رأى السائق «عمران» واقفًا فقال له: «اجلس على القهوة، وسأخبر الهندسة أنك تنتظره». رفع «عمران» يده شاكرًا، ومشى نحو قهوة مكة.

نادى القهوجي وطلب «أي شيء بثلج».

أخذ «عمران» رشفتين من فنجان القهوة الذي طلبه بعد العصير، وضع الفنجان فرأى الظل يغطيه، رفع رأسه فرأى «عجايبي»؛ قام واحتضنه دون أن ينطق.. لاحظ «عمران» نظرة الجالسين إليها فدفّع «عجايبي» بعيدًا برفق وجلسا.

قال عجايبي:

- أظنك عرفت إذن.

قال عمران:

- عرفت ما يعرفه الناس، لكن لا أعرف الحقيقة.

ابتسم عجايبي:

- ما يعرفه الناس هو الحقيقة، كل شيء حدث أمامهم، وأنت رأيتني في الموقف أقود الميكروباص، فما حدث قبله لا يهم، النتيجة واحدة، الهندسة أصبح سواق ميكروباص خط «عزبة جهنم» - الأ قصر.
قال عمران:

- لكن كيف اكتشفت إنجي؟

رفع «عجايبي» صوته منادياً بكوب شاي ثقيل، وأخرج زجاجة القطرة ليضع قطرتين في عينيه.
ثم اقترب من «عمران» قائلاً: «حين تركتُك يوم الجمعة، آخر جمعة جلسنا فيها هنا، عدتُ إلى البيت.. لم أكد أفتح باب الشقة إلا ورأيتها واقفة مع «يامن» وشنطة ملابسها. قلت لها: إلى أين العزم؟ فقالت: إلى بيت أهلي. قالتها بهدوء أو برود لا أعرف، لكن كان صوتها طبيعياً. قلت: حسناً نأكل ثم آخذك إلى هناك، لكن لماذا كل هذه الملابس؟ قالت لأنها ستطلب الطلاق».

وضع القهوجي كوب الشاي، ووقف قريباً منها يحاول استراق السمع. لم ينطق «عجايبي» ونظر إليه في عينيه فانصرف.
قال عجايبي:

- تعجبت من طلبها وضحكت.. هنا ثارت وارتفع صوتها لدرجة لم أسمعها منها من قبل. قالت: لك حق في الضحك، أنت أستاذ في الضحك، ضحكت علينا جميعاً لسنوات. اقتربت منها متسائلاً، فألقت عددًا من تذاكر القطار في وجهي... تذاكر طنطا - الأقصر، كنت أضعها في جيب الحقيبة التي أسافر بها. أتخلص من واحدة وأنسى واحدة، أحجز العودة لطنطا يوم وصولي للأقصر فأضطر للاحتفاظ بالتذكرة، وهكذا. صوتها جذب الناس، خصوصاً أنه يوم جمعة والمسجد قريب كما تعرف. حين سمعت الطرق على الباب، قلت لها: لا تخرجي من البيت، سأتصل بأهلك ليأتوا.

اقترب منه «عمران» قائلاً:

- لكنَّ السائق أخبرني أنك اختفيت يومين ولا يعرفون أين ذهبت.

ابتسم «عجايبي» قائلاً:

- ذهبت للجبل، قلت أنام فيه يومين.

تراجع «عمران» متفاجئاً:

- الجبل في موسم العقارب؟!!

قال عجايبي:

- الجبل آمن مكان حالياً، كل العقارب هجرته ونزلت لتسكن في «عزبة جهنم»، خصوصاً سكن أطباء مستشفى عزبة جهنم.

ضحك «عمران» قائلاً:

- كلمتك المرة الماضية جعلتني أستنزف رصيد إجازاتي كله، وأنا مضطر للوجود في المستشفى هذه الفترة، فلا تقل هذا أمامي مرة ثانية.

مزحة «عجايبي» جعلت «عمران» يطمئن على حاله.

لكن تلك السلسلة التي تنقل بها بين الوظائف تُحير «عمران».. ربما لم يدرك «عجايبي» بعد ما يحدث له. نظر «عمران» إليه مشفقاً عليه، فهو يعلم أن «عجايبي» لم يدخل مرحلة الحزن بعد، وأنه حتى لو تقبل هو مصيره، فإن تقبله لمصيره ليس المهم، المهم هو كيف ستتعامل معه زوجته وأهلها.

يدخل «عمران» غرفة «إنجي» خائفاً.. هو و«إنجي» وحدهما، وفي غرفة نومها في بيت أهلها.

هي المرة الأولى التي يدخل فيها هذه الغرفة لكن رأسه ثابت على «إنجي».. لا يلتفت لأي شيء آخر، ولا يحاول اكتشاف شكل الغرفة، ينظر إليها ولا يُبالي ب«زينب» التي تحاول جبر خاطر أهل «إنجي».. تحكي لهم ما يعرفونه بالفعل عن الدكتور: أمين ويتقي الله ويعرف كيف يعالج الأرواح الحزينة، وأنهم على مدار أسابيع جربوا كل السبل لإخراج «إنجي» من حُزنها على فقدان ابنها لكن لم يُفلحوا.

هكذا تبرر لهم «زينب» موقفهم.. كيف سمحوا لرجل أن يختلي بابتئهم، لم يسمحوا له بالحديث معها حين أتى يحاول الإصلاح بينها وبين «عجايبي» بعد أن اكتشفت كذبه. لكن مرت شهر، والآن هم يجلسون في الخارج يلبسون الأسود حزناً على ابتئهم المهزومة وحفيدهم الميت.

ينظر «عمران» إلى «إنجي» تبكي بصمت، لا تُصدر صوتاً ولا تحرك جفناً، تتلاحق الدموع على خديها دون حتى أن تمسحها.. تركها حتى تسقط على فخذيها أو يمتصها وجهها.. يعيد خدتها تدوير ما يُمتص فيخلق دموعاً جديدة تسقط من عينيها مرة أخرى.

دائرة لم تنقطع منذ ما يزيد على الشهر.

يسأل الأهل أن يخفف الزمن حدتها، أو تعالجها كلمات المواساة والتصبر؛ وجهها بدأ في الانكماش نحو الداخل فتبدو عينيها كأنها خارج جمجمتها، شعرها رغم هذا الحزن منسدل خلفها؛ الطرحة القصيرة الملفوفة من دون اكتراث لم تخف شيئاً منه.

اقترب «عمران» خطوة أخرى نحوها.. يريد الجلوس إلى جوارها على السرير، لكن «زينب» نبهته إلى هذه النقطة: «لا تجلس إلى جوارها كما تفعل مع الشباب، لا تلمس ذراعها، ولا تُعلّق على شكلها خيراً أو شراً.. تكلم وأنت إلى جوار الباب، كي يطمئن الأهل أنك بعيد عنها، وكي يسمعوا ما تقول.. لا تتكلم بهدوء وتأثر، تكلم بصوت مرتفع وخشن».

الوصايا التي قالتها «زينب» له تبخّرت حين رآها تبكي على السرير.

شفتاها ما زالتا حمراوان.. هل حمرة البكاء أم تلك طبيعتها؟

ها هو السؤال يقفز في ذهنه للمرة الثانية.. هو نفس السؤال الذي أدرك أنه يشغله بعد أن خرجت من طوارئ المستشفى حاملاً ابنها ميتاً منذ شهر، والسؤال الذي برق في رأسه حين رآها تُقبل عليه وهو جالس في غرفة الاستقبال حاملاً جسداً صغيراً بين ذراعيها.

قبل أن تدخل «إنجي» بنصف ساعة كان قد أنهى زجاجة مشروب غريبة قدمها له «فاروق السبع» فاروق نزل للاستقبال لمعاينة حالة تشتكي من أعراض جلطة.. وكان ابن الحالة معرفة شخصية لفاروق. فأخرج ابن الحالة من حقيبته ثلاث زجاجات بُنية قال إنها تُفاح أحمر، أعطى واحدة لفاروق وتناول واحدة وأعطى

واحدة لعمران.

بعد خروج الحالة لعمل أشعة مقطعية، فتح «فاروق» زجاجته، وفتح ل «عمران» زجاجته، لكن ابن الحالة أعاد زجاجته للحقيبة، معللاً بأنه سيسرّبها بعد أن يطمئن على والده.

ضحك «فاروق»، لكن لم يلتفت «عمران» إليهما.. تناول الزجاجاة على عدة مرات، ثم جلس على مكتبه ينتظر الحالة التالية.

دخلت عليه «إنجي» حاملاً طفلها. لم يعرف ما بالطفل، ولم يعرف أنها «إنجي».. كانت «إنجي» التي يعرفها هي الفتاة التي أجرى لها السونار أول حملها؛ نحيلة على عكس عادة أهل الأقصر الذين يميلون لإطعام بناتهم حتى يسمنّ وتستدير وجوههن.

أما التي دخلت عليه منذ شهر فرأى جسدها ممتلئاً؛ الحمل والولادة هما السبب ربما. يقول لنفسه إن الامتلاء أتى بعد النحافة فصنع عوداً منحوتاً ليس بالسمنة المنقّرة ولا بالنحافة المزعجة.. كانت ممتلئة إلى الحد الذي يجعل صدرها يتحرك في أثناء جريها، لكنها نحيفة إلى الحد الذي يجعل حركته كمركب يتهاذى على سطح مياه بحيرة ساكنة.

أنفها كمنقار الصقر؛ دقيق وبه اعوجاجٌ طفيفٌ في مقدّمته.. ينبع أنفها من جبهة عريضة لا شائبة فيها، ليست بيضاء كلبن الجاموس كما وصفتها «زينب»، لكنها أفتح من باقي بنات الأقصر.. اللمحة الخفيفة من اللون الأسود جعلت وجهها حاداً، لكنها غرست فيه إغراء.

الأسود إطارٌ يحدّد لوحة وجهها، يُبرز جمالها أكثر فأكثر.. بياض عينيها بدأ واسعاً ونقيّاً، محاطاً بحاجبين أسودين مرفوعين في نصف قوس؛ كانا غير مرسومين باليد البشرية، بل نحتتها يد الإله ولم تتدخل فيها «إنجي» بأي تعديل.. تحت الحاجبين وفوق البياض رموش غارقة في السواد؛ ليست طويلة، لكن الكحل الموضوع يظهر كأنها تنبت من قاع الجفن فيمنحها طولاً أكبر.

يتعجب من نفسه كيف لم يلحظ كل هذا الجمال سابقاً؟ ولماذا اكتشفه الآن؟

حين وقفت أمام مكتبه بالطفل كانت ترتدي نقاباً، ليس نقاباً تماماً؛ الطرحة التي كانت على رأسها شدّت طرفها ووضعته على أنفها وفمها.. أمسكت إحداهن بالطرف كي يستر وجهها وتفرغت يدا «إنجي» لحمل الجسد المددوغ. أضواء المستشفى القوية جعلت الطرحة كالشبكة واسعة الثقوب.

بدت شفتاها وأنفها من تحتها.. كانت شفتاها شديدي الحُمْرة. لم يدر هل هي حُمْرة الطبيعة التي منحت هذا الوجه الدرجات المثالية من كل الألوان؟ أم حُمْرة صنعتها بمسحوق؟!، أم أن البكاء جعل الدماء تسافر من قلبها إلى وجهها مباشرة؟ ربما هي الدموع التي تمتصها بشرتها هي التي جعلت الوجه بهذا النقاء؟

كانت المسافة من جبهتها إلى شفيتها رحلة طويلة.. أنهكت روح «عمران» وألهبت قلبه. نظر إليها فانزلقت عينه من جبهتها على أنفها.. دفعه أنفها إلى شفيتها فتعلّق بهما.. تعبت عينه فسَمَح لها بالطيران فحلّقت على رقبة طويلة منتصبه كتمثالٍ فرعونى لا هفوة فيه.

رقة دائرية لونها أقل دكأنة من الوجه، فبدت كأنها عنصر مستقل عنه.. منحها اختلاف درجة الألوان إيجاء بأنها أطول، لم تستطع الطرحة أن تُخفي هذا العاج الناعم.. خصوصاً أن طوق العباية التي ترتديها كان مفتوحاً، أو مشقوقاً لتسهيل الرضاعة، فبدت كأن رقبتها تبدأ من نقطة أبعد لا تصل إليها عين عمران.
تصرخ إنجي: «ابني يموت». وعمران يتحرك ببطء وعينه مفتوحة على جسد «إنجي».. يكرر أوصافها في رأسه، ويخلق لوصفها كلمات جديدة.

غضبت «إنجي» من بطء حركته، وبلاهته الظاهرة. فتشير للمرأة التي معها أن تنادي الشيخة «بدور».. تترك المرأة الطرحة لتجري نحو الشيخة الجالسة أمام غرفة الكشف؛

فيظهر شعر «إنجي» أسود مضيئاً كأن لونه امتص شمس الأقصر كلها ولم يعكس أي شعاع من أشعتها، بل حولها لضوء يخرج من رأس «إنجي»، تقف هي حزينة، فيما «عمران» يرى حولها هالة من الضوء تنبعث من الشعر الأسود الذي يتوجها.. عباها سوداء بالكامل، فبرزت كل ألوان وجهها أكثر فأكثر.

تجري بابنها نحو سرير الكشف وتصرخ طالبةً مصل العقرب.. يلف «عمران» رأسه ليراقب جريتها. كانت عباها طويلة فلم تُظهر قدميها وهي ترتفع وتنخفض.. بدت كأنها تطير فوق سيراميك الغرفة. مدت يدها تمسك يد «عمران» لتقرّبه من ابنها أسرع.. يدها دافئة، أو ساخنة.. سخونتها تركت أثراً في قلب «عمران» قبل يده، شعر أن النار التي اشتعلت بداخله تجسدت فصارت هي التي تقبض على يده.

اقترب منها، تلاحمت كتفاهما، فالجسد المتشنج أصغر من الأيتلامسا وهما يقفان حوله. غاص كتفه في كنفها؛ الاستدارة التي تحوي وجهها لا بُد أن مثلها يوجد في بقية جسدها. ليست هذه هي البنت التي رأى لها الحمل. هذه المرأة التي ترك جسده ليستند إليها تبدو كقطعة إسفنجة أو عجين، تحتوي كل ضغطك عليها. قال في ذهنه إنه لو قبض كتفها بيده لتركت أصابعه علامة عليه. لكنه لم يفعل، هناك شيء يمنعه لا يفهمه، وشيء يدفعه لفعل ذلك لا يعرف ما هو.

«إنجي» تصرخ وهي تحمل طفلها. تقول لأمها:

- والله تعبت فيه، والله أخذت فيه ٢٧٠ حقنة.

لم يفهم «عمران» شيئاً، لم يفهم إلا أنه لن يستطيع الاقتراب من «إنجي» أكثر، وأن هناك كارثة تحدث. «إنجي» ترتجف من البكاء، وتردد عبارتها بشفتين مرتعشتين، ويدها تضمان الطفل كأنها تريد أن تضعه في قفصها الصدري.. هناك كارثة بالتأكيد، كارثة يحضرها جسد «عمران»، لكن عقله غير موجود فيها.

الآن يتكرر الأمر، لكن «زينب» هنا هذه المرة، فلاحظت صمت «عمران»، وعينه المعلقة ب«إنجي»، وأهلها بالخارج يتأففون من صمت رجل غريب مع ابنتهم في غرفة نومها.

اختلست «زينب» النظر إلى «عمران» فرأت جسده يميل من الكنبة المجاورة للسريير حتى يكاد يقع، أو أنه

سينتقل للجلوس على السرير. لا تعرف ز «ينب» ما يدور في عقل «عمران»؛ فقطعت الصمت بنحنة بسيطة وطريقة على الباب تُذكره أنه لا يجب عليها التأخر، فبصمة الانصراف اقتربت.

أفاق «عمران» من ذكرياته التي لم يعرف قبل الآن أنها حدثت. حاول التكلّم فلم يخرج له صوت، رفع صوته درجةً تلَو الأخرى، وضغط على أحباله الصوتية مرة بعد الأخرى، حتى خرجت منه كلمة البقاء لله. نظرت «إنجي» ناحية مصدر الصوت.. بدت متفاجئة من وجوده، فلم تلحظه وهو يتسلل تجاهها كالعقرب منذ دقائق.

قالت له: «شكر الله سعيك». ثم أكملت: «شكرًا لك على ما فعلته معنا يومها».

هز «عمران» رأسه نافيًا أنه فعل شيئًا يستحق الشكر.

لكن «إنجي» أكملت:

- لا، بل فعلت كل شيء.. لحظة دخلت عليك الغرفة تأخرت في مساعدتي في البداية، لكن يبدو أنك حين رأيت وجهي وعرفت أنني زوجة «عجايبي» قُمت بسرعة، وجريت ناحية سرير الكشف وفحصت «يامن»، ثم جريت للصيدلية لتُحضر المصل.

نظر «عمران» إليها، تحكي «إنجي» شيئًا غير الذي عاشه.

قال لها:

- أخوض شجارًا مع المستشفى منذ رجعت من الأقصر لتوفير المصل بكثرة، لكنهم أخبروني دائمًا أن هناك ما يكفي. تقول الصيدلية إنهم استخدموا آخر مصل موجود قبل قدوم «يامن» بساعة. ردت إنجي قائلةً:

- والدي حكى لي، الموظفون الذين جاءوا للعزاء حكوا له كل ما فعلته.

«إنجي» تحكي له عن أوقات لا يتذكرها.. هذه الفترة الطويلة التي غرق فيها في وجه «إنجي» حكّت هي أنها حصلت في ثوانٍ.. أين كان عقله بقية هذا الوقت؟

رأت «إنجي» حيرته فقالت له:

- قالوا عنك إنك متواضع وخجول، لكن لم أظن أنه لهذه الدرجة.

نظر إليها «عمران» متسائلًا عمّا تقصد.

قالت:

- ما يبدو عليك الآن من ضيق حين أحكي ما حدث، لكن الحقيقة أن الجميع هنا كانوا ينوون شكرك، وأنا أكثر واحدة أريد شكرك. كنت غاضبة، أشتعل من الغضب، لكن حين أتذكر الصفعة التي صفعتها للمدير تبرد ناري قليلًا، صفعته وأنت تقول له: انظر لحال الناس بدل المخدرات والنسوان.

فُتِحَ الباب ودخل والد «إنجي» يحمل كويين من العصير.
قال وهو ينظر إلى ابنته:

- أعلم أن الظروف ليست ظروف عصير، لكن أمك أصرت.
ثم التفت إلى الدكتور «عمران» قائلاً إنها لم تأكل منذ مدة ولم تتكلم حتى.
قدم كوب العصير لها قائلاً:

- حين سمعتُ أمك صوتك، قالت: أخيراً فتحت فمها، فضعوا فيه كل شيء قبل أن تُغلقه مرة أخرى.
ابتسم عمران!
فالتفت إليه والدها قائلاً:

- في أثناء العزاء وهي تبكي على المرحوم قالت إنها تعلم أن «يامن» في الجنة، وهذا يصبرها.. لكنّ
دموعها لن تتوقف حتى تقتصّ من كل مسؤل كان سبباً في موته بسبب نقص المصل.. وحين أخبرناها بما
فعلته أنت، قالت إنك رددت جزءاً من حقّها وستشكرك بنفسها.
قال «عمران» بنفاد صبر:

- ماذا فعلت أنا؟ أنا لا أذكر ماذا فعلت؟
جلس الرجل إلى جواره على الكنبه وقال:

- حين اكتشفت أن المصل غير موجود صعدت إلى مدير المستشفى وجدته نائماً فصفعته حتى يستيقظ، ثم
جررته على السلم حتى نزل إلى الدور الأرضي، وأمرته أن يُشغل سيارته لينقلك أنت و«يامن» و«إنجي» إلى
وحدة صحية في قرية جوارنا ليأخذ المصل هناك. لكن كان الأمر الإلهي قد نفذ.
أسند «عمران» ظهره إلى الكنبه.

بدأت الذكريات تعود إليه شيئاً فشيئاً.. بدأ يفهم هذا التقديس الذي يُظهره له كل من في القرية في الأيام
الأخيرة. ويفهم لماذا لديه استدعاء للشئون القانونية في الوزارة بعد أسبوعين.
استدار لوالدها قائلاً:

- لا أعرف أين كان عقلي في تلك اللحظات، أنا لا أذكر شيئاً.

أخبره والدها أن العجيب أنه كان يفعل كل ذلك بهدوء.. حين علم بوفاة «يامن»، مشى بهدوء وأخذ
حامل محاليل وكسّر سيارة المدير وسيارة «العقيلي».

ثم ابتسم الرجل ابتسامة خجولة وقال:

- حتى حين حاول «العقيلي» منعك خبطته بالحامل فكسرت ذراعه.

خبط «عمران» رأسه في الجدار، قائلاً:

- الآن فهمت صورة ذراع «العقيلي» المكسورة، التي نشرها على حسابه الخاص، ولماذا حين يراني الناس يرفعون أذرعهم كأنها مربوطة إلى أعناقهم، ثم يشيرون لي بعلامات النصر!

التفت إليه والد «إنجي» قائلاً:

- أنت فعلاً لا تذكر؟ أنا قلت لهم، قلت لهم هو في عالم غير العالم. لم يتعرق جبينك.. ولم ترمش عينك، ولم تتسارع خطواتك.

ثم عدل الرجل جلسته واقترب من أذن «عمران» قائلاً:

- لو كان أحد غيرك لكنت قلت إنه تحت تأثير شيء.

هز «عمران» رأسه قائلاً:

- كنت تحت تأثير شيء فعلاً.

رفع الرجل و«إنجي» رأسيهما في وقت واحد، ونظرًا نحوه.

تلعثم «عمران» قليلاً وقال: «لا أقصد الشيء الذي تقصده يا حاج». ثم وجه كلامه إلى «إنجي» قائلاً:

«شيء مختلف، تعددت الأشياء والتأثير واحد».

نظر «عمران» مرة أخرى إلى الحاج وسأله:

- هل حدث أي شيء آخر في ذلك اليوم؟

تغير وجه الحاج قائلاً: «حدث شيء لا نحبه منك، لكن الناس تغافلت عنه لأجل كل ما فعلته». بلع

«عمران» ريقه، وفكر أنه قام بأي خطوة تجاه «إنجي»، فسأل بخوف: «ماذا؟»،

قال والد إنجي: «حين عدت بعد تكسير السيارة أمسكت بجلباب الشيخة «بدور»، وخبطتها في الحائط..

وقلت لها كلامًا غفرناه لك». سأله «عمران» عمًا قال، لكن الرجل ردّد: «غفرنا لك يا دكتور، واستسمحنا

الشيخة أن تعفو عنك».

طرقت «زينب» على الباب تنادي «عمران» لاقترب موعد مناوبتهما.

قال والد إنجي:

- سأقوم وأدعكما تكملان الحديث، جعل الله الشفاء على يديك.

قام الوالد وأغلق الباب نصف إغلاق، لكن «زينب» شدته وأغلقته كله.

ظل «عمران» صامتًا يحاول استجماع كيف حدث ما يقولونه، وهو لا يذكر، حتى لم تخبره «زينب» أو أي

أحد به.

تنحنحت «إنجي» فنظر إليها عمران. قالت تطمئنه إنها «لم تكن تتخيل أنها ستكون بهذا الصبر والثبات..

لكن إذا نزل البلاء نزل معه اللطف. وأنا أعرف أن «يامن» في الجنة، وسوف ينتظرنى هناك. ولعل هذا أفضل له ولي».

نظر «عمران» إليها دون أن ينطق. عقله غادر الغرفة إلى المستشفى، وسافر بالزمن شهراً للوراء، فهمت صمته أنه يريد أن يُفسح لها مجال الكلام. فقالت: «أفضل لأن الحياة مع «عجايبي» أصبحت مستحيلة. كان «يامن» هو سبب رفض أهلي للطلاق، لكن الآن ربما يختلف موقفهم».

طرقت «زينب» على الباب تنادي الدكتور؛ فانتبه «عمران» من غيبوبته.

اعتذر لـ «إنجي» عن شروده. قال لها بصوت هادئ: «لو احتجتِ إلى أي شيء أنا موجود، يمكن أن تتصلي بي في أي وقت». هزت رأسها ممتنةً.

لكن «عمران» أكمل: «يمكن أن أعطيك رقمي لو احتجتِ إلى أي شيء». ردّت «إنجي» تشكره قائلةً إنها لو احتاجت إليه فسوف تأتي له المستشفى، فلا يصح أن يأتي هو بنفسه لها.

ابتسم «عمران» واقترب من السرير خطوتين، ليبتعد بهما عن أذن زينب، قائلاً: «الموضوع بسيط، عموماً احتفظي بالرقم، لو احتجتِ إلى شيء». تحت إلحاح «عمران» أخرجت «إنجي» هاتفها وسجلت رقمه.

في الطريق إلى المستشفى سأل «عمران» زينب لماذا لم تخبره بما حدث في المستشفى؟ ضحكت زينب:

- سلامة عقلك، تريد أن أخبرك ما فعلته أنت؟

تردد «عمران» حين أدرك غياب السؤال.. حاول الالتفاف على السؤال لكن لم يستطع فسكت. قطعت «زينب» الصمت قائلةً:

- لا تتخف، نجوت من القوم الظالمين.

نظر «عمران» إليها متعجباً، وفتحت «زينب» عينيها قائلةً، بعد أن توقفت:

- لا تجعلني أقلق يا دكتور، الضبع أعطاك حقنة أخرى؟

قال عمران: «أي حقنة؟»، قالت: «لا شيء».

تحجج بالإرهاق وقلة النوم وسألها عن ماذا تقصد بالآية التي قرأتها.

قالت:

- أمس جاء مندوب من المديرية ليحقق في الشكوى التي قدمها «الغرباوي» و«العقيلي» ضدك. هما قدما

شكوى جنائية وأخرى إدارية؛ الجنائية حفظها وكيل النيابة.. لأنه من «عزبة جهنم» ويعرف الدافع الذي جعلك تفعل ما فعلت، كما أنه يعرف كل قذارات الاثنين، فقال إنه لو فتح التحقيق فربما تقول أنت شيئاً عمّا

يفعلانه فيتأذى الجميع.

هز «عمران» رأسه ينتظر المزيد.

قالت زينب:

- أمّا الشكوى الإدارية لاثامك بالتباطؤ في إسعاف طفل مصاب.. جاء مندوب المديرية أمس ليُحقق وينقل التحقيق لزميله في شئون الوزارة كي لا يسافر موظف الوزارة من القاهرة إلى الأقصر.

أشار «عمران» بيده يستعجلها الوصول للنتيجة النهائية. قالت زينب بنفاد صبر: «طلب الرجل تفرغ الكاميرات».

ثم التفتت إليه قائلةً: «أنت بالطبع تذكر ما قلت لك عن الكاميرات»، هز «عمران» رأسه. فقالت:

- تحجج العقيلي بأنها معطلة اليوم، وربما حُذفت ذاكرتها إذا أرادوا تصليحها. فقال الموظف إنه من دون كاميرات لا تحقيق، فتنازل الاثنان عن الشكوى، وقالوا إن التقصير كان من الصيدلية التي لم تُبلغ عن نفاد مصل العقرب؛ ولأن أهل «يامن» لم يتقدموا ببلاغ رسمي أن وفاته حدثت لغياب المصل، فلم ترَ المديرية داعياً لاستمرار التحقيق ما دامت الفترة التي لم يوجد فيها المصل لم تؤدِّ إلى شيء سيء.

وقف «عمران» للحظة ثم سأها:

- يعني الاستدعاء الذي كنت سأسافر له بعد أسبوعين أصبح لاغياً؟

قالت زينب:

- نعم، وحين رأيتك تسلمته ولم تُعلّق، فكرت أنك تعرف سببه. قال: «تخيّلت أنه بسبب يوم تشطيب في البصمة أو شكوى من مريض لأي سبب، وكنت سأذهب للوزارة وأعرف السبب هناك». قالت زينب: «لا، كان سببه ما فعلته في الغرباوي والعقيلي

تحرك خطوة ليكون في مواجهة «زينب» وسأها عن سبب عدم تقديم أهل «يامن» بلاغاً في المستشفى.. ردّت «زينب» بأنهم خافوا من تشريح الطفل، ولم يريدوا تعذيبه.

وصلاً إلى باب المستشفى فلمح القهوة، حيث يتقابل هو وعجائبي.

سأل «زينب»، وهم يخطون نحو بوابة المستشفى الداخلية: «أين عجائبي؟».

تنهدت «زينب».. فاستدرك «عمران» قائلاً بانفعال: «اعتبريني كنت في غيبوبة وأفقت اليوم، وبمناسبة اليوم، ماذا تفعل البنت في بيت أهلها؟».

قالت زينب:

- ندخل المستشفى في التكييف، وسأحكي لك كل شيء.

جلس الاثنان بينهما مقعدان فاصلان، والتفتت إليه «زينب» لتحكي له أنه حين عرف «عجايبي» بخبر وفاة ابنه كان في الأقصر عائداً بالميكروباص. استقبله أهله وأهل «إنجي» وكل البلد أمام المستشفى كي يمنعوه من فعل أي شيء.. لم يخبروه بموضوع غياب المصل، وقالوا إن قدر الله نفذ على كل حال.

بعد الدفنة والعزاء ليلاً، سأل «عجايبي» عن «عمران». أبو إنجي هو من أخبر «زينب» بذلك. فتجمع الناس حوله وحكوا له كل ما حدث وما فعله عمران.. تواعد «عجايبي» أن يقتل الغرباوي والعقيلي، وأن يقتل زوجته التي غفلت عن الولد فدقّه العقرب.

لكنَّ «الغرباوي» و«العقيلي» كانا قد سافرا إلى الإسماعيلية في نفس يوم الوفاة، ولن يعودا، خصوصاً بعد التنازل عن كل الشكاوى، فكانت كل الأحداث الماضية كأن لم تكن، فلا داعي لعودتهما.

قال «عمران» مؤكداً:

- فعلاً لم أرهما منذ ذلك اليوم.

قالت «زينب» وهي تضحك إنّه لم يرَ أي أحد من يوم الحادثة، وإنه لم يفارق غرفته إلا بعد الحادثة بأسبوعين:

- زميلك الضبع أعطاك حقنة مهدئة يوم الوفاة فغرقت في النوم.

سألها «عمران» بعد أن وقف:

- حقنة مهدئة؟

قالت زينب:

- كنت سأحكي لك كل شيء في وقته.. لكنك تريد التقرير كاملاً؛ «فاروق» هو كلب الغرباوي.. الكل يعلم ذلك؛ ولأنهم خافوا أن تتقدم بشكوى أو تحكي ما حدث لأي صحفي أو على الإنترنت قاموا بتنويمك طوال الأسبوعين.

صرخ عمران:

- كنت تعرفين؟

قالت:

- أول مرة أنا من أمسكتك أصلاً.. كنا كلنا متأكدين أنك تعاطيت شيئاً، كنت تكسر وتضرب وعينك منورة كأنك تحلم، ووجهك مبتسم، فحتى لو كنت منفعلًا لوفاة الطفل، كما كنا كلنا، كنت ستبكي أو تلعنهم، لكن أنت كنت في كون آخر.. أمسكتك لفاروق الضبع كي ينتهي الأمر.

وأكملت أنها لم تشك أن هناك شيئاً لأن زملاءه كانوا ينزلون في مناوباته ويقولون للتمريض إن «عمران» هو من يريد أن تكون مناوباته كلها في آخر الشهر.

ولم تعرف «زينب» أن «فاروق الضبع» يعطيه الحقنة يوميًا إلا حين علمت أن «الغرباوي» و«العقيلي» أنها أوراق نقلهما من الأقصر إلى بورسعيد؛ فصعدت إلى السكن كي تبحث عن «عمران» لأن «عجايبي» كان يسأل عنه كل يوم.. وفي كل مرة تخبره «زينب» بأن «عمران» نائم، فيعود في وقت مختلف.

«فظنّ أنك تتهرب من، صعدتُ لأناديك فوجدته يعطيك الحقنة. ارتبك حين رأني وشتمني لأنني دخلت سكن الأطباء».

سألها «عمران» قائلاً:

- وفاروق لم يسافر مع الغرباوي والعقيلي؟

ردّت زينب بأن الضبع مُتعاقد مع المستشفى بعقد خارج وزارة الصحة، ورسميًا هو في إجازة بدون مرتب. هزّ «عمران» رأسه يستفهم أكثر.

حكّت له أن الضبع قبل أن يصبح صديقًا للغرباوي كان دكتورًا بمرتب حكومي، لكن حين اجتمع مع الغرباوي اتفقا على أن يأخذ الضبع إجازة من دون مرتب من الوزارة، ثم يتعاقد الغرباوي معه بصفته إخصائيًا بأضعاف أضعاف مرتبه الحكومي، وبساعات عمل أقل، وسكن أحسن. في مقابل أن يأخذ «الغرباوي» نسبة من المرتب الجديد.

جلس «عمران» مرة أخرى.. ما يسمعه يُشعره بأنه كان في يد عصابة.

قالت «زينب» دون مراعاة لرأسه الذي يشتعل من الغيظ: «نزلت إلى الاستقبال وأخبرت زملاءك؛ فصعدوا وقرروا أن يبقى واحد منهم معك في الغرفة باستمرار، وعلّقوا لك محاليل فيها حقن منشطة كي تُنهي مفعول حقن فاروق الضبع سريعًا».

نظر «عمران» في يده فوجد ثقبًا، ظنه لسعة أي حشرة في البداية، لكنه الآن يعرف أنه مكان إبرة الكانيولا.

قالت زينب:

- لكي يكتمل التقرير وتأخذ وقتك للإفاقة من كل الصدمات دفعة واحدة. حين لم يستطع «عجايبي» العثور عليك، لم يصدق ما حكّيته له حين نزلت من غرفتك.. انصرف غاضبًا منك. وغضب أكثر حين علم أن الغرباوي والعقيلي لن يعودا إلى الأقصر.

بعد الخميس الكبير خرج «عجايبي» بالسيارة ليأخذ دوره في الموقف.. الركاب تهامسوا بالخوف من الركوب معه: أب موتور وزوج هجرته زوجته، تجمع حوله زملاؤه ونصحوه بالراحة هو، وسيضعون واحدًا منهم في سيارته، يعود له آخر كل يوم بالإيراد حتى يفيق من وفاة ابنه.

قام «عمران» متوجهًا إلى خارج المستشفى.

نادته «زينب» تخبره بأن «عجايبي» لم يعد في الأقصر.. أبو «إنجي» له أصدقاء في وكالة سفريات، فرتبّ

لعجايبي وأبيه رحلة عمرة لمدة شهر».
سألها:

- ولماذا لم تذهب معه زوجته؟

ردت زينب بأن «والد إنجي رتب الرحلة أصلاً كي يأخذ البنت عنده مدة حتى تستريح وسط أهلها. خصوصاً حين صفعها «عجايبي» وقال إنها امرأة مهملة وإنما السبب في وفاة ابنها، وهددها بأنها سيقتلها كما قتلت ابنه».

(٧)

بعد أيام قضاها «عمران» في استعادة ما فاتته من أحداث، واستيعاب ما أخبرته به «زينب».. دخلت إحدى العاملات لتُنظف سكن الأطباء.

رأت «عمران»، فاقتربت منه كأنها تنظف الأرضية تحت قدمه.. فجأة رآها تنحني لتقبّل يده فجذبها بسرعة كادت تُسقط جسدها الهزيل.

وسألها متعجباً!! حجبت الدموع والنهضة جزءاً كبيراً من كلامها.. لكنه فهم منه إجمالاً أنها تشكره أنه كان السبب في رحيل «الغرباوي».

جلس على السرير فيما ابتعدت هي ناحية الحمام حين سمعت وقع خطوات قادمة إلى السكن.. أخذت تحرك المساحة المبللة على نفس المكان في الأرضية.

قطع «عمران» الصمت متسائلاً:

- وأنتِ أيضاً؟

رفعت يدها لتمحو دموعها قائلةً:

- ومن سَلِمَ منه يا دكتور؟

ضرب «عمران» كفّاً بكف، وقال: «الحمد لله أنه غار». رددت «صابرين» الحمد وراءه.

دخل «فاروق السبع» السكن.. وجهت صابرين فأدارت دفة الحوار.. قالت لعمران: «الاستقبال مظلم من غيرك يا دكتور».

شكرها عمران.

لم يكد يرد عليها حتى وجدها تخرج من الغرفة ساحبةً الجردل والمساحة.

تمدّد «عمران» على سريره ينظر إلى خشب السرير الذي فوقه، يفكر في احتمالية أن يسقط السرير عليه يوماً بمن عليه، يتنسم لهذا الخاطر فيحمد الله أن زميله الموجود فوقه خفيف الوزن قصير القامة.

يتقدم «فاروق السبع» نحوه.. يتقلب «عمران» ليوأجهه بجانبه دون أن يعتدل.

قال فاروق:

- لا بد أنك عرفت ما حدث.

ردّ عمران:

- أي شيء تقصد؟ لقد عرفت من «زينب» منذ أيام الكثير والكثير، وبعض الأشياء ما زلت غير قادر على استيعابها أو تصديقها.

توجه «فاروق» إلى غلاية الشاي الكهربائية وأمسكها قائلاً: «لهذا طلبت أن يكون جدولك في النصف الثاني من الشهر، وجعلت النصف الأول كله راحة». رد «عمران» باقتضاب: «متأكد يا فاروق أنني أنا من طلب؟».

توجه «فاروق» إلى الحمام ليملاً الغلاية قائلاً:

- كل دار ولها مدار.

ثم خرج بقدمه من باب الحمام ورفع الغلاية أمام «عمران» قائلاً:

- أول ما أتيت هنا كنت أشتري مياهًا معدنية للشرب ولعمل الشاي، لكن مع الوقت بدأ النزول للمحلات يصبح ثقيلًا عليّ، فشربت مرة من مياه المستشفى.
تمشى فاروق بالغلاية ليضعها في الكهرباء وأكمل:

- لم أستسغها في البداية، لكن مع الوقت تعودت عليها، ما دمت أملؤها من مطبخ الكافيتيريا، لن أملك مياه شربي من الحمام.. لكن في مرة وجدت مياهًا في الغلاية فصنعت بها الشاي.. شربته ولم أشعر بشيء..
بالصدفة أخبرني أحد الزملاء أنها مياه مملوءة من الحمام؛ هرولت إلى الحمام لأتقيًا، فقال لي زميل: إن المياه كلها تأتي من ماسورة واحدة، ووجود الصنبور في الحمام لا يعني اختلاف الماء النازل منه.

استدار «عمران» على ظهره وعاد يُخلق في السقف متجاهلاً وجود «فاروق»، رفع «فاروق» كوبه الزجاجي ليضع فيه الشاي والسكر مكملًا:

- الكلام يبدو ممللاً، ولا تعرف ما أقصد به.

قال عمران:

- لا أفكر إلا أن أمسح بك أرضية السكن يا حقير.

قال فاروق:

- ربما معنى كلامي لك أني الآن لست نفس الشخص الذي كنته منذ عدة سنوات حين أتيت لهذه المخروبة أول مرة.. وربما أقول لك إن طبيعة الأشياء تختلف حين تنظر إليها بنظرة مختلفة.. ربما أقول لك أي شيء...

استدار «عمران» ليواجهه قائلاً:

- وربما معنى كلامك أنك مجرد صنبور في مكان نجس استخدمته أيادٍ قذرة لتداري وسخها.

ابتسم «فاروق» وهو يصب الماء نصف المغلي في الكوب.. توجه نحو الباب خارجًا وهو يردد: «ربما أقول ذلك أيضًا، ربما أقول ذلك أيضًا».

بصق «عمران» عليه، ثم اعتدل على ظهره مرة أخرى.

اقترب نصف الشهر من الانقضاء وعليه أن يقضي مناوباته في النصف الثاني، سيعمل كل يوم تقريباً لمدة ١٢ ساعة.

«منه لله فاروق الكلب»، قالها لنفسه وهو يطرق على المرتبة الإسفنجية.

جذبه صوت رسالة على «واتساب». التقط هاتفه ليرى المرسل قائلًا:

- زبون جديد سوف يُوضع في مقبرة الصمت والتجاهل.

فتح شاشة هاتفه فظهرت كل المحادثات بجانبها شعار مُكبر الصوت المكتوم.. رسائل تبدأ ب«يا دكتور»، ولا تكتمل.. ينتظر أصحابها أن يرد عليهم ليبدءوا في سرد ما يطلبون.. لكنه لا يُجيب ذلك.

يُجيب الرسالة الطويلة كفقرات الخطاب في الإعدادية.. مُقسمة، تبدأ بالسلام وتنتهي بالشكر ويتوسطها التماس العذر مقدمًا إذا لم يردّ، وبين ثناياها الطلب صريحًا واضحًا.

فتح الرسالة الجديدة فوجدها قد حُذفت.. تُثير تلك الحركة جنونه، ويأكله فضوله كلما مارسها أحد معه، خرج لشريط الإشعارات أعلى الشاشة ليقرأ الرسالة من الخارج فوجد الإشعار بها قد اختفى حين فتح الرسالة. ألقى الهاتف قائلًا: «خيرًا فعل من حذفها».

قام ليُعد لنفسه كوب شاي.

اقترب من الغلاية فتذكر حوار السبع عن مياه الحمام فراجع.

جلس على السرير، فصنع جبهته بيده. نحو ثلاث سنوات هنا ولم يسأل يومًا عن مصدر المياه التي تملأ الثلجة، ولا التي يجدها دائمًا في الغلاية.

فتح هاتفه ليتصل بزميل من زملاء الغرفة ليسأله عن قصة المياه.. تذكر رعب الأطباء من صوت الهاتف فترك له رسالة على «واتساب».

فتح التطبيق فرأى الرقم الجديد الذي حذف رسالته ما زال موجودًا، أعجبه تكرار رقم ٢ أكثر من ٥ مرات في الرقم.

دفعه الفضول ليرى اسم صاحب الرقم.

بحث عنه في تطبيق آخر فوجد اسم «عجايبي البيت».

استغرب الرقم أولاً، فرقما «عجايبي» مسجّلان لدى «عمران».. وتعجب أكثر لم يتردد «عجايبي» في الاتصال به مباشرةً، أو حتى يحذف رسالته.

استند «عمران» إلى الحائط وقد تذكر أنه قد جاوز الشهر الآن دون أن يكلم «عجايبي» رغم كل ما جرى، ولم يُعزّه. ربما «عجايبي» غاضب منه، وأراد العتاب لكنّ كبرياءه منعه.. قرر «عمران» أن يُنهي هذا الأمر وأن يرسل له رسالة.

- كيف الحال؟

أرسلها وألقى الهاتف فمّن المؤكّد أنّ «عجايبي» مشغول بصلاة العصر في الحرم حاليّاً.
في ثوانٍ جاء الإشعار بالرد. فتح فوجد ردّاً:

- الحمد لله.. يستاهل الحمد.

رأى الطرف الآخر الرسالة، ضغط كثيراً على لوحة الحروف لكن لم يصل لـ «عمران» أي رد، كتب
«عمران» مرة أخرى:

- خير يا عجايبي؟

جاءه الرد سريعاً:

- إنجي

ضغط «عمران» بعصبية على شاشة هاتفه:

- ما بها؟

فأتاه الرد:

- أنا إنجي

ضحك «عمران» وأرسل لها وجهًا ضاحكًا.

كتب لها أنه ظن أنها لن تراسله. ردّت بأنها تفكر في مراسلته كل يوم منذ غادر الغرفة، لكنها لم تعرف
كيف تتجرأ، لكن الآن هناك أمر عاجل تُريد استشارته بخصوصه.

مشى «عمران» نحو شبّاك الغرفة يفتحه، فقد شعر فجأة بأن هواء الغرفة مليء برائحة الفنيك.

كتب لها: «تفضلي». ووضع الهاتف أمام عينه يراقبه.

مضت دقيقتان دون أن يرد إليه شيء، لكن كلمة «يكتب» لا تزال ظاهرة على الشاشة.

أخيراً ظهرت أمامه رسالة طويلة، طويلة للغاية، لم يكن سيقروها لو أرسلتها «نسرين».. هكذا قال في
نفسه ووجه عينه إلى الشاشة يُخاطبها:

- لماذا لا ترسلين جملة جملة كي أجد وقتاً لتجهيز الرد، فربما فهمت ما تقولين عند الجملة الأولى.

كان يكتب لها هذا، لكنه حذف كل شيء ونظر ليقراً.

وجدتها تخبره بأن «عجايبي» سوف يعود بعد أيام من العمرة.. وأهله وأهلها يضغطون عليها بالعودة
إليه. أبوها هو الوحيد الذي يؤيد انفصالها، لكن أمها وكل العائلتين يرفضون الطلاق.. ومع إلحاحها قالوا
إنه سيعود من العمرة شخصاً جديداً فيمكن أن تعود إليه شهراً أو شهرين لتجرب.. لكنهم بالطبع لن
يجربوا «عجايبي» بذلك؛ لأنه ربما يعاند فيرفض الطلاق حين تطلبه.

ردّ «عمران» يُخبرها بأنه إذا كان والدها في صفّها فالبقية هيّنة.

أرسلت له وجهاً ضاحكا وأتبعته تشرح أن الرجال في بيتها رجال فعلاً وكلمتهم سيفٌ، لكن لا تعرف ما يحدث لهم حين تتدخل أمها في أي موضوع.. يشترون خاطر أمها، حتى إذا لم ينفذوا ما تقول، لكن يستغرقون الوقت الطويل لإقناعها بموافقتهم.

ثم أرسلت رسالة منفصلة تقول فيها إن أبها يجب أمها جدًّا، وكل من في العائلة يعرف ذلك، ولو قالوا لها أي كلمة من الكلام الذي يقولونه للستات الأخريات عن ضالة تفكير النسوان أو عدم أهمية رأي الست لوقف أبوها في صفها ونفذ ما تقول عندًا في الجميع.

كتب عمران: «جميل».

يكره الكلام الكثير، لكنه لا يشعر أن كلام «إنجي» كثير في رأيه. رغم أن كلمة راديو تتردد في ذهنه بصوت «زينب»، ويكررها بصوت مرتفع كأنها يهيبى نفسه لمحادثة طويلة.

ردت إنجي: «لا جميل ولا شيء.. أبي يشتري خاطر أمي؛ ولأن هذا ليس من عادة رجالنا، فأمي تشتري خاطر أبي ولا تكسر له كلمة أبدًا. لهذا ندور في دائرة تشبه العجلة الدوارة في مسابقات الحظ، لا نعرف على أي قرار ستوقف».

مشى «عمران» من الشباك إلى السرير قائلاً: «لكل فرد عجلته الدوارة».

ردت عليه بعلامات استفهام، فرد:

«لا تشغلي بالك. المهم الآن، ماذا ستفعلين؟».

ضحكت وأرسلت تسجيلاً صوتياً تضحك قائلة: «جئتك لأعرف ماذا سأفعل؟». وأكملت أنها ترددت كثيراً قبل أن ترسل له، لكنها رأت في عينه في المرة التي زارها شيئاً جعلها تتأكد أنه سيقف في صفها، وأن «عجايبي» حكى لها كثيراً عن الدكتور «عمران»، وعن فائدة آرائه؛ لذلك أرسلت إليه ليساعدها في إقناع «عجايبي» بأن كل شيء قسمة ونصيب، وأن يُنهي الزواج بالمعروف دون مشكلات أو فضائح.

شغل «عمران» الرسالة مرة ثم مرة ثم مرة؛ سمع صوتها قبل ذلك لكنها أول مرة يسمعه في هذا الأمان.. أعاد صوتها لعقله كل خيالاته عن «إنجي»، وتصوّرته عن وجهها الذي رافقه في الأيام الماضية، ربما كان وجهها هو الدافع لكل ما فعل لا الزجاجة مجهولة المحتوى التي شربها مع «فاروق السبع».

تمدد «عمران» على السرير، وشغل التسجيل مرة جديدة.

عاد لواقعه حين سألته «إنجي» في رسالة: «هنا؟».

قال: «بل هناك، في عالم مختلف، في عالم أجلس فيه أنا وأنت وجهاً لوجه، عالم لا تبكين فيه، ولا أقلق أنا من أني أرتكب جريمة في حق الكون وعجايبي ونسرين وأطفالي».

قال الرسالة كمن ألقى قبلة، رمى الهاتف على السرير واستدار على جانبه يتنصت على صوت الإشعار

بوصول الرد.

انتظر ردًا منها على تلك الرسالة. لم يصل الرد، طالت المدة ففتح الهاتف يبحث عن الرد، فلم يجد أنه أرسل الرسالة.

أنته رسالة أخرى منها كتبت فيها: «ربما مشغول، فكر في حل وساعدني، أنتظر ردك». حرك إصبعه على الشاشة سريعًا ليكتب ردًا يخبرها أنه لم يزل هنا. لكنه حذف الرسالة وتنهَّد.. قام واقفًا وقال لنفسه بصوت مرتفع: «ربما هي فرصة ثانية تمنحها لك الأقدار.. لا أحد يدري ماذا كان رد فعلها لو أرسلت إليها الرسالة السابقة».

دخل إلى الحمام وصرع وجهه بالمياه، وجفّف يديه ثم أمسك الهاتف.. كتب لها: «بالفعل مشغول؛ سأرسل لك فور تفرّغي».

بعد عشر دقائق كان «عمران» يمسك هاتفه ويرسل لها أنه متفرغ الآن. لم يلحظ أن الوقت الطويل الذي مر ليس سوى ١٠ دقائق إلا حين رأى موعد الرسالة التي سبقت الرسالة الأخيرة.. سريعًا تحولت العلامات للون الأزرق.. فرح أنها هناك تترقّب عودته. كتبت له: «أهلاً».

ردّ: «أهلاً بك».

كتبت له: «حين أغلقت الحديث معك من دقائق دخلت أمني لتحدثني في الموضوع مرة أخرى.. وحين كررت كلمة الطلاق ثارت وقالت: الطلاق لا».

كتب لها عمران: «أعرف أن الطلاق يشبه الفضيحة عندكم.. وأن فرص المطلقة في الزواج قليلة، لكن موقفك يختلف».

بتلهف سألته: «كيف؟».

كتب: «في حالتك سبب الطلاق معروف، وهو أن «عجائبي» كذب عليك، ووفاة ابنكما، وتلك الصدمات أتى بعضها وراء بعض فبالأكيد لا تستطيعي تحمل كل هذا.. في حالات الطلاق الأخرى يتهامس الناس حول المطلقة أنها هي السبب، ولا بُد أن الرجل رأى فيها ما يعيبها لهذا طلقها».

قاطعته «إنجي» برسالة تقول: «لكن معظم حالات الطلاق تكون الزوجة مظلومة فعلاً».

سجّل «عمران» رسالة صوتية يقول فيها إنه لا يقصد الموضوع عمومًا، هو يتحدث بلسان والدتها، ويريد دعم «إنجي» في موقفها لأن ظروفها مختلفة، وهي شخصيًا مختلفة.

أرسلت له «إنجي» رسالة مسجلة تقرأ فيها الكلمات الأخيرة «شخصيًا مختلفة»، وتسأله: كيف؟

كتب «عمران» لها: «أشياء كثيرة لا يمكن ذكرها كلها».

قالت: «قل بعضًا منها».

أرسل يقول: «صغيرة وسمعتك طيبة وجميلة».

أرسلت الكثير من الوجوه الضاحكة فقالت: «الهم شيبني، والجمال راح، وظل القرد كما هو».

رد «عمران» مؤكداً أنها عكس كل ما تقول، فجها لها لا يزال بادياً ومتألقاً.

شكرته «إنجي» على المجاملة.

رد «عمران» بأنها ليست مجاملة، وأنها جميلة فعلاً.. أجمل من كل بنات الأقصر، وكل البنات التي رآهن في حياته.. جمالها مختلف. ملامح وجهها بريئة لكنها حادة في الوقت نفسه، تبدو كبركان من الحُب مغلفٌ بالخجل.. وأنها ستكون أعظم زوجة في العالم لو كان حظها في زوج يعرف كيف يستخرج هذا الجمال منها، وأن شفيتها شهيتان، تبدوان كقطعة الجمر، تدعوانك بنورهما للاقتراب، لكن حين تقترب تلسعانك بنارهما.. لولا الحزن والظروف الصعبة لكانت أجمل وأكثر بهاءً، لو اهتمت بشكلها قليلاً كما تفعل بنات القاهرة لأقامت الأقصر منافسةً في التحطيب تكون جائزتها الزواج منها.

دخل أحد زملائه الغرفة. سأل «عمران» هل يريد كوباً من الشاي؟

لم يرد «عمران»، ولم يلتفت.. استمر في الضغط على الشاشة.

اقترب منه زميله وكرر سؤاله بصوت مرتفع.

ارتجف «عمران» من الفزع، ونظر إليه صارخاً: «ماذا تريد؟».

تراجع زميله خطوتين للخلف قائلاً: «لا أريد شيئاً، أكمل ما كنت تفعل».

نفخ «عمران»، وأسدل الستارة والملاءة.. يضع طرف ملاءته تحت المرتبة الموجودة في السرير العلوي، ثم يسد لها فتلق الجانب المكشوف من السرير، ثم يستخدم سجادة الصلاة في إغلاق المساحة بين السريرين عند شباك القدمين. لم يبال بسخرية زملائه منه، فقد أعطاه ذلك الحل قدرًا من الخصوصية. على الأقل ألا يشعر بأنه مُراقب في أثناء نومه.

أغلق عليه مساحته الخاصة ثم عاد إلى الشاشة فوجد سطوراً عديدة قد أرسلها ل«إنجي».. كل جملة وضعها في رسالة مفردة. قرأ الرسائل وخطب جبهته؛ «هل كنت غائباً عن الوعي وأنت تكتب؟».

بسرعة ضغط على كل رسالة يحذفها من عند «إنجي».. العلامات الزرقاء حملت خبر رؤية إنجي لها جميعاً، لكنه استمر في الحذف.

فرغ من حذفها وأغلق الهاتف.. «فيها رقبتي»، قالها وهو يتحرك في الغرفة دون أن يحرك عينه من على الهاتف، ينتظر انفجار «إنجي» أو طرقات أهلها على باب السكن.

دقائق مرت ولم يحدث أيهما، لا يجرؤ أن يرسل لها رسالة بعد كل ما قال.. سيكون شاكرًا لها لو صمتت ولم تخبر أحداً.. لكنه يريد أن يقول له إنها لن تخبر أحداً.

بدأت شمس الأقصر في الغروب، ولم يصل إليه شيء.. التطبيق يُظهر أن «إنجي» موجودة عليه.

توافد زملاؤه على السكن تباغماً حتى اكتمل العدد.. يحكون نوادر المعيز، لكنَّ «عمران» في عالم آخر، اقترب منه أحدهم وهو يضحك ويقول:

- تذهب معنا إلى الأقصر؟

«أنا معكم»، قالها «عمران» قبل أن يخبره زميله سبب نزولهم للأقصر.

أول من ارتدى ملابسه، ووقف ينتظر الجميع كالطفل ينتظر الخروج للملاهي. تندروا على استعجاله للخروج وتجهُّم وجهه في الوقت ذاته.

كان «عمران» يريد أن يغادر المكان علَّ الوقت يمضي أسرع خارج «عزبة جهنم».. وربما وصلت إليه رسالة من «إنجي» أو سمع خبراً أن أهلها جاءوا يبحثون عنه في المستشفى فيفر من الأقصر لطنطا مباشرة دون العودة ل«عزبة جهنم»، وملابسه سيُحضرها له زملاؤه.

حرَّك يديه على وجهه، يغسل عقله من تلك الأفكار والخُطط السابقة لأوانها.

وصلوا إلى المطعم، لكن ذهن «عمران» ظل في الغرفة والهاتف. انفعل عليه أحدهم: «ارمي التليفون». صاح آخر: «امسك قائمة الطلبات واختر ما تريد».

لم يرِدْ عمران، لكنه أشار لنوع بيتزا في قائمة الطعام.

فقال آخر:

- ماذا تنتظر بهذا القلق؟

ردَّ «عمران» محاولاً تشتيت زملائه عن أصل قلقه الآن بأنه يعاني القلق منذ عرف الحياة، وأنه ربما البشرية عموماً لم تعرف طعم غياب القلق إلا حين كان الإنسان عدماً. وأنه حتى آدم أبو البشرية لم يعيش بلا قلق إلا في ليلة الطين الأولى. حين كان بناءً أجوفَ قبل أن تدب فيه روح الحياة، أما بمجرد أن صار حياً فقد تعلَّم القلق من الشجرة، ومن إبليس.

قاطع أحدهم زملائه قائلاً:

- المطعم تقريباً لم يعجبك، أو أنت نسيت المحفظة.

ضحك الحاضرون لكن انتفض «عمران» حين أعلن هاتفه عن رسالة.. رآها من الخارج، هي من «إنجي».

لم تزل رقماً لم يُسجَل، لكنه حفظ الرقم في ذهنه، فتحها فوجد رابطاً ما، فتحه فوجد منشوراً في مجموعة لأهل «عزبة جهنم» يشكر في عمران.. ضغط بسرعة للعودة إلى الرسائل ينتظر منها تعقيباً على ما قال، لكن لا شيء.

لم تنطق حتى بخصوص هذا المنشور.. فهم «عمران» الرسالة، لقد أخطأ لكنها تجاوزت عن الخطأ. كتب

لها: «شكرًا»، ردت: «عفوًا». أغلق التطبيق ونظر إلى أصحابه. نادى على أحد عاملي المطعم وطلب عصيرًا ومياهًا إضافةً إلى البيتزا التي طلبها.. نظر بسرعة إلى زملائه يسألهم أي نوع طلب؟ فقالوا له: «طلبت واحدة بشاورما اللحم».

امتعض وجهه وقال: «لا أحب شاورما اللحم». ثم استدار للواقف إلى جواره يستأذنه لو لم يبدأ تحضيرها فسيستبدل بها شاورما الدجاج، لكن لو بدءوا فليضف له أخرى بشاورما الدجاج، ويغلف الأولى ليأخذها في أثناء رحيلهم من المطعم.
سأله زميله:

- ما مشكلتك مع شاورما اللحم، فأنت تأكل لحم الوجبات؟

ردّ «عمران» مبتسمًا أنه في المطاعم لا يطلب سوى الدجاج، لأنه بالتأكيد دجاج.. أما الأكل المصنوع نظريًا من اللحوم وخلطاتها، هناك احتمالية ألا يكون لحمًا، مجرد إضافات، أو لحم حيوان فعلاً، لكن حيوان لا نعرفه.

بادره زميله قائلاً:

- اسكت.. كُلْ وأنت ساكِت.

(A)

يلف «عمران» رأسه بالفوطة. يتأيل نحو سريره، غارقٌ في الحلم لا يريد لواقع المكان أن يُخرجه منه. ارتمتي على السرير وأخرج الهاتف من جيبه.

فتحه فظهرت مباشرةً صورة لـ «إنجي»؛ شعرها مُسدل، تُسافرُ معه عينُ «عمران» حتى يصل إلى أسفل ظهرها بقليل، شعر طويل كالذي يحبه، لكنَّ سواده مع دُكَّانة وجه «إنجي» جعل لها سحرًا خاصًا، لا يستطيع «عمران» إدراك ما هو، يتساءل: كيف لهذا اللون الأسود بتدرجاته المختلفة؟ كيف خُلق هذا الجمال؟! الجمال؟!!

قرب «عمران» الصورة على عين «إنجي»؛ لونها أسود كذلك، فيها جمال وسحر؛ جمالٌ يُكتشف ولا يُرى.. ليست بالموصفات التقليدية للجمال مثل «نسرين».. لا أحد يرى «نسرين» ويقول إنها غير جميلة. لكن يمكن لكثيرين أن يروا «إنجي» ويقولوا إنها غير جميلة. «عمران» نفسه قال إنها ليست بالجمال الذي وصفتها به «زينب». لكنَّ جمالها يبرز كلحظة كشف صوفي، تدرك فيها أن اللون الأسود هو سيّد الألوان، وأن جمال «إنجي» ينبع من روافد مختلفة، وجهها ليس إلا رافدًا واحدًا من تلك الروافد.

سمع حركةً أمام الباب فأزال الصورة عن شاشة الهاتف.. نظر إلى الباب يُراقب من يدخل، فلم يدخل أحد. تزعجه تلك الحالة من الترقب المستمر، وانتهاك الخصوصية الدائم.. أن تشارك الغرفة مع ٧ أفراد آخرين، تعذيب، يساوي الحبس في زنزانة انفرادية.

لهذا لجأ إلى وضع الستارة والملاءة حول سريره، أعجبه منظر السرير وهو يُشبه الخيمة التي تمنع عنه أعين المتطفلين. اللحظة الوحيدة التي أراد فيها تمزيق تلك الأغطية حين دخل «فاروق السبع» عليه الغرفة مرة. لا يستأذن «فاروق»، ولا يكتفي بالجلوس مع الجالسين فحسب، بل يُفتش في كل رُكن، يبحث عن اللاشيء. رأى السرير المحاط بالملاءة والسجادة فقال: «لِمَ هذا الجُحر؟».

انزعج «عمران» من الكلمة، فردّ زميل آخر: «هذا ليس جُحرًا، بل عرين الدكتور عمران». يبدو جيدًا أن يُشبهه بالعرين، لا الجُحر.

ردّ فاروق: «العرين للأسود، أما الدكتور «عمران» فيبدو ذئبًا بشريًا من الذين تحكي عنهم الأفلام والروايات». نطق كلماته بلا مبالاة، لكن انفعال منها «عمران» فقفز تجاه «فاروق» ليدفعه خارج الغرفة.

قام الزملاء فأمسكوا «عمران»، ووجّه أحدهم كلامه إلى «فاروق» بكلمات يُغلّفها الضحك أن الذئاب البشرية في المكتب العلوي.

ضحك فاروق قائلاً:

- أكيد، هل هناك في الحياة أحلى من أن تكون ذئبًا بشريًا؟

أغلق أحد الزملاء الباب خلف فاروق، عاد «عمران» إلى سريره وهو يصرخ:
- معها حق زينب أن تسميك الضبع، وألا تناديك بغير الضبع، حقير وقذر كالضباع.
تطوّع أحد الزملاء ليُغلق الملاءة والسجادة، قائلاً بتهكم: «تفضّل تناول فريستك في هدوء». نظر
«عمران» بغضب، فأشار زميله بيده معتذراً، وعاد لباقي الشُّلة.
تذكر «عمران» تلك الحادثة الآن، وهو يسدل الملاءة ثم السجادة، ليعود للهاتف ويفتح المحادثة التي
دارت بينه وبين «إنجي»، يستعيد التفاصيل التي انتهت إلى أن صارت صورة «إنجي» بين يديه.
شعر في تلك اللحظة أن «فاروق» قد نفذ إلى حقيقته في المشاجرة الماضية، وأن «عمران» في تلك اللحظة
لا يختلف عن الضبع ولا الغرباوي في شيء.
لكن كانت رغبته في استعادة الحديث أكبر من شعوره بالخجل من نفسه، أو بالتفكير في اتهامات فاروق
له.

حرّك «عمران» الكلمات للأسفل كي يصعد للكلمات الأولى، يريد أن يعرف كيف وصلت الأمور إلى أن
ترسل له صورة بشعرها.

كان قلقاً من أن يكون قد سبب لها انزعاجاً، أو الحقيقة أنه كان راغباً في أن يفتح أي باب للحديث، ظل
يقلب في محادثتها السابقة عن أي كلمة تصلح مديحاً لحديث جديد فلم يجد، فلم يفوّت رسالة واحدة منها
دون أن يسهب في الرد عليها.

وقعت عينه مرة أخرى على رابط المنشور ففتحه مرة أخرى. بدأ يقرأ التعليقات فوجد تعليقاً لحساب
يُدعى الأميرة «إنجي»، يشكر في الدكتور عمران.. فتح الحساب فوجده مؤمناً، لا يستطيع إلا الأصدقاء
رؤية ما به. عاد للمحادثة وكتب لها: «أتمنى أن لا يكون رأيك قد اختلف فيّ بعد ما حدث».

بضع ثوانٍ وحذف الرسالة.

وجدتها تكتب فانقبض قلبه. كتبت: «ماذا حذف؟».

كتب: «لا شيء».

قالت: «ماذا كتبت؟».

تردد «عمران» ثم أخبرها أنه رأى حساباً يُدعى الأميرة «إنجي» وأراد أن يسألها هل هو حسابها أم لا.
ضحكت «إنجي» وردت أنه حسابها، أرسلت له لقطة شاشة للحساب.. فتحها فردّ عليها: «طبعاً أنتِ
صاحبة الحساب، مكتوب أنك متزوجة من «عجايبي الشاذلي». ضحكت وقالت: «بالتأكيد».

حضور «عجايبي» فرض الصمت على المحادثة.. لحظات من الصمت، لم يعرف ماذا يكتب. يعصر
دماغه عن سؤال أو جملة لفتح مسار الحديث مرة أخرى. فجأة أمسك هاتفه وكتب لها: «أول مرة أعرف أن

«عجائبي» له حساب على (فيسبوك)؟». ردّت «إنجي» أنه لا ينشر عليه شيئاً، فقط يتابع الأخبار من خلاله. صمت جديد، دائرة ملعونة لا يعرف كيف يكسرها عمران. قال لها إن ذوقها في الأثاث جميل ومختلف، وإنه زار الشقة منذ أسبوعين ليهنئ «عجائبي» بالعودة من العمرة. ردّت إنجي: «أجل رأيتك من وراء ستارة المطبخ». «لم يقل أحد إنك عدت له!».

ردّت «إنجي» أنها عادت تحت إلحاح أمها لفترة، ربما العمرة غيرت «عجائبي». أراد أن يغيّر الموضوع فأرسل يسأل: «تقولين إنك رأيتني من المطبخ؟ أيُّ مطبخ؟». قالت إن مطبخها أمريكي مفتوح على الصالة، لكنّ «عجائبي» أصر على تركيب ستارة لسّتره. «يبدو أنك خفت مما رأيت؟» «لا أفهم؟» «شكلي أقصد».

ردّت ضاحكة: «بالعكس».

صمت «عمران» ينتظر منها المزيد، ولا يجرؤ على الطلب وتحويل المحادثة للحديث عن شكله.. ربما فهمت صمته، فأرسلت مضيئة: «يبدو عليك الوقار». تنحى عمران، وأرسل لها قائلاً: «وقار؟ تتحدثين مع جدك؟». أجابت بوجوه ضاحكة، ثم قالت: «أحلى جدّو». ردّ: «أنا شكلي عجوز؟». ردت: «لا لا لا لا».

وأضافت: «أنت وسيم كأهل بحري كلهم، وفيك هدوء الأطباء وخبرتهم. وشعرك المنقّط بالأبيض من الجانيين جذاب.. وطريقتك في الحديث وحدها تأسر من يسمعك. تبدو أحياناً خارجاً من فيلم كرتون حين تتحدث بالفصحى، وأحياناً من نشرة القناة الثانية حين نسيت وقلت لعجائبي كلمة إنجليزية».

صمتٌ جديد.. كلما حضر طيف «عجائبي» حضر الزوج الغائب في قصة العشق الممنوعة.. تمشّى «عمران» في الغرفة يبحث عن خيط جديد يبدأ به الحديث يمحو أثر حلول «عجائبي» في الكلام.

كتب لها أنه يجب التواصل عبر «ماسنجر»، فيه دفء أكبر. «الواتس» صار أشبه بسنترال لتحويل مكالمات العمل. أرسلت «إنجي» وجهين ضاحكين، وقالت إنها أيضاً تحب «ماسنجر». سألتها «عمران» عن السر.

أجابت أن تأثيرات الوجوه الموجودة عند التصوير ومحادثات الفيديو تعجبها في «ماسنجر» أكثر. وتستخدمها حين تتحدث مع أولاد إخوتها.. كتبت شيئاً ثم حذفته. ظلت تكتب ثم توقفت. سأها عمران: «لماذا تترددين؟».

قالت: «لا شيء».

تحت إلحاحه قالت إنها كانت ستقول إن «يامن» أحب تلك الوجوه أيضاً.. خبط «عمران» رأسه. ذكرتها بابنها!!.

مدّ «عمران» الهاتف أمامه يتأمل رسالتها الأخيرة، اسم «يامن» يضع نقطة نهاية كل شيء.. لا يمكن تجاوزه ولا يمكن أن تصبح المحادثة كلها عنه.

لم يرد عمران، ولم تتوقف «إنجي» عن الحديث.

أرسلت له قائلة إن من حولها نصحوها بأن تتخلص من ملابسه وألعابه وكل ما يخصه.. قالوا إن ذلك سوف يساعدها على التسلي عنه، وسيفيد أطفالاً آخرين حين يرتدون ملابسه أو يفرحون بألعابه. استجابت لنصيحتهم، لم تقتنع، لكن لم تعد أقدر على المقاومة، وأي خسارة بعد خسارة «يامن» مقدور عليها.

استمر «عمران» في صمته، يشاهد الرسائل ولا يتأثر.. يريد أن يغيّر الموضوع فحسب.. يريد شيئاً من «إنجي»؛ وسيرة «عجايبي» ويامن تبعده عن هذا الشيء.

يضغط مجموعة من الحروف ليقول أي شيء ثم يحذفها مرة أخرى.

تستمر «إنجي» في الكتابة بلا توقف.

أرسلت أنها تخلّصت من كل شيء. لكن حين أتى الصيف تذكرت أن هناك شيئاً لم تتخلص منه، ولا تقدر على التخلص منه.

سأها بفضول أكثر منه تعاطفاً: «ماذا؟».

أجابت:

«جرح القيصرية. لسعني في الصيف لسعة شديدة، ظننت أنها دقة عقرب، صرخت فدخلت عليّ أمي لتنظر فلم تجد شيئاً حولي. أشرتُ إلى بطني، فرفعتُ ملابسي فلم تجد شيئاً، أشرتُ أكثر فنظرت إليّ متعجبةً، لكن استمررت في الإشارة إلى ملابسي الداخلية. أنزلتها أمي ببطء، وحين كشفت عن الجرح صفعته، قلت لها: هُنا، هُنا».

حضنتني، لا أدري لماذا حضنتني، لكنها بكت على كتفي، وأنا بكيت على كتفها. خرجتُ من الغرفة ثم عادت بزجاجة زيت زيتون ودهنت لي الجرح، ثم رفعت ملابسي وجلست بجانبني. يوماً بعد الآخر استمر الجرح يلسعني.. ذهبوا بي إلى طبيبة نساء وولادة، فقالت إن الجرح سليم وكتبت لي مسكنات ودهانات».

قاطعها «عمران» قائلاً إن السبب يبدو نفسياً.

ردّت إنجي:

«السبب هو «يامن»، شعر أنني غدرت به، وتخلّصت منه. فأراد أن يقول لي إنه هنا، إن رائحته التي جاهدوا ليتخلصوا منها ملتصقة ببطني، وإن الجرح الذي كنت لا أراه مهما دقت النظر أصبح في عيني الآن كأنه كل جسمي.. يكبر يوماً بعد الآخر حتى سيبلغني».

صمتت «إنجي»، طال صمتها، و«عمران» لا يعرف ماذا يقول. الآن إنجي في منطقتها كطبيب نفسي، لكنه لا يريد أن يعاملها كحالة، يهرب من شبح الفكرة التي تقول له إنه يريد منها شيئاً، لا يريد لرابطة الطبيب والمريض أن تظهر هنا.. لا يريد لأي نزعة من الضمير أن تُعكر المغامرة التي يخوضها.

دار بين التطبيقات حائرًا، حتى أتته فكرة.

أرسل لها رسالة تطبيق مختلف، على «ماسنجر».

رأى صورة الأميرة «إنجي» في فيلم «رد قلبي» ظهرت بجوار الرسالة سريعاً.. ابتسم؛ فقد كانت تبحث هي الأخرى عن طريقة لتجاوز ما حدث، كتبت له: «مرحباً».

ردّ عليها أن كاميرا «ماسنجر» فعلاً أطف، وأرسل إليها صورةً له بتأثير من تأثيراته، أرسلت العديد من الوجوه الضاحكة، ثم أرسلت إليه صورة لها بنفس التأثير.

انتفض «عمران» أمام الصورة؛ ترتدي طرحتها وملابسها ساترة والتأثير يُخفي معظم وجهها لكن ظلت تلك انتقاله لم يتوقعها في الحديث.. فرصة ثانية ليعبر لها عن إعجابه بجمالها.. كتب الكثير ثم حذفه حين تذكر كارثة المحادثة الأولى فاجأته رسالة منها تخبره أن يخبر كل منهما الآخر ما يريد بصراحةٍ وبلا خوفٍ.

ضحك وقال إنه كان يريد إخبارها بأنها جميلة.. ثم أرسل رسالة أخرى تُكمل الأولى «لكن أظن أن هذا ليس شيئاً جديداً عليك». فضحكت قائلةً إنه ليس شيئاً جديداً على «إنجي» قبل الزواج، إما «إنجي» بعده فلم تعد ترى نفسها جميلة؛ الوزن زاد، والوجه تجهم، والروح انطفأت.

بادرها «عمران» بنفي كل ذلك. قال إن وزنها زاد فعلاً، لكنه خلق منها قواماً أجمل.. أخبرها أنها حالياً في مرحلة لذيذة بين النحافة والسمنة. كل جزء من جسمها اتخذ شكله المثالي، وحجمه المثالي. وأن وجهها ليس متجهماً، بل ملامحه دقيقة وحازمة.. الحزم يُضفي عليها غموضاً وحزماً. واستطرد أنه حين يُوضع الغموض والحزم على جسدها فتصبح مزيجاً لا يُقاوم.

ضحكت «إنجي» قائلةً إنه يقول ذلك لمواساتها فحسب.

اندفع «عمران» يخبرها أن شكل الإنسان شيء وتصوّره عن شكله شيء آخر.. أرسلت إليه وجهاً أصفر تبدو عليه الحيرة. اعتدل «عمران» في جلسته.. كتب لها إنه في إحدى التجارب أتوا بمجموعة من النساء طلبوا منهن وصف أنفسهن لرسام جنائي من وراء حاجز، ثم يرسمهن الرسام مباشرةً وهنّ جالسات أمامه صامتات. بالمقارنة بين الصورتين وجدت النساء أن الصورة التي رسمها بناءً على وصفهن لأنفسهن تبدو

كوحشٍ؛ أنفها في خيالها أطول وأكبر من الطبيعي وملاحظها في تصورهما أقل جمالاً بكثير عن الحقيقة.
تهد «عمران» ثم أرسل إليها أنه ربما «إنجي» في خيال «إنجي» هي غير الجميلة، لكن «إنجي» الحقيقية
أجمل من كل نساء العالم.
أرسلت له صورة قرد يُخفي عينيه. تملكه شيء جعله يستمر في الحديث. قال لها: «ربما يمكنك التجربة،
ارسمي نفسك كما تتصورين نفسك ثم ضعي إلى جوارها صورة لك».
ضحكت «إنجي» قائلة: «لا أعرف كيف أرسم». قال لها: «ارسمي أي رسم عام». قالت إنجي:
«سأفعل».

بضع دقائق ووصلت إليه صورة لرسمه كرسوم الأطفال؛ دائرة كبيرة تخرج منها يدان وقدمان. ضحك
«عمران» وقال لها: «هل هذا تصورك عن نفسك؟». قالت: «كرنبة»!

ضحك «عمران» وقال: «الآن ضعيها إلى جوار صورة لك لتري الفارق». غابت وقالت: «فعلت ولم
ألحظ فارقاً». قال لها: «أرسلتها وأنا أظهر لك الفارق». ثوانٍ ووصلت إليه الصورة المرسومة وإلى جوارها
صورة أخرى ل«إنجي» بفستان فرحها عليها شعار محل تصوير موجود في «عزبة جهنم».

قال لها عمران: «هذه الصورة تخفي ملامحك وجمالك». أرسلت «إنجي» علامة الإبهام دلالة على
الاستحسان. ثم قالت: «قلت لهم ذلك. تلك الكوافيرة تصبّ كل العرائس في قالب واحد. أنا شبه بنت
خالتي، وبنت خالتي شبه ابن خالتي لو وضعت له الكوافيرة زينة».

ضحك «عمران» بصوت وأرسل لها رسالة صوتية بضحكته وهو يقول: «لست بشعة إلى هذه الدرجة».
ردت «إنجي» برسالة صوتية تقول فيها إنها تحب الماكياج الذي تضعه لنفسها. وودت لو سمحوا لها بأن
تُزين هي نفسها يوم فرحها. رد عمران: «تبدين واثقة بنفسك». جاءه الرد على هيئة صورة لها؛ شعرها
منسدل ووجهها مزيّن.

كانت شديدة الجمال، أجمل مما تبدو في الحقيقة، وأجمل من صورتها يوم الفرح.

كتب لها: «لا أعرف ما أقول.. أميرة فعلاً».

حذفت إنجي الصورة سريعاً، فأرسل لها يعاتبها.

قالت: «لا يصح». فقال: «ما لا يصح هو أن تحرميني من رؤية هذا الجمال بهذه السرعة».

قالت: «لا تُبالغ».

رد بأنه لا يبالغ.

وصفها بأنها كالشمس، لا يمكنك أن تنظر إليها طويلاً بشكل متواصل. عليك أن تسترق النظر إليها على

فترات. ضحكت وقالت: «سأرسل لك صورة أخرى».

أرسلت له واحدة يظهر فيها كتفها بلا حمّالات فوقه. كأنها صورة عارية الصدر لكنّها قصّتها قبل أن ترسلها إليه.

الخاطر وحده جننه. حفظ الصورة على الهاتف خوفاً من أن تحذفها. رأى الصورة فانفجرت الشهوة بداخله، شهور من الغياب عن زوجته، وعدم التفكير في الجنس عامةً، تكاثفت على عقله. اندفعت الهرمونات فحجبت عقله. أمسك هاتفه وكتب لإنجي رسائل طويلة ومتتابعة.. لم ينتظر منها ردّاً أو يعرف كُنه ما كتب. كان يمدحها، يمدح بشرتها، وعينيها، وشفتيها، وأنفها، وشعرها، وحاجبيها، وأذنها، وحتى السلسلة التي لا يبدو منها إلا السلك وقُصّت الدلّاية.

استمر يكتب.

تتابعت الرسائل وإنجي لا ترد.

في لحظة توقف عن اللهثان وأفاق من شروده.

ذرورة الهرمونات تلاشت وبدأت لحظات الإفاقة.

رأى الرسائل لأول مرة.. يقلّب فيها لا يعرف كيف أعاد خطأ المرة السابقة.. إنجي رأتها جميعاً لكن لم ترد. تنهّد وتنهّد. تحرك في الغرفة وبدأ بطنه يغلي من القلق.. خبط رأسه في جانب السرير العلوي دون أن يتكلم.

انقطعت وصلة جلد الذات بصوت الماسنجر يخبر عن رسالة.

فتحها فلم يجد شيئاً من «إنجي». لم ترسل شيئاً لكنّ التطبيق يستمر في التصفير؛ فجأة بدت أمامه قلوب حمراء على رسائله. تفاعلت «إنجي» مع الرسائل رسالةً تلو الأخرى. وضعت عليها قلباً أحمر. قد أحبّت ما قال.

ضحك «عمران» بعد أن كاد يدمع من القلق.

آخر رسالة هي التي ردت عليها «إنجي». نظر إليها فتعجب من جرأته. يقول لها إنه تمنى لو يرى دلّاية السلسلة. ضحكت وأرسلت له صورة لها وهي ترتدي السلسلة على عباءة سوداء واسعة الطوق. صورة التقطتها إنجي في الأصل لشعرها الغزير.. ضغط على لقطة شاشة كي يحتفظ بالصورة بعد أن تحذفها «إنجي».

مدح صورتها بعبارات سريعة ليصل إلى النقطة التي يريد.

قال إنه يريد رؤية الدلّاية في الصورة السابقة لا في الصورة الجديدة.

كتبت له تسأل: «ما الفرق؟ السلسلة واحدة في الصورتين».

رد عليها: «ليست واحدة، في السابقة كانت خلفية الدلّاية بشرتك الجميلة، أما في الجديدة فعباءة عادية لم تكن تحلم أنها ستوضع على بشرة بهذا الجمال».

ردت «إنجي» بصورة لقرود تُخفي أعينها.

لم يكن ساذجًا، كان يعرف أن كلماته تنزل على عقلها وقلبها كالماء يجري على أرض زراعية تصحّرت بالإهمال والنسيان. تتغلغل كلماته في ثنايا روحها فتُغيبها عن الواجب والأصول، عن الصواب والخطأ.

ردت «إنجي» عليه قائلةً: «ربما في وقت لاحق».

فتح «عمران» عينيه، هل فهمت ما يقصد حقًا؟ هو لا يريد الدلاية، بل يريد بقية الصورة. هل فهمت ما يرمي إليه، أم أنها وافقت دون أن تفهم؟ لم يكن «عمران» يعرف أن الماء قد تحوّل إلى فيضان جرف كل سدود «إنجي»، أزال عنها كل طبقات الدفاع التي تعلّمها وتربّت عليها.

كتب لها بالانتظار.

ردّت: «ليس الآن، سأقوم لتجهيز الغداء».

فكتب: «وأنا سأقوم لأطفئ النار التي أشعلتها».

أرسلت له صورة قرد يُخفي عينيه.

فقبّله «عمران» وقام.

«أنا ست كويسة...»

«عجايبي» طيب، وأنا مخلصه له.

أنا محترمة ومتربية و بنت ناس كويسة».

أرسلتها «إنجي» ثم صمتت.

فتح «عمران» المحادثة في أثناء انتظار بداية يوم جديد تتوافد عليه فيه حالات الاستقبال.

قام من المكتب يعيد قراءة الرسائل مرة أخرى.. فهم ما يدور في نفس «إنجي»، نفس الشيء يدور في ذهنه أيضًا.. يرى أن ما يحدث خيانة، لكنه أيضًا ليس خيانة، يرى الأمر مغامرة لها بداية ونهاية، لكن ليس طبعه أن يغامر، ولا طبع «إنجي» كذلك.

أرسل إليها مؤكدًا أنه يعلم أنها ليست سيئة، وأنها تحب زوجها، وأنها لا تفعل شيئًا سيئًا.. أخبرها أنه أيضًا لا يحاول استغلالها بأي طريقة، فقط يستمتع بالحديث، حديث لا يتعدى حدود الحديث.

أرسلت سريعًا: «أنا متزوجة».

فأجاب: «وأنا كذلك، وكلانا يملك حياة لا يريد تدميرها، وكلانا يملك سرًا قد يُدمر الآخر، مما يجعلنا أنسب طرفين لتحدث معًا، فلن نتجاوز حدودنا، ولا يمكن أن يؤدي أيُّ منا الآخر بما نقوله».

«خائفة».

غادر غرفة الكشف إلى ساحة المستشفى الخلفية، ناداه المرضى، فلم يلتفت إليهم، جلس على سلم الطوارئ الخلفي المهجور.. دقائق قلبه ترتفع، ورأسه ينبض بالأدرينالين. شعر أنه في تلك اللحظة ذئب متكوّر كما وصفه «فاروق»، وأنه يريد الاختلاء بفريسته ليُجهز عليها.

كتب رسالة طويلة، ثم حذفها قبل أن يُرسلها.

تحرك خطوات للأمام، ثم رجعها. يفعل شيئًا خاطئًا، هو يعرف ذلك.

عوده الطب النفسي ألا يحكم على أحد، أن يكون متفهمًا لدوافع الشيطان شخصيًا.

هو لا يحكم على «إنجي»، لكنّه يحكم على نفسه. يعرف أنه يستغل سنوات من الخبرة في الطب، وسنواته الإضافية في الحياة، ليقتنص فريسته.

قاطعت «إنجي» حيرته بعلامة استفهام أرسلتها.

ردّ قائلاً: «أنا هنا، فقط أفكر!».

«تُفكر؟».

كلمة في غير محلها، كأنها ينسج كذبه لتخدير ضميرها، أو ينصب الفخ لنفسه ولها.. اندفع في الكلام

قائلاً:

«لا داعي للخوف، لن يحدث أي شيء، نحن أصدقاء وسوف نبقى أصدقاء، في أي وقت أردت مني أن أرحل أو أن أتوقف عن مراسلتك فاطلبي فوراً، فلتكن المحادثة بيننا واحة نستظل بها في صحراء حياتنا الشاقة».

أرسلت له قلباً أحمر.

تخيّلها وهي سكرانة من أثر ذلك التشبيه، لا يعرف كيف صاغه، لكنه العقل البشري حين يريد شيئاً يفتح أبواباً لم يعرف أحد أنها موجودة فيه، ويُجنّد كل الأدوات التي يمتلكها الإنسان، أو يخترع له أدوات جديدة، فقط لينال هدفه.

ردّت إنجي: «موافقة، نحذف هذه المحادثات والصور، ونبدأ محادثة جديدة كأصدقاء؛ أحكي لك ما أمرُّ به، وتحكي لي. تساعدني بخبرتك على إدارة حياتي، وأسمع لشكواك من أي شيء يزعجك، بالتأكيد أنت منحور من أوضاع كثيرة في شغلك، لكن تمنعك العصافير من الفضفضة».

حذفا المحادثة، ثم أرسل كل منهما إلى الآخر صورة المحادثة فارغة من أي كلام.

ضحكا حين قالت إنجي: «لم يرههم أحد وهم يسرقون، لكنهم رأوهم وهم يتقاسمون الغنيمة».

ضحك «عمران» قائلاً: «لعنة التكنولوجيا، هناك أثر لكل شيء، حتى محو الآثار يترك آثاراً».

قالت إنجي: «تتحدث كأننا جواسيس، ينقص أن نتقابل في شارع مظلم لأسلمك الردود مكتوبة بالخبير السري».

صمت «عمران» أمام تلك الرسالة.

دقيقتان وهو يحاول التخلص من الفكرة التي طرأت في ذهنه، أو حتى صياغتها بشكل مقبول. لكنّ أصوات آلات الثقب المحيطة به تمنعه من الإمساك بالفكرة التي يريد قولها.

أرسلت علامة استفهام، فردّ: «لمّ لا نتقابل فعلاً؟».

أرسلت وجوهاً ضاحكة: «ارتد أنت معطفاً طويلاً ونظارة شمس وغطاء رأس. وأنا سأضع وردة حمراء في رأسي».

لم يضحك، قال: «أتحذّث بجدية!»!

ردت إنجي قائلة: «أتمنى لو كنت تمزح، هذا مستحيل».

ردّ منفعلاً: «لا ليس مستحيلاً، نتقابل في مكان عام تختارينه».

رفضت.

قال لها: «دعينا نخض المغامرة لنهايتها، اتفقنا أنه لا ضرر على أي أحد منا. ولو رآك أحد معي فلن يشك

في شيء، سنقول إننا تقابلنا صدفة، وإنك كنتِ تسأليني عن أمر طبي».

قالت: «وكيف أفسر خروجي إلى الأقصر وحدي؟».

كان سؤالها تعجيزياً، لكنه رأى فيه مفاوضة.. هي لا ترفض المبدأ، فقط تحاول إيجاد حلول لعوائق تظهر. هداً قليلاً وحاول التفكير.. لم يكن يحتاج لكثير من التفكير، لأول مرة يبدو ذهنه حاضرًا بهذه القوة، وبديته متقدمة.

قال: «سأحضر معي تذكرة استقبال، وتتقابل في وقت يكون «عجائبي» في العمل، وإذا عاد قولي له إنك ذهبتِ إلى المستشفى لأي سبب ومعكِ التذكرة. وسنذهب ونعود قبل أن يرجع، وسنلتقي في قلب معبد الأقصر، ليس على خط ميكروबाص عجائبي، وحتى لو صادف وذهب إليه، فهم لا يسمحون للميكروباص بالاقتراب من بوابة المعبد».

«كذاب متمكن». ردّت بسخرية. لم تكن تعرف أنها الحقيقة، وأن زواجها كله قائم على كذبات متعددة من صناعته هو.

ردّ بنفاد صبر: «اتفقنا؟».

ردّت سريعاً: «اتفقنا».

قال: «إذن غداً، الساعة العاشرة صباحاً، سأنتظرك بعد الحاجز الأمني الموجود عند شبك التذاكر».

تُمسك «إنجي» بالهاتف، تريد أن ترسل لعمران وتُلغي هذا اللقاء.. لا تعرف لماذا وافقت على تلك المقابلة، أو حتى تسأله لماذا المقابلة؟ ما الذي سيحدث غير الكلام؟ وهل الكلام نفسه سيختلف حينها عن الكلام الذي يتبادلونه في الرسائل؟

لكنها في النهاية ألقت الهاتف من يدها، قامت لتتحرك في الشقة. تسأل نفسها هل وافقت لأنها تجربة أرادت أن تعيشها لمجرد التجربة، أم أنها تعلّقت فعلاً بشخص عمران؟

كانت متحمسةً لفكرة أن تقابل شاباً دون علم أحد، أحبّت فكرة اختلاس لحظات السعادة كما رأتها في الأفلام.. تسمع من زوجات إخوتها أن إخوتها كانوا ينتظرونهن أمام المدارس، أو بعد انتهاء وردية العمل في الحقول.. تشعر أن هناك شيئاً جذاباً في عالم البنات لم تجربه، جاذبية في الاختلاس المختفي عن الأنظار، ثم يستعيده الأشخاص ضاحكين بعد مرور الزمن.

تهز رأسها لتخرج منه تلك الفكرة. تقول إن «عمران» أكبر منها سنّاً وعِلماً، وإنما فقط تريد أن تستفيد من خبرته كي تُصلح حياتها.

تتمشى في الغرفة متذكّرةً كيف نظر إليها «عمران» حين دخل عليها الغرفة في البيت.

تقول لنفسها إنها رأت في عينه شيئاً أكبر من قصة الطبيب والمريض، أو الرجل الحكيم والبنات الحزينة.

لكن سألت نفسها عمّا قد يُريده من زوجةٍ صاحبه.

شهقت واهتز كتفها تقززاً من فكرة الخيانة، أو أن يكون «عمران» يفكر فيها بهذه الصورة.
قالت إنه لا يبدو عليه أنه من نوع الرجال اللعوبين.. وأنها تسمع عن مستشفى العزبة أنها مملوءة
بالنسوان البطالة فلو أراد السوء فأمامه الكثير.
مشت لمرآة تسريحة غرفة النوم وأصدرت طرقةً بشفتيها وهزّت يديها بعلامة الولوجة قائلةً: «أنتِ يعني
خبيرة في الرجال وأنواعهم! رجلك خدعك ولبسك العمّة».
في المرآة رأت نفسها وابتسمت، قائلةً: «والله حلوة»، وأكملت تقول إنه حتى لو فكر فيها الدكتور
«عمران» بأي صورة أخرى، فهو معذور أمام جماها.
ضحكت لنفسها حين نطقت بتلك الكلمات.. ثم استعادت بالله من الشيطان والجنّ. قالت إن الجن
سوف يتلبّسها لو استمرت في الكلام بهذه الطريقة، والنظر إلى نفسها في المرآة. وقد يعشقها جنّ، ضحكت
بصوت مرتفع حين داهمها هذا الخاطر قائلةً: «معذور الجن»!
ضحكت بدلالٍ وقالت بصوت مسموع: «مجنونة رَسْمِي».

ليلة طويلة قضاها «عمران» مستيقظاً، يحاول النوم فلا يستطيع. ظنّ أنه لا يستطيع النوم من صوت آلات الثَّقب التي تنقب رخام جدران المستشفى، صوتٌ مزعج يطنّ في المبنى بأكمله منذ ثلاثة أيام دون توقف. رخام الحوائط بدأ في التساقط. ظنّ «عمران» أن لجان التفتيش لن تنهون في الأمر، وأن تساقط الرخام بعد سنة أو سنتين من تركيبه سيقلب المديرية ويسجن المقاتل. لكنه اكتشف أن المقاتل نفسه الذي أشرف على بناء المستشفى، يقف مع المدير الجديد يتابعان عملية تشويه المبنى.

يثقبون كل قطعة رخام ٤ ثقب من أطرافها، ويثبتونها في الحائط بمسمار بصامولة وفيشر. مسمار صدئ لم يتكلّف المقاتل شراء مسامير جديدة حتى.. أو تلويها بأي لون يحفظها من التآكل بفعل الصدأ، ويحمي عين الناس من منظرها.

صار المبنى جسداً مملوءاً بالدمامل، تبرز منه بثور معدنية في كل مكان. لم يرحموا مرضى المستشفى صباحاً ولا مساءً، رغم طلب الجميع أن يكون العمل نهائياً فقط، وأن يتوقف العمال ليلاً لراحة المرضى. لكن أراد المقاتل إنجازها في أقل عدد أيام لتوفير أكبر قدر من أجور العمال. وخوفاً من أن يصل الأمر إلى الوزارة، فحين يصل إليهم تصبح تلك المسامير الصدئة أمراً واقعاً يجب على لجان التفتيش التسليم به. ويكون تأكلها فرصة لسرقة جديدة يقوم بها المدير القادم والمقاتل.

غرق «عمران» في تلك الأفكار عن المسامير والمقاتل، أدرك أنه لن يستطيع النوم، ولا حتى أن يرتاح في سريره. زملاؤه بجواره نائمون كأن لا شيء يحدث.

لكن فجأة هدأت الأصوات. فقد توقّف العمال للاستراحة والنوم كي يبدؤوا في السابعة صباحاً مرة أخرى. الهدوء الطارئ أزاح الغمامة عن الفكرة الحقيقية التي تمنع «عمران» من النوم.

تقلّب في سريره عدة مرات؛ فئران التفكير تنهش عظام جمجمته، ويزحف القلق تحت أجفانه، كلما حاول أن يُغمضهم لدغته الفكرة التي يهرب منها. كأنها الطين الذي خُلق منه «عمران» قد عُجن بالقلق. هو الآن لحم ودم وقلق، فقام من سريره إلى خارج المستشفى.. يبحث عن أصوات أخرى تشتت عقله عما يدور فيه. خرج من المستشفى يتمشى في الشوارع المحيطة بها. كانت الشوارع أكثر هدوءاً من المستشفى. ليس بها هذا الطين الخافت الذي يملأ المستشفيات.

لم ينجح «عمران» في الهروب، بل صدمه هدوء الشارع بالسؤال الذي كان يفكر منه.

ماذا فعل؟

هل سيقابل «إنجي» حقاً غداً؟

كيف وصل إلى تلك النقطة؟

يركل الأحجار المتناثرة بقدمه. صفع جبهته مرتين بيده، ثم قرر وضع يديه في جيوب البنطال الذي

يرتديه ليمنعها من صفع وجهه مرة أخرى.

يقول لنفسه أنه لم يكن يرى الأمر خيانة؛ لأنه لا شيء ملموسًا يحدث، مجرد كلمات تدور بينهما، لكن الآن اختلف الأمر، أو على وشك أن يختلف. لقد رتب لقاءً مع زوجة صديقه دون علم صديقه.. سيقابل امرأة أخرى دون علم زوجته. سيجلس مع سيّدة في مكان ما دون أن يكون لقاءً مُسببًا بحاجةٍ ما، سيقابلها؛ لأنها امرأة، وستقبله لأنه رجل.

اقترب «عمران» من جدار أحد البيوت وأسند ظهره له.. خبط خلفية رأسه في الجدار، يفكر «عمران» أنه كيف وصل إلى مرحلة الحيرة بين هل هي خيانة أم لا. كيف تغيّرت شخصيته حتى أصبح يختار فيما كان واضحًا بالنسبة له سابقًا. يشعر أنه الآن «عمران» آخر. ذئب كما وصفه «فاروق».. يخبط رأسه في الجدار وهو يسأل نفسه كيف يرى الأمور متشابكةً ومعقدةً، وهي في الحقيقة أبسط مما يُوهم نفسه. هو الآن خائن، وعلى وشك لقاء لا تعريف له إلا الخيانة.

تنهّد «عمران» بضع مرات يحاول أن يطرد تلك الحيرة مع هواء الزفير، لكن الحيرة كانت أعمق مما يتخيل.. حيرته جاثمة في أعماق قلبه، وبين ثنايا مخه.. أخطبوطٌ تمسك بكل أذرعه بروح عمران، يأبى أن يغادر بسلام. إما يقتله عمران، أو يقتل الأخطبوط «عمران» الذي يعرفه الجميع. يرفع «عمران» صوته قائلاً أنه يريد أن يقابل «إنجي» فحسب، لم يكن يفكر في أي شيء سيئ لحظة اقترح اللقاء.

«قتل عمد أو قتل خطأ» صدمه عقله بتلك الجملة. ردّها «عمران» بصوتٍ عالٍ مضيئًا: «في الحالتين قتل».

صمت «عمران» فجأة حين وطأت قدمه حفرة بها مياه راكدة. انغrust كلتا قدميه في البركة.. رائحتها توحى أنها مياه صرف صحي. أضواء كشّاف الهاتف فوجد بلاعةٍ صرف تطفح منها المياه على بعد متر أو اثنين. أخرج قدميه بعصبية ونفضهما في الأرض، علّه يزيح ما علق بهما من الوسخ والرائحة قائلاً «ليلة طين من أولها»

الشمس بدأت في الصعود، وعينه لم تُغلق بعد.

عاد للمستشفى، حركة العمال وجرّهم للشكائر المملوءة بالمسامير استعدادًا ليوم عمل جديد بدأت توقظ النائمين. توجه «عمران» لحمام السكن ليغسل جسمه علّ الماء يسحب معه تلك الأفكار ورائحة المجاري.

نظر في المرآة إلى وجهه، يحاول معرفة ماذا يحدث؛ هل سيقابل «إنجي» حقًا بعد ساعات؟ وماذا سيقول أو يفعل في المقابلة؟ وماذا بعد المقابلة؟ هل سيكون لقاءً آخر؟ هل سيكون لقاءً التالي في مكان عام جديد أم سيبحثان عن مكانٍ مختفٍ عن الأنظار بذريعة البُعد عن عين «عجايبي» والناس؟

دقّ النظر في المرآة، كانت مرآةً جديدةً وضعها المدير الجديد؛ مرآةً أوضح من اللازم، تُظهر ملامح «عمران» مُكبّرةً وقبيحةً. ليس هذا انطباعه عن وجهه، ولا عن ملامحه. بدأ يتحسس وجهه بأصابعه، يسأل

نفسه هل هو هو؟ أم أن الأيام الأخيرة منحته تلك الملامح القبيحة لتناسب الشخصية التي آل إليها. وضع يده على خده يتحسس خشونة الشعر النامي في لحيته. حركها على خده صعودًا ونزولًا. ثم بدأ يصفع نفسه مرةً بعد الأخرى.. تزداد القوة مع كل صَفعة، حتى أتت صَفعة قوية، تبعها بصرخة قائلاً: «لن تُقابِلها».

مدد على سريره وقد منحه القرار الجديد بعض الراحة. قال لنفسه أن هذا اللقاء لا يصح، وأن «إنجي» غالبًا لن تأتي للمقابلة، ولن يستفيد شيئًا من ذهابه إلا أنه سيفقد ثقتها للأبد، ويُخيفها منه. أغلق عينيه راح في النوم كما يبدو. رنّ المنبه الذي ضبطه على التاسعة صباحًا، ونسي أن يُطفأه بعد أن قرر أنه لن يخرج للمقابلة. أطفأه مباشرةً مجرد أن صدر منه الصوت. لم يكن نائمًا بالعمق الذي توهمه، ربما لم يكن نائمًا من الأصل. قام...

دون تفكير ارتدى ملابسه، وتوجّه إلى معبد الأقصر قائلاً لنفسه: «لن يحدث شيء، نظرة سريعة خارج عجلة الهامستر ثم أعود للقفص. مغامرة واحدة لمرة واحدة في العمر. الدنيا لن تُهدم من لقاء عابر بين «عمران» الغلبان وامرأة من الأقصر».

اقتربت الساعة من العاشرة والنصف.. لم تظهر «إنجي» ولا ترد على رسائله.. ليست عاداتها، خصوصًا أن «عجايبي» ليس موجودًا في المنزل. ربما انقطع الإنترنت، لكنها أخبرته أنها لديها باقة إنترنت على هاتفها.. يس من الانتظار فقرر أن يرنّ عليها. سيقول إنه أخذ الرقم من «زينب» لو ردّ عجايبي، وسيخبره أنها قالت له إن هذا رقم آخر لعجايبي يطلبه عليه الناس لو أرادوه في مشوار مستعجل. حاول أن يرى شيئًا من شاشة الهاتف فلم يستطع. الشمس الساطعة تجعل رؤية الكتابة في الوضع الليلي للهاتف أمرًا مستحيلًا. ضغط بعشوائية على الشاشة يحاول الوصول لمكان رفع إضاءة الشاشة فلم يستطع، توجّه إلى ظل أحد الأعمدة الكبيرة وهو يلعن نفسه لأنه لم يشتري لنفسه هاتفًا حديثًا يُوقلم الإضاءة تلقائيًا مع الأضواء المحيطة.

رفع الإضاءة أخيرًا، وضغط على زر الاتصال.

صوت «إنجي» من الجهة المقابلة أتى محاطًا بأصوات الميكروباصات، وكلمات بلغات مختلفة.

صرخ يسألها أين هي؟ فردت أنها أمام شبك التذاكر وستدخل حاليًا.

دخلت عليه مرتديةً نقابًا أسود، وعباءة سوداء. شعر بالحرّ ينهش جسده، لكنه تذكر أن من ترتدي الأسود هي لا هو.

سألها عن سبب التأخير، فقالت:

- هات تذكرة الاستقبال.

مدّها «عمران» لها وهو ينظر في عينيها، الجزء الوحيد الظاهر له منها.. كانت عيناها حمراء يبدو عليها الإرهاق، سألتها: «عينك بها مشكلة؟»، أجابت نافيةً، وصمتت بضع ثوانٍ، قالت بعدها إنها فقط لم تنم.

زَمَّ «عمران» شفّتيه وهزَّ رأسه. يبدو أنها خاضت صراعاً كالذي خاضه.

ولا يريد أن يفتح هذا الباب على نفسه، ولا عليها، فسألها يحاول تغيير الموضوع عن سبب تأخرها.

أجابت بأنها انتظرت «عجايبي» ليعود من موقف الأقصر كي يأخذ هاتفها للتصليح.

سألها: «هل لديها أكثر من محمول؟» فأجابت:

- لا، هو هاتف واحد، لكن أخذه للتصليح لأنه يفصل كثيراً دون أن تكون البطارية خالية من الشحن.

هز «عمران» رأسه مستعجلاً توقّفها عن الحديث، قائلاً:

- كيف كلّمّتيني الآن؟

أخرجت من «بوك» صغير في يدها هاتفاً قديماً، قائلةً:

- هاتف أمي، أخذته ووضعت فيه الخط.

سألها «عمران» بعصبية:

- يعني تليفونك الآن مع عجايبي؟

لم تسمعه إنجي، تقف بعيداً عنه بمسافة تكفي لعبور فوج سياحي.

اقترب منها فابتعدت للخلف، لم يبال «عمران» بابتعادها فاقترب أكثر. قال وهو يتحرك نحوها قبل أن

تُضَيِّع هي الخطوات التي مشاها بالابتعاد أكثر:

- يعني تليفونك الآن مع عجايبي؟

قالت:

- نعم. اتصل بي منذ نصف ساعة، والحمد لله كنت في البلد لحظتها، أخبرني أن فنيّ الموبايلات أخبره أنه

بحاجة لبطارية جديدة.

قال بنفاد صبر:

- يعني تليفونك حالياً لا يعمل؟

ردّت بهدوء قالت:

- لا، فنيّ الموبايلات قال لعجايبي إنه سيكبس البطارية بقطعة ورقة صغيرة، وخرّش نحاسات البطارية

ونحاسات الهاتف بمشّط، والهاتف يعمل مؤقتاً حتى يجد له بطارية تناسبه.

كان هدوءها مربكاً لعمران، إما أنها ليست بريئة كما أخبرته وقلبها لا يتأثر، وإما أنها بريئة فعلاً ولا تُدرك بعد حجم الكارثة.

قال لها مكرراً:

- يعني تليفونك الآن مع عجائبي؟ وتليفونك الآن سليم ويعمل؟

ردّت باستغراب لإصرار «عمران» على الحديث عن الهاتف، قالت:

- نعم هو مع سي زفت، ونعم هو الآن زفت. لكن البطارية كانت شبه فارغة أصلاً، وأخبرني «عجائبي» بأنها أضاءت الهاتف بعد أن كبسه الفني، لكنها فصلت، فأخذ الهاتف في جيبه وسيشحنه في الموقف كي يتأكد أن حل الفني جيد، وإلا سيذهب به إلى محل آخر.

ثم قالت لعمران:

- لا تخف أنا حذف كل شيء قبل أن أعطيه له.

ثم لطمت خدها فجأة قائلة:

- أرسلت لي حاجة الآن؟

فرك «عمران» يده قائلاً:

- أجل أرسلت أستعجلك، وأسألك أين أنت؟

لطمت خديها، قائلة:

- يا مصيبي، يا نهار أسود.

التفت إليها مجموعة من السياح، فاقترب «عمران» منها وسحبها نحو الظل مما تصوّر أنها يدها لكنه اكتشف أنها مساحة إضافية متكورة من القماش الأسود. قالت له:

- ما العمل؟ ما العمل؟

قال لها عمران: «اهدئي، أليس له كلمة مرور؟»، قالت: «نعم له، لكن «عجائبي» يعرفها طبعاً. ولا أستطيع تغييرها، لهذا أحذف المحادثات في كل مرة أقوم فيها لأفعل شيئاً في المطبخ، أو حين النوم. وأضع الهاتف تحت مخدتي وأنام فوقه كي لا يستطيع أخذه، وفي نفس الوقت لا يشك أنني أتعمد إخفاء شيء عنه بتغيير كلمة المرور».

مسح «عمران» وجهه. العرق ازداد رغم أن حرارة الشمس ثابتة.

فتح هاتفه قائلاً:

- الرسائل عندي ظاهر أنها لم تصل بعد إلى هاتفك لأنه غير متصل بالإنترنت، سألغي إرسالها كلها.

قالت:

- حتى لو فعلت ستصل إليه رسالة أن «عمران» أرسل رسالة لي وحذفها.
أجابها سأجيبه:

- أنك نسيت شيئاً في أثناء الكشف وأرسلت لك أبلغك به، لكن حذفته وقلت سأقول لعجائبي ولا
يصح أن أرسل لحريمه.
قالت:

- لكن رسائل المعاكسات أو الرسائل التي تصل لأول مرة من أشخاص لا تعرفهم تذهب إلى الرسائل
المُهملّة، فما معنى وصول رسالتك إلى المحادثات مباشرة؟
نفخ «عمران» قائلاً:

- عجائبي لن يُحقّق كأنه ضابط مباحث.
أشارت بيديها تُولول قائلةً:

- أنت لا تعرف «عجائبي» مؤخرًا.
خبط «عمران» جبهته، قائلاً:

- كيف لم نفكر في هذا الحل؟
فتحت «إنجي» عينيها تراقب الحل.

قال عمران: «ببساطة تدخلين إلى حسابك من هاتفي، وتستقبلين الرسائل وتحذفين المحادثة من عندك».
خرج «عمران» من حسابه، وقدم لها الهاتف. حاولت الكتابة على الشاشة فلم تسعفها يداها المغطاة
بالقفازين. خلعت أحدهما وبدأت الكتابة، فأخبرها الموقع أن كلمة المرور غير صحيحة.. لطمت إنجي
وقالت: «عجائبي رأى الرسائل وغير كلمة المرور». خطف «عمران» الهاتف من يدها، وعاد لحسابه فوجد
الرسائل لم تصل. أعاد الهاتف لها، فحاولت الكتابة لكن ارتعاشة يدها جعلتها تضغط على حروف وأرقام
غير التي تريد. فقدمت الهاتف لعمران بكلتا يديها قائلةً: «اكتب أنت».

ابتسم «عمران» قائلاً:

- بهذه السهولة تعطيني كلمة مرور حسابك؟!
صرخت إنجي قائلةً:

- والنبوي والنبوي، اكتب بسرعة والنبوي.

أشار إليها بيده لتهدأ واستعدّ للكتابة. قالت:

- اسم المستخدم رقم الواتساب معاك، وكلمة المرور هي (يامن ١٩١٠).

فتح الحساب فوصلت الرسائل. أراها «عمران» إياها وهو يحذفها. ثم خرج من حسابها. تنهّدت إنجي، وجلست على الأرض. أمسكها «عمران» يحاول رفعها، فقالت: «اتركني». قامت بمفردها، ولم تنطق، وسحبت عباءتها وجرت إلى خارج المعبد.

في غرفة النوم رائحة عطر، شمّها «عجايبي» وهو يبدّل ملابسه في الغرفة، اتجه إلى إنجي وهي في المطبخ فوجد الرائحة نفسها. احتضنها من الخلف فنفرت منه.

صرخ فيها يسألها: «لماذا تعطرت إذن؟»، قالت: «لنفسى».

خرج «عجايبي» من المطبخ يضرب جلبابه بيده قائلاً: «للصبر حدود يا ست الأميرة». لم تلتفت له «إنجي»، لكن حين خرج أسندت ظهرها للحائط وبكت.

صوت الطبخ الذي مزّقه الغليان أخرجها من حالة الصمت فقامت لتطفئ النار.. وضعت أطباق الطعام على الرخام المفتوح بين المطبخ والصاله.. نادى لعجايبي أن يحمله عنها.. رفض وقال:

- تعالي به، لن أقوم.

أقسمت هي الأخرى أنها لن تحمل الطبق إليه.. انتفض «عجايبي» من مكانه حين سمع القسم. قام إليها وأمسكها من شعرها: «وقال ماذا حدث لك؟ لم يكن هذا اتفاقنا حين عدنا». صرخت إنجي: «أنا لم أتفق معك على حاجة، اذهب إلى من اتفقوا معك».

نصف ساعة وامتلاً البيت بأهله وأهلها.

خاطب «عجايبي» أمها قائلاً إنها وعدته أن «إنجي» تحسنت وحالتها أصبحت أحسن.

قالت الأم وهي تنظر إلى والد إنجي:

ألم تكن البنت في أحسن حال؟

هز أبو إنجي رأسه مؤكداً كلامها، ثم التفت إلى «عجايبي» وقال له:

بعد أن عدت من العمرة قلنا إنك إنسان جديد، وحين طلبت زوجتك لم نمنعها عنك.

قاطعته عجايبي:

بل منعتوها.

تدخلت أمها قائلة وهي تغمز بعينها:

- لا، هي طلبت أسبوعاً زيادة تقضيه معنا كي تأتيك في أتم صحة وأحسن صورة.. الأسبوع الذي عدت أنت فيه قضته البنت معنا؛ لأن وجودها هنا معك وأنت عائد من هذا السفر الطويل كان سيؤذيك أكثر.

فهم «عجايبي» تلميحتها، فسكن قليلاً.

عاد لانفعاله قائلاً:

- لكن يا خالة لا الأسبوع الأول ولا الثاني كانت لهما نتيجة.

تنحنح الأب، وتلملم الإخوة. أشارت الأم لعجائبي أن يسكت. ثم قامت.
دخلت الأم لـ«إنجي» فوجدتها في غرفتها تضحك وهي تنظر إلى الهاتف. وبّختها قائلة: «زوجك يغلي من الغضب والشوق وأنت تضحكين!». ردّت «إنجي» أنها لا تريد سوى الطلاق، لم تعد تحتل الحياة معه.
مدّت الأم يدها لتغلق فم ابنتها. أنزلت «إنجي» يدها وقالت بصوت مرتفع:

- لا أريده.. كذب عليّ وعليكم، والرابط بيننا وبينه في الجنة الآن.

نظرت الجدّة إلى الأرض، وسكنت «إنجي». ذُكر «يامن» جعل الدموع تكسو العيون الأربع.

أطلق الهاتف صافرة الإشعار بالرسائل. قالت لها أمها: «ماذا تفعلين عليه كل هذا الوقت؟»، ردت إنجي قائلة: «حدث موقف سخيف بيني وبين صاحبتني التي أحكي لك عنها، وانقطعنا عن الكلام عدة أيام، لكن تصالحنا الآن، وننذكر الموقف ونضحك على حالتنا العجيبة وقتها».

أشاحت أمها بيدها قائلة:

- مرقعة بنات.

لم تبال «إنجي» وفتحت الهاتف لترى ما فيه وبدأت في كتابة رد. صوت الصافرة جعل «عجائبي» يقوم من مكانه. قال لوالدها وإخوتها:

- المخروب لا يفارق يدها ليلاً ولا نهاراً.. تدخل به الحمام، وتنام وهو تحت رأسها.. أخرج من الفجر للموقف فأجدها متيقظة تنظر إليه، أعود بعد العشاء فترزع لي الطعام وتقول إنها بحاجة للنوم. أدخل فأجدها تستخدمه.

قام والدها يربت على ظهره قائلاً:

- أعرف أنها تعلقت به في الأسابيع الأخيرة.

أجلس الرجل «عجائبي» وجلس إلى جواره على الكنب، ثم استطرد قائلاً:

- إنجي لا تخرج، وصاحبتها التي تُحدثها هي من أخرجتها مما كانت فيه. هي من جعلتها تقوم من سريرها وتمارس حياتها. عادت وردة تنبض بالحياة بعد أن اقتربت من الموت حزناً.

قال «عجائبي» بانفعال:

- صاحبتها تشرفنا هنا.

قال أحد الإخوة:

- يعني المطلوب من بنت الناس أن تأتي إلى بيت رجل غريب.. ترضى زوجتك هي من تذهب إليها؟.

رد «عجائبي» فوراً: لا.

قال الأب بنبرة هادئة:

- كل واحد يخاف على حُرْمته، والهاتف حلّ المشكلة.

ثم قام متوجّهاً إلى الغرفة ليتحدث من وراء الباب بصوت مرتفع مخبراً «إنجي» أن عليها التقليل من استخدام الهاتف والاتفات إلى بيتها وزوجها وحقوقه.

بعد أسبوعين من تلك الجلسة، لم يتغيّر شيء، فقرر «عجايبي» أن يشكول «عمران».

على القهوة في ليلة الجمعة قال «عجايبي» متحرّجاً من فتح الحوار مع رجل آخر، إن جماعته أحسن، لكنها ليست أحسن معه.. اقترب القهوجي بمشروبهم فأخذها «عجايبي» متعجلاً وأبعده عنهما.

جفل «عمران» من فعل عجايبي، فقال «عجايبي» له: «قم».

تردد «عمران» فجذبه «عجايبي» من ذراعه وقاده إلى الميكروباص. قال «عجايبي» بانفعال: «اركب».

ركب «عمران» وركب «عجايبي» فانطلق بالميكروباص.

أغلق «عجايبي» كل نوافذه، حتى شبك الكابينة أغلقه. نظر إليه «عمران» وقال: «الجو خائق بما يكفي».

لم يرد عليه «عجايبي». أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها. قال عمران: «لم أعرف أنك تدخن». رد «عجايبي» بعصبية: «لا أدخن، لكنّها عادة من أيام الخليج أحرق بها غضبي بدلاً من الانفجار في وجه الكفيل».

ابتسم عمران، لكنّ نَفَخَ «عجايبي» دخان السيجارة كان قوياً فسعل.

نظر إليه «عجايبي» مغتاضاً من سعاله ثم فتح شبك السيارة وألقى السيجارة قائلاً: «رمينا المحروقة».

لم يَتَجَبَّحْ «عمران» إلى مزيد من التفاصيل ليعرف أن «عجايبي» يحمل عبئاً ثقيلاً، لكنّ كرامته تأبى البوح به. ليثقب «عمران» هذا السد المتين الذي يُخفي وراءه «عجايبي» طوفان همومه قال له وهو يضحك إن حالته تشبه حالات الرجال حين يأتون بشكوى تتعلق بالعلاقة الحميمة مع زوجاتهم.

نظر إليه عجايبي، فاستطرد «عمران» حين شعر أنه لامس ما يريد عجايبي، وقال: «يأتي الرجل يتشاجر مع أفراد الأمن والتمريض، ويتشاجر معي، ويشكو من أي شكوى غير منطقية، ليقول لي في نهاية الكشف إن لديه صديقاً يهمله أمره عنده مشكلة كذا وكذا».

قاطعه «عجايبي» قائلاً:

- خيانة.

الكلمة أحرست «عمران» و«عجايبي». لم تكن حقيقة حتى نطق بها «عجايبي». خبط على مقود الميكروباص عشر مرات متتالية. أحصاها «عمران» لأنه كان يتوقع أن يد «عجايبي» ستلف حول عنقه في كل مرة يرفع فيها يده.

تنحنح «عمران» وسأله هل رأى شيئاً؟

قال عجايبي:

- رأيت أشياء.

بلع «عمران» ريقه بصعوبة قائلاً:

- ماذا رأيت؟

انعطف «عجايبي» بقوة من يسار الطريق إلى يمينه. أوقف الميكروباص وأضاء أنوار الانتظار ثم التفت إلى عمران. قال:

- كلما عدت من صلاة الجمعة بعد الجلوس على القهوة أرى آثار الأحمر والأبيض على وجهها، لكن لا أراها عليها أبداً وأنا معها. تقول إنها تضع هذا لنفسها، لكن لم أعد أصدقها.. تعلقها بالهاتف يوترني. أحياناً أسمعها تضحك بصوت مرتفع وأنا على سلم الشقة، فور دخولي ينقلب وجهها وتغلق الهاتف. قاطعه «عمران» قائلاً:

- ربما تشاهد شيئاً مضحكاً، أو تُحدِّث إحدى صاحباتها. قال عجايبي: «قلت لها: ادعي صاحبك هذه عندنا، فقالت إنها من القاهرة. قلت لها: نذهب إليها، فقالت إنها ليست متزوجة ولا يصح أن أدخل عندها. قلت لها: أوصلك كأى سائق وانتظرك أسفل البيت، رفضت وقالت إنها سافرت.

نظر «عجايبي» إلى المرأة على يساره وقال:

- أردت أن أتأكد أن صاحبتها هذه موجودة، لكنَّ الشيطان يخبرني أنه ربما يكون رجلاً.

فزع «عمران» من كلامه وقال بانفعال: «استعد بالله يا عجايبي». ثم مد يده يربت على ركبته يذكره بأن زوجته من أصل طيب ولا يعرف أحد عنها سوءاً.

رد «عجايبي» بعصبية:

- أعرف، أعرف.

استطرد «عمران» يخبره أن ما يقوله كله ظنون لا تكفي أبداً للتشكيك في عرض إنسانة.

همَّ «عجايبي» أن يقول شيئاً لكنه بلع الكلمة. قال عمران: «ماذا كنت تريد؟»، قال عجايبي: «لا شيء». ألحَّ عليه عمران. قال عجايبي: «هناك حادثة لا أعرف هل لها علاقة أم لا، لكنها زادت الشكوك في قلبي».

حكى له «عجايبي» أنه منذ مدة كان ينتظر دوره في الموقف أمام محطة القطار، فجاءه ضابط ومعه أمين شرطة مسئول عن الموقف، أشار إليه الأمين فهرول ناحيتها. بادره الضابط بالكلام قائلاً إن الأمانة يشكرون في أدب الهندسة، وفي احترامه، وأنه ابن ناس ومُتعلّم أيضاً.

لا يعرف «عجايبي» سر هذه المقدمة، فإدارة الموقف يمكنها أن تحصل على أي شيء، وبالتأكيد يستطيع الضابط أن يأمره بما يريد. لم يحتمل التفكير فسأل مقاطعاً:

- خير يا باشا؟

أجابه الضابط بأن هناك وفدًا سياحيًا أجنبيًا، ومعهم مؤثر معروف على الإنترنت. فهم «عجايبي» باقي الأمر، يريد الضابط أن يؤمّن لهم سائقًا لا يستغلهم، وبنّه موظفي الأماكن السياحية أيضًا على معاملتهم بشكل جيد. ركب الوفد مع عجايبي، ورافقهم الأمين في ملابس مدنيّة.

تلك المقدّمة الطويلة أرعبت «عمران»، شعر بالنهاية التي سيقولها «عجايبي». ستكون وجهة الوفد بالتأكيد هي معبد الأقصر. نطق «عجايبي» بالكلمة، فسعل «عمران».

ناوله «عجايبي» زجاجة مياه، رفضها «عمران»، ثم أشار ل«عجايبي» أن يستمر. قال إنه حين وصل إلى المعبد لمح على شبك التذاكر امرأة تشبه «إنجي»، حاول تدقيق النظر فيها لكنها لم تلتفت إلى الخلف فلم يستطع رؤية وجهها، لكنها نفس الجسم والمشية. أكمل أنه أخرج زجاجة القطرة كي يصفّي عينه من الإجهاد لكن بمجرد إنزاله رأسه بعد أن رفعه ليضع القطرتين لم يجد هذه المرأة أمامه.

هدأ «عمران»، واستعادت ملامحه لونها الطبيعي بدلًا من البهتان الذي أصابها حين نطق «عجايبي» اسم المعبد. طلب الماء ليشرب، ثم قال وهو يُنزل الزجاجة من على فمه، هذه ظنون يا «عجايبي»، كلها ظنون.. وأظنّك لو سألتها أين كانت في تلك الساعة لأخبرتكَ بمكانها بالضبط. هزّ «عجايبي» رأسه قائلاً: «سألتها فعلاً، وقالت إنها خرجت، لكنها خرجت إلى استقبال المستشفى بسبب شعورها بالمغص». قال عمران: «ويمكن أن أستفسر لك من تريض المستشفى عن وجودها بالفعل في تلك الساعة».

ردّ «عجايبي» أنه لا داعي، فقد أظهرت له «إنجي» تذكرة استقبال فعلاً. وموضوع المعبد أهون الأمور، فحتى لو لم تكن «إنجي»، فهناك كثيرٌ من الأشياء التي تُثير شكوكه أصلاً.

ربّت «عمران» على كتف «عجايبي»، مؤكّداً أن الأمر لا يعدو كونه وهمًا، وأن القيادة في الحر ولفرة طويلة بالتأكيد تُجهد العين، فربما خلط بينها وبين امرأة أخرى، ويجب ألا يسمح للحظات الشيطان أن تتسلّط على عقله.

رد «عجايبي» منفعلاً:

- ليست أوهاماً، ليست أوهاماً، أنا متأكّد أن هناك شيئاً ما، ربما ليست هي من رأيتها تدخل المعبد، لكنّ الموضوع أكبر، أكبر!

نطق بالكلمة ثم تحرك بالسيارة.

سارا في صمتٍ طويل، ارتعب «عمران» من هذا الصمت، هناك شيء يريد «عجايبي» قوله لكنه يبتلعها. هل رآه «عجايبي» هناك أيضًا؟ سيعترف له بأن الأمر كان عفويًا أو مصادفة. وأن «إنجي» كانت تقف معه لتشكره على حسن معاملته لها أو لإحدى قريباتها.

مرعبٌ ما قد يُخفيه «عجايبي» في هذا الموقف.. أي شيء أكثر شناعة من تشكيك الرجل في عرضه. مرت

دقائق طويلة حتى توقف «عجايبي» مرة أخرى. لكن لم يتوقف عقل «عمران» عن الطنين. لم تكن مُقابلة تستحق أصلاً.. لم تكن رومانسية كما تحيلها؛ معابد حجرية تكسوها نار الشمس ويملؤها متطفلون يريدون أن يبيعوك أي شيء، ثم يحتقرونك حين يرون أنك منهم ولست سائحاً.. وامرأة خائفة تمشي بعيداً عنه بمتري، يضيع الكلام قبل أن يصل إليها، إما يذوب في نار الشمس، وإما تسرقه أذن أحد المارة قرّر أن يمر من المسافة الكبيرة التي تركتها «إنجي» بينه وبينها.

صمت «عمران» حين ارتطم رأسه في زجاج السيارة الأمامي بعدما توقف «عجايبي» بشكل مفاجئ، وضغط الفرامل بكامل عزمه. هذه المرة كانا في منطقة جانبية قاحلة لا وجود لأعمدة الإنارة فيها. غرق الميكروباص بمن فيه في ظلامٍ شديد.

تنحى «عجايبي»؛ فهم «عمران» أن «عجايبي» لم يرد أن يتبادلا النظرات حين يقول ما سيقول. أمسك «عمران» بمقبض الباب المجاور له.. يشعر أنه سيتوجب عليه الجري والهروب من «عجايبي» قريباً.

قاطع «عجايبي» تفكير «عمران» قائلاً إن «إنجي» في البداية كانت تُنكر أنها تضع مساحيق تجميل من الأصل، فوسوس له الشيطان أن يفتش في القمامة علّه يجد أي شيء. قبل مُنتصف الليل تُعلق القمامة في خطاف معدني يتدلى من حبل متين حتى تأتي عربة البلدية صباحاً وتأخذ كيس القمامة. تأتي السيارة كل أحد وأربعاء. حين تُعلق الكيس كان «عجايبي» يتحجج بالنزول لركن الميكروباص في جراج الموقف. ويأخذ الكيس ويفتش فيه. قال إنه في مرة وجد مناديل كثيرة ملطخة بالأبيض والأحمر.. وفي مرتين أو ثلاث وجد علبةً للملابس خاصة.

قال عمران:

- لا شيء مما تقوله يثبت أي شيء.. هي قالت لك إنها تفعل ذلك لنفسها، فكل شيء لا يُعارض ما قالتها هي ولا ما تقوله أنت.

قال عجايبي:

- يجوز.. المهم كان الأمر عبثاً على قلبي وأردت أن أحكيه لأي أحد.

قال عمران: «لا مشكلة، نحن أصدقاء وسرك في أمان.. لكن كل هذه ظنون ولا يصح الطعن في عرض بنت الناس لمجرد ظنون في عقلك. ردّ «عجايبي» عليه قائلاً: «معك حق، ظنون، لا بدّ من اليقين».

نزل «عمران» أمام باب المستشفى، وتوجّه «عجايبي» إلى موقف الجراح.. تواري «عمران» بمجرد نزوله وفتح هاتفه.. كتب شيئاً وأغلقه بعصبية ثم دخل المستشفى. وهو يُردّد في ذهنه أن الليلة الطين التي سبقت لقاءه مع «إنجي» تتكرر الآن، ويبدو أنها لن تكون آخر الليالي الطين التي ستنتج عن هذا اللقاء.

أما «عجايبي» فعاد للبيت، تمدد على الكنبه يفكر في كلمة عمران: «ظنون». أخذ يردّد هامساً لنفسه:

«اليقين، لا بُدَّ من اليقين». استدار على جانبه قائلاً لنفسه: «غداً اليقين».

أتى الغد، واقترب موعد أذان الجمعة.. خرج «عجايبي» من المنزل وأخبرها بأنه سيصلي الجمعة ظهراً في الطريق.. كانت في المطبخ في أثناء خروجه، فوضّع ورقة الكراسة بين لسان الكالون وفتحته.. لم يذهب إلى الميكروباص. انتظر خارج المسجد حتى ارتفعت أصوات الخطباء، فعاد لبيته.

مفتاح الشقة بالداخل فقد حرصت «إنجي» على إدخاله، لكنه فتح الباب غير المغلق وأغلقه بالمفتاح من الداخل. اقترب من باب غرفة النوم أكثر ونظر من ثقب المفتاح. وجدها تُدير الهاتف لتلتقط صوراً لنفسها بالكاميرا الخلفية، ثم تضغط على الشاشة وتعود لرفع الهاتف. التقت واحدة أخرى ثم أدارت الهاتف وضغطت على الشاشة.

قرّبت الهاتف من فمها قائلةً وهي تضحك قائلةً: «الآن رأيت الدلّاية، والخلفيّة المميّزة!!». فتح الباب بقوة فصرخت وصابعها متبيّس على الشاشة قائلةً:

- عجايبي!

حاول خطف الهاتف منها فسقط الهاتف على أرضية الغرفة وطارت بطاريته والورقة الصغيرة التي تضغطها.

جرت «إنجي» إلى خارج الغرفة، وجرى هو ناحية المطبخ.. هرولت إلى الحمام وأغلقت الباب على نفسها.. جذب سكينه من المطبخ وجرى يرزق على باب الحمام:

- افتحي وإلا كسرته.

في الحمام ارتدت جلباباً من سلة الغسيل لتستر به نصفها العلوي. كسر الباب وجذبها من شعرها وألقاها نحو الخارج. خرجت إلى البلكونة وصرخت:

- نادوا أهلي.

جرى نحوها وجذبها من رأسها إلى الداخل ورمّاها في الصالة.

صوتها جذب النساء من البيوت المجاورة.. صرخن جميعاً فسكت صوت خطيب المسجد القريب من البيت.. خرج الرجال متعجلين فعرفوا بمشاجرة بين «عجايبي» وزوجته.

اتصلوا بأهلها، لكن رفضوا جميعاً الصعود. زوجٌ وزوجته ومن يدخل بينهما يسهل تخطّته من كلّ الأطراف.

أمسك الهاتف ووضع البطارية فيه، لكن لم يعمل.. ضغط البطارية بيده فبدأ الهاتف في العمل، لكنه انطفأ مرة أخرى. فقام لغرفة النوم كي يبحث عن الورقة التي تضغط البطارية.

وجدتها فوضعها خلف البطارية، وبدأ تشغيله. وجدها تحاول فتح باب الشقة فجري ناحيتها وجذبها من شعرها، وألقاها في الصالة مرة أخرى.. أمسك السكين وجثا على رقبتها يصرخ فيها:

- كنت أعرف أنك خائنة، سأقتلك بعد أن أعرفه لأقتله بعدك.

صرخت من ضغط السكين على رقبته، فتزلزل الواقفون أسفل البيت، لكنه زلزال لم يُحركهم. بيدها خبطت التلفون فسقط من يده مرة أخرى، وانخلعت البطارية. انحنى يبحث عن الورقة والبطارية، فحاولت أن تقوم من تحته تحاول الجري لأي غرفة. قال لها:

- لن تقومي، لا مهرب، أنا قَتيلك اليوم.

لمح «عجايبي» الورقة فمدّ يده ليجذبها، فدفعته «إنجي» وجرت ناحية بطارية الهاتف لتمسكها. أمسكتها لكن يد «عجايبي» وصلت إليها.. قبض على البطارية وحاول جذبها من يدها، لكن «إنجي» تمسكت بها بقوة، تحرك مفرش السجاد من تحت قدم «عجايبي» فسقط على ظهره، وجذب معه «إنجي» والبطارية.

سقطت «إنجي» فوقه وانغرست السكين في صدرها.

دفعها «عجايبي» من فوقه، حتى رقدت إلى جواره؛ رمى الهاتف والسكين الملوث بالدم، وانقضَّ عليها، يصفعها على وجهها، ثم يضع يده على صدرها يحاول كبح الدم المتدفق. يتسلل الدم بين أصابعه فيرفع يده. يضعها على عنق «إنجي» يهزه كي تستيقظ، فغطّاها كلها بالدم.

دقائق مرّت و«عجايبي» يصرخ فيها لتقوم.

انكسر باب الشقة ودخل أبوها وإخوتها وتبعتهم أمهم.

«إنجي» على الأرض.

رقبتها مملوءة بالدم، وحوّلها بقعة دم تتسع.

«عجايبي» يهزها.

السكين على الأرض.

انهارت الأم تُؤلول دون أن تتحرك. جرى أحد إخوتها لإحضار طرحة لتغطية رأسها، وحملها الآخر من الغرفة يهرول ناحية الباب إلى المستشفى. لكنَّ عينيها المفتوحتين أخبرتهم أنها فارقت الحياة.

أحد المتفرجين الذين تكدّسوا في الشقة بعد ولولة الأم تدخّل قائلاً:

- لا داعي للمستشفى.. سيتم إبلاغ الشرطة والتحقيق وربما يُشرّحون الجثة.

حين سمعته الأم خلعت حذاءها وجرت على الجمع الذي دخل الشقة تضرب من تطوله على وجهه وجسده وتطرده خارج الشقة.

أمسكها أحد أبنائها وأغلق الآخر الباب.. غطّوا «إنجي» بملاءة فكشفت أمها عن وجهها ووضعت

رأسها على فخذها وجلست تبكي في حسرة صامته.

سأل أبوها وهو يكافح ألا يبكي:

- لماذا؟

قال عجايبي:

- هي قتلت نفسها.

ركله أحد الإخوة بقدمه وقال:

- كن رجلاً وقل الصدق مرة واحدة.

كرّر الأب سؤاله فمدّ «عجايبي» يده لأخيها بالهاتف.. فسأله الأخ عن مقصده.

دقائق صمت ثم قام أحدهم إلى «عجايبي» يضربه.

قام آخران وأمسكا أخاهما.. قبض الأب على الهاتف وأخرج قطعة ورق من كارت في محفظته وضغط بها بطارية الهاتف كي يعمل. صرخت فيه أمها:

- تُصدّقه؟ تُصدّقه في «إنجي»؟ «إنجي» يا أبو الأميرة إنجي؟

كان «البغدادي» في عالم غير العالم؛ لم يبك ولم يصرخ في «عجايبي»، ولا يبدو متوتراً وهو يحاول فتح الهاتف.. ذاكرته أسعفته حتى بأن هاتف «إنجي» يحتاج إلى ورقة صغيرة كي يعمل.. ضغط البطارية بقطعة الكارت، وفتحه.

سأل الأب «عجايبي» بهدوء:

- فين أدور؟

قال «عجايبي» باكياً:

- رسائل الماسنجر

مدّ الأب الهاتف لأحد أبنائه كي يشير له إلى التطبيق الذي يقصده «عجايبي».

فتحه الأب، ثم وضع الهاتف أمام عيني «عجايبي»، فأغلق عينيه. كانت إضاءة الشاشة أعلى مما يحتمل. لكنّ الأب قبض عليه من رأسه وقال:

- انظر يا ابن الكلب. انظر إلى الاسم الذي أرسلت إليه تلك الصور. أرسلتها لك يا ابن الكلب، ثم صفّعه صفعةً رتّت في الشقة التي يملؤها الموت، ووصلت إلى الحشد فأخرست همهمات.

نظر «عجايبي»، دقق النظر، ضاقت عيناه. فمدّ أبو إنجي يده في جيب «عجايبي» وأخرج زجاجة القطرة، وبخّ في عيني «عجايبي» منها. أغلق «عجايبي» جفنيه وفتحها عدة مرات، حتى استطاع أن يرى ما يريد حماه له أن يراه... وجد اسمه هو!

مسح عينيه من آثار القطرة.. دقق النظر أكثر فوجد اسمه ما زال موجودًا على رأس المحادثة.
فتح عينيه أكثر، مدّ يده ليمسك الهاتف لكنّ أبو إنجي سحب يده والهاتف بعيدًا.
نظر إليه «عجايبي» قائلاً: «والله كانت تضحك مع أحد غيري». صفعه أبوها مرة أخرى قائلاً: «مُصر على أو هامك؟!»، وقرب إليه الهاتف مرة أخرى.

لم يكن في الأمر أي لبس.. «إنجي» أرسلت صورتها نصف العارية إليه هو. توجه إلى أبيها مرة أخرى يسأله لماذا لم تجرب «إنجي» حين دخل عليها الغرفة أو حين جرى وراءها في الشقة أنها ترسل الصور إليه؟
همّ أبو إنجي بالرد، لكن صاحت أمها تهين زوجها؛ لأنه يجادل في شرف ابنته المغدورة.
نظر «عجايبي» إلى وجهها.. ولطم وجهه.. ثم انكبّ على «إنجي» يقبّل قدميها، فأزاحت أمها عنها.
قال أحد الإخوة: «حلاله الإعدام». تقدّم أحدهم ليخنقه فمنعه الأب. «ليس المهم قتله، المهم أن يعرف الناس كلها طُهر بنتنا. لو قتلناه لمات الحقيقة معه، اتّصلوا بالشرطة وكل شيء يكون في تحقيق رسمي وبشهادة قاضٍ أن بنتنا أشرف من الشرف».
قال أحد الإخوة:

- لكنهم سيطلبون رؤية الصور والهاتف.

قالت الأم:

- لا تفضحوها وهي بين يدي رب كريم.. دعوها تذهب مستورة له.

قال «عجايبي» ورأسه بين يديه:

- لا داعي للصور، سأعترف أنني قتلتها.

تقدم الإخوة جميعًا يركلونه:

- طوب الأرض رآك وتريد أن تقول إنك لم تقتلها.

أشار إليهم عجايبي:

- لا يهم، لا يهم. سأقول إنّي تشاجرتُ معها على أي شيء فركبني الشيطان وقتلتها. أخفوا الهاتف ولا

داعي لموضوع الصور.

وصلت سيارة الشرطة.. قبضت على «عجايبي» والتقطت صورًا للجثة ولأركان الشقة، وسط صمت

أهل إنجي ووالد عجايبي.

الفصل الثالث

بعد إعادة تمثيل الجريمة اقتادته الشرطة نحو الأسفل، نزل مجموعة من العساكر قبله كي يطمئنوا أنه لا وجود للأسلحة أو لأهل «إنجي» في نطاق قريب يسمح لهم بالاقتراب من «عجايبي».

تحرك «عجايبي» عائداً إلى سيارة الشرطة، فأمسك به «عمران». احتضنه مرة أخرى، دون أن ينطق.

سأله «عجايبي» عن سبب نُحول جسده، فردَّ «عمران» بأنه الحُزن على ما حدث له. قبض «عجايبي» بيديه المقيدتين على يد «عمران» قائلاً: «دعواتك». نظر «عمران» إليه دون أن ينطق. قال عجايبي:

- لو كنا على القهوة الآن لقلت إنك تخفي سرّاً خطيراً، ولم أكن لأتركك دون أن تُفصي به.

أشار «عجايبي» إلى العساكر المتدمرين من التأخير، قائلاً:

- لولا هؤلاء لتحدّثنا أكثر.

يلمح «عجايبي» حقيبة «عمران» عند قدمه.. يسأله عنها فيجيب عمران: «لم أعد أستطيع العمل في المستشفى، سأعود إلى طنطا، لكن انتظرت تمثيل ال...»، سكت «عمران»، فقال عجايبي:

- تمثيل الجريمة، قلها لا تخف.

نظر «عمران» إلى الأرض فاقرب «عجايبي» من رأس «عمران» يقبلها ويودّعه.

ارتفع صوت بكاء «عمران»، يقول لعجايبي:

- لا تيأس، ربما أتاك الحلّ من حيث لا تدري.

يبتسم «عجايبي» قائلاً:

- تتحدث مثل الأمهات.

ردَّ «عمران» بابتسامة خاطفة ثم أكد كلامه قائلاً:

- المحاكمة أمامها شهر، أنا واثق أن هذا الشهر قد يغيّر كلّ شيء.

اقترب العساكر وجرّوا «عجايبي» إلى سيارة الشرطة.

ودّعه «عمران»، وحمل حقيبته متجهاً إلى موقف الميكروباص. يضعها على كرسي خلف السائق ويجلس هو ناحية الشباك متعمداً الجلوس في شمس الأقصر. يريد أن تتركز أشعة الشمس على ذراعه لتحرّقها، وربما يمتد الحرق ليبتلع جسده كله.

يُسند رأسه إلى زجاج الشباك الملتهب ويُخرج هاتفه يتأمل في خلفية هاتفه: هو وزوجته، وطفلاه.

لم تكن الصورة خلفية هاتفه سابقاً، وضعها في اليوم التالي لحادثة «عجايبي» و«إنجي»؛ يريد أن يذكر نفسه بأسرته.

تحرّك الميكروباص، وعينا «عمران» مُعلقتان تنظران إلى الخلف.

تذكر حين خرج من صلاة الجمعة مع جموع المصلين الذين تجمّدوا أمام منزل «عجايبي».. لم يكن من الحاضرين أولاً الذين رأوا «إنجي» وهي تصرخ من البلكونة، لكنه حضر بعد العديد من الصرخات التالية. لم يصعد، كان واقفاً ينتظر نزول «عجايبي» باحثاً عنه.

لم تسعفه قدماه في الوقوف، وتجمّد مخّه فلم يصعد إلى الشقة، جلس على التراب مستنداً إلى جدار أحد المنازل المواجهة للشقة، التي لم يدر أنها قد تحولت من شقة زوجية إلى مسرح جريمة.

أخرج هاتفه يبحث ربما أرسلت إليه «إنجي» شيئاً. صدمته الرسائل منها، رسائل تضحك فيها على رعبه من الكلام الذي قاله «عجايبي» ليلة أمس، وتقول له إنها لم تعد تخاف منه، وإنها تتمنى لو شكّ في سلوكها فعلاً فإطّلتها. ثم رسالة تقول إنها تعويضاً له عن هذا الرعب فسوف تُريه شيئاً طلب رؤيته من فترة. ثم رسالة فيها صورتها نصف عارية ورسالة صوتية.

أدار الهاتف فوراً وأخفى الشاشة. حاول القيام من التراب فلم يستطع، أمسك بيد أحد الواقفين دون تمهيد ثم قام. جفل الرجل حين رأى أحداً يُمسك بيده فجأة، لكنه هدأ حين عرف أنه الدكتور «عمران».

تطوّع الرجل قائلاً لـ «عمران» إن «عجايبي» قفش مراته تكلم عشيقها، والآن يحاول فتح التليفون ليُظهر الدليل لأهلها كي يُطهروا هم شرفهم بأنفسهم».

مشى «عمران» بعيداً عن الحشد الذين بدءوا في الاتصال بالإسعاف والشرطة.. بعد أن رفضت عربة إسعاف مستشفى العزبة الخروج من دون بلاغ رسمي لهيئة الإسعاف، وقالت شرطة المستشفى إنها مسئولة عمّا يحدث داخل المستشفى فقط.

بعيداً عن الحشد فتح «عمران» الهاتف فسمع الرسالة.

رمى الهاتف لحظة سمع صرختها باسم «عجايبي». كأنها يقف وراءه فعلاً.. انحنى وأمسك الهاتف، فقد فهم الآن معظم ما حدث بالأعلى.

لكن اندفاع الأدرينالين هذه المرة كان قوياً، انفتحت أبواب عقله.. قرر أن يُنقذ «إنجي» ويراهن على أن الوقت لم ينفد.

أمسك هاتفه وسجّل الدخول لحسابها ومسح المحادثة من عندها. أغلق هاتفه وجرّ قدميه عائداً للحشد.. بعد أول خطوتين ردّد في ذهنه أن رسالتها الصوتية تقول إن «عجايبي» رآها، وإنه سيقلتها لو لم يجد شيئاً.

فرك يديه، ومسح العرق الذي لسع عينه، «ليتني لم أحذفها!»

توقّف، خبط قدمه في الأرض ليتأكد أنه وقف بالفعل، عقله كان يطنّ. تذكر أنه حذفها من حساب «إنجي»، لكنها ما زالت في حسابه. أخرج هاتفه ودخل لحسابه هو، وحفظ صورة إنجي العارية على هاتفه،

وحذف المحادثة، ثم خرج من حسابه، ودخل لحسابها وأرسلها لـ«عجايبي».
فعل ذلك ثم جرى تجاه الحشد. سيصعد؛ فالموضوع قد حُل.
لكن على بوابة الشقة أوقفه صوت صفعة وصراخ البُعْداي: «أرسلتها لك أنت يا ابن الكلب».

تجمّد عقل «عمران» في الأيام التي فاتت بين الجريمة وتمثيلها، لم ينزل مناوباته في الاستقبال، ولم يفكر في العودة لطنطا. لكن حين علم بموعد تمثيل الجريمة قرّر أن يحضره، علّه يستطيع أن يوقف قتل «إنجي» هذه المرة، أو يُعيد لها شرفها إذا استطاع. لكن لم يذكر أحدًا الصورة، أو الخيانة.
بعد تمثيل الجريمة، وبعد أن صافح «عجايبي»، ركب الميكروباص عائداً إلى طنطا، معه حقيبة خفيفة وصورة أولاده.

اختفت الشمس من السماء؛ فوجد «عمران» نفسه أمام منزله. لا يعرف متى استقلّ قطار العودة، ولا كيف وصل من المحطة إلى شقته. لكنه هنا الآن.. هذا هو المهم. هنا بعيد بمسافات طويلة عن جبل المشنقة الذي ينتظر «عجايبي»، وعن جثة «إنجي».

طرق الباب بهدوءٍ ثم تصاعدت حدة طرقة على الباب.. فتحت «نسرين» الباب مفزوعة؛ وجدت «عمران» يبكي أمام الباب، تجمّدت أمامه.. أفلت الحقيبة من يده. «نسرين» تحاول بعينها قراءة ما يحدث، لكن «عمران» ثابت في مكانه لا يتكلم، ولا حتى يرتفع صوته بالبكاء.. دموعٌ متتابعة تسقط من عينه. سحبته «نسرين» من يده ليدخل.. جذبته إلى الصالة فجلس على الركنة، همّت بالجلوس إلى جواره، لكنه تمدد على الركنة، وأغمض عينيه. «نسرين» أمامه حائرة، تقول له: فصلوك؟! طردوك؟! مريض مات؟! لم يُجبها عمران؛ فأسرت إلى الحقيبة الملقاة أمام الباب.. أدخلتها وفتحتها.. تبحث فيها عن ورقة جزاء أو فصل، أو حتى الاستقالة التي كان «عمران» يتمم بشأنها كلما ضاق بأحوال المستشفيات. لم تجد شيئاً، فعادت إليه.

وجدته متكوراً على الكنب؛ وجهه مدفون في يديه، وجسده يهتز. حاولت أن تحصل منه على أي كلمة تروي فضولها فلم تنجح.. فقط تراه متكوراً وجسده يهتز.. لا تعرف هل يرتجف من البرد، أم يبكي ويكتم بكاءه.. دخلت إلى العُرفة وأخرجت منها ملاءة، وعادت لتُغطّي بها، أطفأت أنوار الصالة، ثم دخلت لتنام. من سريرها سمعت صوت البكاء يرتفع. أدركت أن «عمران» يُريد أن يبقى وحده.. فضولها يُقلّبها في السرير، ويجرمها النوم. لكنها قررت أن تترك «عمران» في حاله الليلة. وغداً ستعرف منه كل شيء، حتى لو اضطرت للاستعانة بحماها وحماها.

مع أول نور للصباح، رنّ منبه «نسرين»؛ أيقظت الطفلين للمدرسة، فوجئاً بوجود أبيهما في الصالة.. جريا إليه ليحتضناه.. قام «عمران» مفزوعاً.. ينظر حوله كأنه يستعيد الإحساس بالمكان والزمان،

ويستكشف أين هو الآن. ثوانٍ طويلة مرّت قبل أن يُبادل ابنه الابتسام، ولفّ ذراعيه حولهما. وضع وجهه على شعر «نرمين» وبكى.. ارتفع صوت البكاء، فجفل الطفلان وابتعدا.

تقدّمت «نسرین» لتتزعجها من يديه، وتدفعها إلى باب الشقة رغم رفضها الذهاب إلى المدرسة. نظرت إليها «نسرین» بغضبٍ، فصمتا. أغلقت خلفها باب الشقة ثم عادت إلى «عمران» تسأله عن حاله. لم يردّ.. فمدّت يدها إلى رأسه واقتربت منه وكررت سؤالها.. ارتقى «عمران» على كتفها يبكي، طبّبت عليه، وصمتت.

قطع الصمت صوت رنين هاتف «عمران».. لم يتحرك «عمران» فمدّت «نسرین» يدها في جيبه الأيمن لتُخرجه.. نظرت إلى الشاشة وقالت له: «ميس زينب». عاد «عمران» بظهره إلى الركنة، ولم يردّ.. فتحت «نسرین» الخط فأتى صوت زينب: «العيادة يا دكتور، المرضى كثير».. ردت «نسرین» قائلةً: «الدكتور إجازة». صاحت زينب تسألها عمّن تكون، فردّت «نسرین» قائلة: «زوجته، والدكتور في طنطا»، وأغلقت الخط. جذب «عمران» التليفون من يد «نسرین»، وأطفأه.

عرضت عليه «نسرین» أن يدخل للاستحمام، لم يرد. سألته مرة أخرى عمّا حدث. لم يردّ. قبل أن تسأله مرة جديدة، كان جرس الشقة يصرخ.. نظر «عمران» مفزوعاً إلى الباب.. فرزته من الباب أرعبت «نسرین»، لكنها قالت: «ياسين نسي ميدالية مفاتيح البوابة وباب الشقة»، قامت لتفتح فوجدت حماها وحماها. اندفعت أمّ «عمران» إليه تحضنه. ووقف أبوه يُجبر «نسرین» أنه قابل حفيديه في أثناء ذهابها إلى المدرسة، وأخبراه بأن أباهما عاد، وأنه يبكي في الصلاة.. حضنته أمه وهي تردد: «سلامتك، سلامتك من كل سوء». نظرت إلى «نسرین» بعنف، ووجّهت كلامها إلى عمران: «قالت لك حاجة بخصوصنا؟» ثم أكلمت: «والله يا ابني كل واحد في حاله من يوم سفرك». طبّبت «عمران» على كفّ أمه الموجود على كتفه. وردّت «نسرین» قائلة: «والله يا ماما ما أعرف».

هدأت أم عمران، وتقدّم أبوه ليحاوطه.. لم تُنادِها «نسرین» سابقاً بأي كلمة من مشتقات الأمومة. أدرك الثلاثة أن شيئاً حقيقياً متجاوزاً لهم هم الثلاثة حدث ل«عمران». قال أبوه: «لو لم تُخبرنا ساركب القطار حالاً لأعرف السبب». نطق «عمران» قائلاً: «ولا حاجة». ينتظر الثلاثة المزيد. قال «عمران» بكلمات مقطعة:

- حالة ماتت في الاستقبال.. وابنها حاول يقتلني بمسدس.

شبهت أمّه!

قائلةً:

- حبيبي يا ابني، والله ما ترجع لهم، حتى لو انطبقت السماء على الأرض.

هدأت «نسرین» وتوجّهت إلى المطبخ لتُعدّ إفطاراً للأسرة. قال أبوه:

- هيا قُم للحمام، طبّط حالك.

قام «عمران» ليهرب من هذا الحصار.. دخل الحمام، خرجت «نسرین» من المطبخ واقتربت من باب الحمام، سمعت «عمران» يبكي بحرقة أكبر، شيء يُخبرها بأن الأمر أكبر، لكنها ردّت على نفسها بأنه لا شيء أكبر من أن يتعرض دكتور محترم ومؤدب مثل «عمران» لمحاولة قتلٍ.. عادت إلى المطبخ. ظل «عمران» في الحمام حتى استعجله أبوه قبل أن يبرد الطعام.

مرّت الأيام.. لم يتغيّر حال «عمران».. «نسرین» أخبرت حماتها بأن هناك مشكلة في «عمران». نفت حماتها أن يكون بابنها أي مشكلات. قالت الحماة: «ضغط العمل والسفر... فرّثي الواد». سكتت «نسرین» لكنّ إحساسها لم يسكت.

بعد يومين أقنعت «عمران» بأن يستحم ويبدل ملابسه ويأخذهم ليتناولوا الطعام في المركز التجاري، وقد اقترب موعد عودة طفليهما من المدرسة، رفض فكرة الخروج والذهاب إلى المركز التجاري، فقالت: «على العموم بدّل ملابسك واجلس معها هنا حتّى».

استغلت دخوله الحمام وبحث عن هاتفه، ربما تعرف منه أي شيء. انتظرت حتى بدأ الجهاز في العمل، رسمت النمط الخاص بالجهاز. «ياسين» ابنها هو من أخبرها به، أخبرهم «عمران» به كي لا يطلبوه منه كلما أرادوا أن يلعبوا على الهاتف في أثناء نومه.

جعلت التليفون على وضع الصامت، ثم فتحت تطبيق «واتساب» فوجدت الرسائل تنهال على التطبيق. انتظرت بضع ثوانٍ حتى استقرت كل محادثة في مكانها، وفتحت أول محادثة في الصف. كانت «زينب» تكرر نداءها لعمران بالعودة للعمل؛ لأن إجراءات فصله قد بدأت بسبب انقطاعه لأكثر من ١٤ يوماً متواصلة. ثم تخبره «زينب» بأن الشاذلي يسأل عنه؛ لأن «عجايبي» يريد رؤيته قبل جلسة المحاكمة.

وجدت رسائل عدة من أرقام غير مُسجلة تعرف نفسها بأنهم موظفون في الشئون القانونية، وأنهم يتواصلون لمحاولة مساعدة «عمران» قبل صدور قرار الفصل بشكل نهائي. لم تجد في باقي الرسائل أي شيء مهم.

خرجت من التطبيق لتبحث في باقي الهاتف، دخلت على «ماسنجر» فوجدت رسائل منها، ومن أفراد من «عزبة جهنم» يسألون الدكتور عن رقم هاتفه، أو يشكرونه على حسن معاملته لأهاليهم في استقبال المستشفى. خرجت من التطبيق محبطة فلم تجد ما يُفسر لها سلوك «عمران» وعودته المفاجئة.

فكرت أن تتواصل مع «زينب»، لكنها تراجع خوفًا من أن تُسبب أي مشكلة لزوجها. في أعلى الشاشة ظهر إشعار من تطبيق «جوجل» يعرض صورًا منذ عامين. كان في الصورة «عمران» و«نسرین» وأولادهما في رحلة في حديقة حيوان الجيزة.. ضغطت «نسرین» على الصور وشاهدتها مصحوبةً بخلفية موسيقية اختارها التطبيق.

بعد أن انتهى عرض الصور فتح التطبيق معرض الصور الخاص به، ليُذكر صاحب الهاتف بأن رفع الصور متوقّف.. مجرد أن فُتح معرض الصور داهمتها صورة لامرأة عارية الصدر. ذهلت «نسرين»، وظنّتها صورةً من موقع إباحي فحذفتها خوفاً أن يراها أحد طفليها إذا أمسك هاتف أبيه.

أدركت «نسرين» أن صوت المياه الصادر من الحمام قد اختفى منذ فترة. وشعرت بوجود «عمران» أمامها، رفعت رأسها فوجدته على أول الطُّرقة؛ أخفت التليفون سريعاً خلف ظهرها، فلمحها. سألتها بعصبية عمّا تفعل، فردّت «نسرين» قائلة: «لا شيء». اقترب منها باندفاع وجذب يدها لينظر ما بهما. لم يجد فيهما شيء، فقالت «نسرين» إنها لم تكن تفعل شيئاً.

صنعها «عمران» قائلاً: «بتكلّمي مين؟»، قالت نسرين: «والله ولا حد»، صرخ: «التليفون كان في إيدك»، قالت: «لا، تليفوني على الجزّامة هناك». قال لها: «يعني أنا مجنون». قالت: «والله ولا حاجة». لطمها «عمران» على خدها، فانزاحت من مكانها. لاحظ التليفون خلفها. فانهاled عليها ضرباً، وهو يسألها إذا لم تكن تفعل شيئاً، فلماذا تُخفي الهاتف وراء ظهرها؟

بصق عليها «عمران» وهو يسألها بنبرة الإقرار، إذا كانت ترسل لمن تُكلمه أن زوجها المغفل جاء مبكراً عن ميعاده.. صرخت «نسرين» تسأله ماذا يقصد؟ الاتهام جعلها تتحامل على نفسها وعلى الضرب الذي تلقتة قائلةً: «تليفونك»!

قلّب «عمران» التليفون في يده، وجده هاتفه هو. لم يصمت، سألتها عمّ كانت تفعل بالهاتف. قالت: «أحاول أن أعرف ما جرى». رد «عمران» قائلاً: «أنا كويس». فردت «نسرين» بعصبية والدموع تنهمر: «لا، فيك حاجة». وأكملت تسأله ماذا فعل في الأقصر، وما الذي غيرّه بهذا الشكل، وهل الصور التي يشاهدها لها علاقة بتغيّره، أو أنه يمر بأزمة منتصف العمر التي تحكي عنها المسلسلات؟ اهتز «عمران» من الكلام، وشعر أن جريمته على وشك الانكشاف، فصرخ مستهفماً: «صور؟ أي صور؟». ردت «نسرين» قائلة: «صور الستات العريانة».

قام إليها «عمران» فصنعها على خدها عدة مرات.. لاحقته «نسرين» بالكلمات والأسئلة تحته على أن يقول ماذا حدّث، وأن يتكلم عليهم يساعده. كانت «نسرين» ترفع صوتها أكثر، لكن «عمران» ينزوي وتخور قواه. طارده «نسرين» بالأسئلة المتلاحقة حتى لم يعد «عمران» يقوى على الوقوف وألقى بنفسه جالساً على الركبة ثم ردّ: «فات الأوان، ماتت».

اقتربت منه «نسرين» لتستفهم أكثر، فابتعد عنها. شهقت «نسرين» وهي تبتعد عن عمران.. نظر «عمران» إليها، فوجد طفليه يقفان أمام باب الشقة؛ «نرمين» و«ياسين» صامتان، يبكيان. سألتها أمهما: «منذ متى تقفان هنا؟». رد ياسين: «من زمان».. اقترب منها «عمران»، فراجع الطفلان خطوتين للخلف.

نفخ «عمران» ودخل غرفة النوم، ورزّع الباب خلفه. حضنت «نسرين» الطفلين. والصورة التي رأتها

تتكرر في ذهنها.. الخلفية العادية التي تشبه عُرف نوم الجميع، والجسد المستور نصفه، ووجه الفتاة المؤلف.. تركت حُسن طفليها فجأة، ولطمت صدرها قائلةً: «يا مصيبي، يا مصيبي».

أخرجت هاتفها وكتبت في بحث تطبيق «فيسبوك» كلمات غير متجانسة مثل «حادثة في الأقصر»، ثم «قتل بنت في الأقصر». لم تسفر نتائج البحث عن شيء، اعتدلت وجلست على الأرض. تنهدت وكتبت «قتل في عزبة جهنم». النتائج تتابعت عن فتاة قتلها زوجها بسبب مشاجرة على الطعام، وفتاة قتلها زوجها سائق الميكروباص لأنها كشفت خداعه لها بخصوص عمله في الخليج.

أبناء مختلفة تتفق كلها عن حادثة قتل في القرية التي كان يعمل فيها زوجها.. فتحت أحد المشورات فوجدت فيه بعض الصور للقرية، وتفاصيل أخرى عن الحادثة تقول إن الأهالي يعتقدون أن الزوج كان يشك في سلوكها، وحين تأكد من سوء سلوكها ذبحها.. من بين الصور وجدت صورة للفتاة وزوجها في يوم فرحهما.

لطمت «نسرين» فخذها وهي تدقق في الصورة قائلة:

- هي، والله هي.

قضى «عمران» الأيام في عزلته داخل غرفة النوم، لا يخرج لأحد، ولا يسمح لوالديه ولا ل«نسرين» أو لطفليه بالدخول. وقد توقفت «نسرين» عن طلب الدخول للغرفة.. كانت تجلس في الصالة تبكي، ولا تتحرك إلا حين تنهرها حماتها لتقوم بإعداد الطعام ل«عمران» أو للطفلين.

لم يأخذ «عمران» معه في الغرفة سوى هاتفه الذي أطفأه بعد مشاجرته مع «نسرين». يخرج للحمام، ثم يعود سريعاً للغرفة. ومع قلة ما يأكله وما يشربه قد يمر يوم كامل دون أن يخرج من الغرفة.. أمه تجلس على باب الغرفة تُمسك مصحفاً. وأبوه يستشير المشاهير من الأطباء النفسيين فيصفون لهم بعض الأدوية لكن يرفض «عمران» تناولها.

بداخل الغرفة «عمران» ينظر إلى هاتفه المغلق، لم يفتحه. لكنه يرى في ظلام الشاشة جثة «إنجي»، و«عجايبي» معلقاً في حبل المشنقة.. يحاول الهروب من تلك الصورة فتداهمه في اللحظات القليلة التي يغفو فيها.. يأتيه سرب الموتى مثلث الشكل. هذه المرة انضمت إليهم «إنجي»، ونسخة ضبابية من «عجايبي»؛ ملامحه ليست واضحة، لكنه غير مُغطى كباقي الأموات الذين لم يُكشف عنهم الغطاء. لكن «عمران» يعرف أن هذا الجسد والوجه هما ل«عجايبي».

الغرفة بدأت تتكدس ببقايا الطعام، وتملؤها رائحة العطن.. لم يلاحظ «عمران» تغيير أي شيء حوله؛ فقط «إنجي» و«عجايبي». يقول لنفسه أحياناً: «أنت قتلتها، أنت السبب» ويرد على نفسه أمام المرأة: «لكن حاولت إنقاذها». يصفع نفسه قائلاً: «لكنها كانت في حالها، أنت من أغواها» ويرد قائلاً بنصف ابتسامة:

- لكنها هي التي أرسلت لي أولاً، وهي وافقت على النزول ومقابلتي، لقد كنا شركاء.
يُمسك رأسه قائلاً: «شركاء في الجريمة، يجب أن نكون إذن شركاء في العقاب». يردّ: «لكنها لم تكن جريمة، كانت مغامرة فقط». يضرب بيده زجاج تسريحة غرفة النوم ويقول: «لكن لو تكلمتُ سأقتلها مرتين». سقطت بعض مستحضرات التجميل التي تقنيتها «نسرين»، فأزاحها بيده وألقاها كلها على الأرض.
قال لنفسه:

- هي الآن مظلومة، وشريفة.. لو نطقت ستكون هي الظالمة والخائنة.. سأقتلها للأبد لو نطقت.
شعر ب«عجايبي» يقترب من خلفه، رآه في المرأة يقترب منه. شهق «عمران» واستدار فلم يجد شيئاً، اهتزت ركبته.. لم يعد يقدر على الوقوف. جلس مستنداً إلى التسريحة، شعر ب«عجايبي» يثني ركبته ويجلس مقابله.. فتح عينيه فرآه أمامه، سأله عجايبي: «وأنا؟» ردّ عمران:
- لا أعرف.. أنا قتلت مرة، ولا أريد أن أقتل مرة ثانية.

ردّ عجايبي: «في الحالين أنت ستقتل مرة ثانية؛ لو تكلمت ستقتل شرف «إنجي»، ولو سكتت ستقتلني أنا.. ستضيف فرداً جديداً لقافلة الموتى». يبكي «عمران» ويقول: «كلهم ماتوا لأن أجلهم قد حان، أنا لم أقتل، أو يعني لم أقصد أن أقتل أيّ واحد منهم. لم أكن أعرف أن الأمور ستنفجر». يخطف «عجايبي» المنجل الحاد من الموت ويشدّه على رقبة «عمران». يخبره «عجايبي» أنه هذه المرة لن ينجو من المحاكمة؛ لأنه اختار أن يقتل «عجايبي» بالصمت.

يشدّ «عجايبي» الشفرة الحادة فينفصل رأس «عمران».. يقوم من غفوته يلطم وجهه وهو يصرخ.. لكنه سرعان ما يعود للكابوس، أو أن الكابوس قد انتقل له في يقظته.. فيصرخ «عمران» أكثر، وتفزع أمه من أمام الباب وتطرقة تحاول أن تفتحه لكن «عمران» أغلقه من الداخل.

انهارت تبكي تستحلفه أن يفتح لها.. لكن «عمران» لم يستجب، ربما لم يسمعها، كان في عالمه الخاص؛ عالم لا يسكنه من البشر إلا هو و«إنجي» و«عجايبي»، وليس فيه أي جمادات إلا حبلٌ ملفوفٌ بشكلٍ دائري يتحرك كالبندول بين رقبة «عجايبي» ورقبة «عمران». في خلفية هذا العالم صورة عائلية لطفلي «عمران» وزوجته، ووالديه.

ينظر إلى طفليّه في الصورة، يراهما يهجرانه بعد أن يعرفا أنه السبب في قتل إنسانة.. ويراهما يهجرانه لأنه صار مجنوناً إذا قُتل «عجايبي» بسببه أيضاً. يجيبه عجايبي: «أنت خسرت كل حاجة بالفعل، لكن أمامك فرصة لتُخلّص نفسك من دم جديد».

يقوم «عمران» صارخاً:

- لم أكن أعرف أنها ستموت، لم أكن أعرف.
يتعالى صوت الطرقات من خارج الغرفة، ويحاول أبوه كسر الباب.
يلطم «عمران» وجهه بقوة أكبر: «لم أكن أعرف يا «إنجي»، لكن الآن أعرف عن «عجايبي».. لم أقرر
بخصوص حياتك، لكن الآن حياته في يدي».

ينفتح الباب ويدخل أبوه وأمه؛ تحضنه أمه وتتمتم بالاستعاذة وآيات القرآن.. وتجلس «نسرین» حوله
من الجهة الأخرى. تقول في رأسها: «إنجي، هي، والله هي». الطفلان مرعوبان لا يستطيعان دخول الغرفة،
أو التحرك بعيداً عن بابها.

امتدت يد أبوه لهاتف «عمران» الملقى على السرير، ففتحه. لكنه وقف أمام نمط المرور أو كلمة السر فلا
يعرف أيّاً منهما. مدّه بهدوء ل«نسرین» لتفتحه، ففتحته ثم ناولته لحماها مرة أخرى.

أخذ الهاتف وخرج للصلاة. لكنّ صوت الرسائل التي توالى جذبت سمع «عمران»؛ فجرى يبحث عن
الهاتف، لم يجده على السرير فقالت له «نرمين»: «مع جدو»، خرج «عمران» إلى الصلاة وسحب الهاتف من
يده والده.. لكنّ الرسائل خطفت عيناهما؛ ميس «زينب» ترسل رسائل نصية تخبره بأنه قد مرّ أكثر من ١٤
يوماً على غيابه عن المستشفى وسوف يُفصل، وتخبره أن يفتح مجموعة المستشفى على «واتساب»؛ لأن قرار
فصله صدر من المدير الجديد، ثم رسائل عديدة من أرقام حاولت الاتصال به لكنها لم تصل إليه.

من بينها كان رقم الشاذلي، أبو عجايبي. جلس «عمران» على الركنة، وجلس أبوه إلى جواره. قال
«عمران» لأبيه دون سياق: «أنا في متاهة»، فردّ عليه والده: «المهم أنك وسط أهلك وعيالك»، فردّ «عمران»
قائلاً: «من قال إني وسطكم؟»، ردّ أبوه قائلاً:

- أنت الحيلة، وأنت أمل عيالك، وعمود بيتك، لو رحت كل حياتنا راحت.
احتضنه «عمران» وبكى.

مرّت بضعة أيام أخرى.. حالة «عمران» تسوء، و«نسرین» تزداد بكاءً وذبولاً.. اقتربت منها حماها تطيب
خاطرهما. تقول لها بمزاح إنها لم تكن تعرف أنها تحب «عمران» كل هذا الحب. أكملت الحياة كلامها تنصحها
بأنها إذا كانت تحبه حقاً فعليها أن تصبح أقوى وأن تقف إلى جواره في أزمته.

نظرت إليها «نسرین» طويلاً.. حتى خافت منها أم عمران، فسألته عن سر نظرتها.. ببرود ردّت نسرین:
«ابنك قتل بنت غلبانة في الأقصر»، لم تدر أم «عمران» ما تقول إلا وقد صفعته على خدها، ونادت على والد
«عمران» بصوت مرعوب.. جاء الرجل يجري فقالت له وهي تشير إلى نسرین:

- بنت الكلب خرّفت.

نظر الرجل إلى «نسرین» يستفهم، فرددت «نسرین» العبارة، وأضافت: «ابحثوا عن قتل «إنجي» في عزبة جهنم». أخرج الرجل هاتفه ليبحث فيه، فسبته أم «عمران» لأنه صدق «نسرین». لم يكثرث بالسب، وأكمل بحثه.. فتح عينه ونظر إلى زوجته حين رأى الأخبار، لكنه سأل «نسرین» عمّن أخبرها أن لابنه علاقة بهذه الحادثة. قالت «نسرین» بنفس الهدوء:

- اسألوه، واسألوا حاله المقلوب.

شدتها أم «عمران» من شعرها، فتدخّل الوالد ليفصل بينهما. فقامت «نسرین» وجرت إلى غرفة «عمران».. فتحت الباب بانديفاع لكنه لم يتحرك من سريره. قالت بصوت مرتفع: «طلقني»، لم يرد عمران، فكررت الكلمة.. لم يتحرك «عمران» أو يرد، فأخبرت الجميع بصوت مرتفع أنها تنتظر ورقتها عند بيت أهلها.

وجذبت طفليها تدعوها للخروج معها.. شدت حماتها منها الطفلين، فتدخّل والد «عمران» ليخلصهما من يد زوجته. وأشار ل«نسرین» أن تأخذها وتمشي، لكنه طلب منها ألا تقول أي شيء لأي أحد. وأن «عمران» ربما تأثر بالقضية لأي سبب. ووعدها بأنه سيأتي ليأخذها من بيت أبيها بصحبة «عمران» وهو في أحسن صورة، وسيشرح لها كل شيء.. لكنه توّعدها في آخر كلامه أنهم لن ينسوا لها سوء ظنها.

صرخت «نسرین» قائلة:

- سوء ظن؟ اسألوه عن الصور.

يوماً مرّاً و«نسرین» والطفلين خارج البيت.. انتقل والداه ليقبها معه، ويتوليا رعايته. يحاول أبوه استنطاق أي شيء من «عمران» فلا يحصل إلا على بكاء.

في منتصف الليل قام «عمران»، سحب محفظته من درج التسريحة.. وأخذ هاتفه المطفأ منذ جذبته من يد أبيه. ثم فتح باب الشقة بهدوء وخرج.

تردد قبل أن يخطو داخل القطار، لكنه في النهاية جلس على كرسيّ لم يشغله أحد وتحرك القطار.. بعد سفر غير مريح، ودفعه ضعف ثمن التذكرة لأنه لم يحجر مسبقاً، وصل إلى محطة الأقصر، توجه إلى موقف ميكروباص «عزبة جهنم»، مجرد أن دخل الموقف قام إليه أحدهم مرحباً. «عمران» لا يعرف اسمه، لكنه السائق الذي حكى له سابقاً عن «عجايبي».

رحّب به السائق، لكن عينه تفحص «عمران» دون توقّف. أول مرة يرى «عمران» في حالة كحالته الآن؛ يرتدي فانلة سوداء بها قطع واضح فوق الكتف الأيمن، تحتها بنطلون واسع من القطن.. لونه باهت، والكلمات الإنجليزية المطبوعة عليه حروفها مقشّرة، وفي قدمه شبشب بلاستيكي، أقرب ما يكون لشبشب الحمام، وشعره هائش، ولحيته غير مشدّبة.

أشار السائق إلى الميكروباص المتوجه إلى «عزبة جهنم»، وما زالت عيناه معلقتين بـ«عمران». لكنَّ «عمران» أخرج عدَّة ورقات نقدية من محفظته، وناولها للسائق قائلاً: «إلى المباحث أو النيابة أو المحكمة، أي مكان موجود فيه عجائبي».

أخبره السائق أن اليوم هو موعد جلسة المحكمة، وأن النطق سيكون اليوم أيضاً؛ لأن القضية محسومة. لم يرد «عمران» بإيحاء رأسٍ حتَّى، فصمت السائق وجلس يتفحص وجه «عمران» الهزيل وملابسه عبر المرايا التي تملأ السيارة، حتى توقفت السيارة أمام المحكمة.

بعد أن استمع القاضي إلى مرافعة النيابة ومحامي «عجائبي»، التفت إلى المستشارين من حوله.. قرروا أن يكون الحكم بعد المداولة. قبل أن ينطق القاضي بالكلمة انفتح باب قاعة المحكمة.. رفع القاضي نظره إلى أمناء الشرطة المسؤولين عن تأمين باب القاعة وتنظيم دخول الشهود من الباب، والتفت الحاضرون لمعرفة إلى أين ينظرُ القاضي.

نظرات القاضي لأمن القاعة تتوعدهم وتستفسر منهم عن ذلك المشرّد الواقف بينهم. تحدّث أحد الأمناء بصوت مهتز يخبر القاضي أن هذا الرجل هو من أن أصرَّ على الدخول، واستغل انشغالهم ودفع باب القاعة.. «عمران» صاح قائلاً إن لديه أقوالاً في القضية ستغيّر كل شيء. سأله القاضي بعصبية: «أيُّ قضية؟»، فردَّ قائلاً:

- قضية عجائبي وإنجي.

نظر القاضي إلى النيابة ومحامي «عجائبي» وسألها إذا كانا يعرفان هذا الشخص.. هز الاثنان رأسيهما بالنفي. فصاح والد «عجائبي» قائلاً: «الدكتور عمران، دكتور «عجائبي» النفسي». استغرب «عمران» من تلك المُقدمة، لكنه هزَّ رأسه للقاضي مؤكداً أنه طبيب نفسي وأنه لديه معلومات بخصوص القضية.

فحص القاضي بطاقته، وأقسم «عمران» ألا يقول سوى الحقيقة. قال بكلمات مختصرة: «كنت على علاقة مع «إنجي»، و«عجائبي» اكتشفها، فقتلها، وأنا من أرسلت الصورة من حساب «إنجي» لحساب عجائبي». كأنها كان مختنقاً بالكلمات، أو يخاف من نفسه ألا يقولها إذا تردد، فنطقها كلها دفعةً واحدة.

أشار إليه القاضي أن يهدأ، وسأله عمّا يقصد بالصورة. نظر «عمران» إلى القاضي قائلاً:

- الصورة التي دخل عليها «عجائبي» وهي ترسلها لي.

صاح «عجائبي» من قفصه:

- كذاب يا حضرة القاضي، أنا قتلتها في لحظة شيطان واعترفت.

نهر القاضي «عجائبي» لكلامه، وسأل «عمران» عمّا كان يريد إضافة أي شيء.. تكلم «عمران» أن «عجائبي» أخبره في إحدى المرات أنه يشك في سلوك «إنجي»، وأنا نصحتة أن يهدأ ويتحرّى الدقة، ويبدو

أن كلامي هو ما دفعه للترتيب لمفاجأتها يوم الحادثة».

وقف محامي «عجايبي» مطالبًا بإثبات شهادة الشاهد في محضر الجلسة، وإثبات أنه اعترف بمحض إرادته أنه كان على علاقة بزوجة المتهم، وأن المتهم قد ضبط زوجته متلبسةً بالحديث وإرسال صور إلى الشاهد. قطع كلام المحامي صوتٌ ضجيج يأتي من الخلف.. خبط القاضي على المنصة مطالبًا بالهدوء. نظروا إلى مصدر الصوت

فوجدوا أم إنجي بين يدي زوجها وأبنائها يحاولون إفاقتها.. نظر القاضي إلى أحد الأمناء بطرف عينه، فهول إلى مكان التجمّع يطلب منهم الخروج بالسيدة من القاعة أو طلب الإسعاف من خارج المحكمة، نظر الأبناء حولهم يبحثون عن مُغيث فوجدوا «فاروق السبع» بين الحاضرين. نظر أحدهم إليه يناديه بنظرات واضحة، لكنَّ فاروق أدار عينيه عن السيدة وأبنائها.. كانت عين «فاروق» مثبتة على «عمران».

يُس الابنُ أن يتحرّك «فاروق» لمساعدتهم، فحمل أمه بين ذراعيه وجرى خارج القاعة. عاد الصمت يغلف القاعة، فوقف ممثل النيابة يطلب من المحكمة استجواب الشاهد. أذن له القاضي فوقف وكيل النيابة قائلاً إنه في حقيقة الأمر لا يرى طائلاً من استجواب الشاهد، وإن شهادته لن تُغيّر من مجريات القضية، لكنه سيستجوبه دفاعاً عن شرف المَعدورة، وردًّا لغيبه روح طاهرة انتقلت إلى دار الحق ولم يُعد لها لسان تُدافع به عن نفسها، فمن واجب النيابة أن تكون هي لسان دفاعها.

توجّه وكيل النيابة إلى «عمران» يسأله:

- هل هناك أي شهود على الجلسة التي حكى لك فيها الجاني شكوكه حول سلوك زوجته؟

- كُنّا في الميكروباص، وكان الوقت...

قال وكيل النيابة بصوت مرتفع:

- أرجو من الشاهد أن يُجيب بشكل مباشر: نعم أم لا؟

توجه القاضي إلى «عمران» قائلاً: ب(نعم) أو (لا) يا دكتور.

كرّر وكيل النيابة سؤاله

أجاب عمران:

- لا.

- هل دارت أي مكالمة بينك وبين المَعدورة تتضمن تفاصيل العملية الجنسية والعلاقة الحميمة؟

- لا.

- هل تقابلتما في أي مكان خاص تأمنا فيه أن يراكما أحد؟

- لا.

- هل لديك أي تسجيل أو فيديو أو صورة لوجودكما معاً في أوضاع حميمة؟

- نعم.

همهمت القاعة. وصاح «عجايبي» مطالباً «عمران» بالصمت.. وتوجه إلى القاضي يطلب منه أن يُصدر الحكم فوراً. استعاد القاضي هدوء القاعة، وطلب من «عمران» أن يُظهر دليله، وأن يعرضه لهيئة المحكمة حصراً إذا كان فيه ما يُسيء لحرمة الميتة، لتقرر هيئة المحكمة عرضه على لجنة الخبراء إذا ارتأت أنه ذو حيثية. فتح «عمران» هاتفه، بضع ثوانٍ وأصبح الهاتفُ جاهزاً للعمل. بحث في معرض الصور فلم يجد شيئاً.. قلب في الصور دون فائدة. نظر إليه القاضي يستعجله، فقال عمران:

- الصورة كانت هنا.

صاح وكيل النيابة موجهاً كلامه إلى المحكمة أنه لا وجود لأي صورة؛ فلا داعي للجنة خبراء. وقال أيضاً: «إن اسم الدكتور «عمران» ذُكر في التحقيقات أكثر من مرة، لكن بوصفه صديقاً ل«عجايبي» يقضيان بعض الوقت على المقهى معاً، وأن حرص والد الجاني على تعريفه بوصفه طبيياً نفسياً، هو امتداد للحيلتين الأولى والثانية التي أراد محامي الجاني أن يلعبهما؛ الأولى حين قدموا التماساً بالكشف على قوى الجاني العقلية، لكن أكدت الجهات المختصة أهليته القانونية، ومسئوليته الكاملة عمّا يصدُر عنه من أفعالٍ وأقوال، وأنه لا يُعاني من أي هلاوس أو ضلالات. وقد أكد الجاني أنه لم يطلب هذا الكشف، وأن المحامي قد طلبه عكس رغبة الموكل.

والحيلة الأخرى حين أرادوا تحويلها إلى قضية قتل عمدٍ دون سبق إصرار وترصد، وهو ما ينفيه المتهم نفسه بأقواله وتمثيله للجريمة؛ حيث أكد أكثر من مرة أنه وضع قطع ورق في كالون الباب ليمنع انغلاقه. وحجة دفاع المُتهم أنه كان يريد مفاجأتها كأبي زوجين، ولم يثبت في أي وقت وجود هدية مثلاً، ولا تذكرة سفر، ولا أي شيء يستدعي حيلة الباب. كما أن وجود السكين في يد المتهم فور دخوله المنزل قرينة تؤكد نية القتل حتى قبل بدأ المشاجرة المزعومة.

ولربما أراد المُتهم قتلها، وترتيب مسرح الجريمة ليبدو كسرقة بالإكراه في أثناء سفره أو وجوده في صلاة الجمعة، لكن صرخات المغدورة كانت أسبق لآذان الناس من ترتيبات الجاني».

ثم التفت وكيل النيابة إلى الجهة التي يجلس فيها محامي «عجايبي» وأهله. وأكمل قائلاً: «إنه من الواضح أن الهدف هذه المرة هو كسب مزيد من الوقت بتأجيل القضية المحسومة سلفاً. وإثارة الشك حول سلوك المغدورة من أجل الاستفادة من رأفة المحكمة عند إصدار الحكم. ربما لهذا اختاروا هذا التوقيت الدرامي الغريب لدخول الدكتور «عمران» إلى قاعة المحكمة». ثم وجّه كلامه بشكلٍ مباشر إلى محامي «عجايبي» قائلاً «ويبدو أن حضرة المحامي الفاضل ربما تناسى أن دوره كمحامٍ لموكل هو تنفيذ ما يُريده هذا الموكل، حتى لو كانت إرادة الموكل في غير مصلحته في ظنّ المحامي، ولا يجوز له المطالبة بشيء عكس رغبة موكله الذي اعترف بجريمته بشكل واضح دون أي ضغوطٍ أو تردد».

ثم توجه وكيل النيابة إلى المنصة قائلاً:

- لكن دعنا نفترض يا سيادة القاضي ويا حضرة المستشارين أنه كانت هناك علاقة إلكترونية بين المغدورة، رحمها الله، وبين هذا الطبيب، فإنها ليست جريمة، فالقانون واضح ومحدد في تحديد العناصر الواجب توافرها كي نُطلق على العلاقات أنها جريمة زنى، أو حتى دعارة.. سأنتقم مع عدالة المحكمة، إن رأيت عدالتكم، على أن هذا يُعد انحرافاً سلوكياً مشيناً.. لكن من المنحرف هنا؟ فتاة في مُقتبل العمر عاشت صدمة تلو الأخرى، من زوج مُخادع وابن متوفى، أم الطبيب الذي غزا الشيب شعره، والذي لجأت إليه طلباً لمعالجة روحها المنهكة، فاستغل علمه وخبرته، وانطلق من معرفته بمواطنٍ ضعفها وبواطن عقلها محولاً إياها من مريضة إلى فريسة؟ فلن يخلو الأمر من تلاعب وخداع متمكن مارسه الطبيب كي تُرسل إليه صورتها، التي لم يعرضها لنا الطبيب، ومن ثم تُثار الشكوك حول سلوكها، وهي التي لم يشهد عليها أحد، ولم يشر إليها حتى القاتل.

ثم توجه وكيل النيابة إلى «عمران» قائلاً باستهزاء مُبطن:

- سيناريو وجود الصورة ووجود علاقة بينك وبين المغدورة يا معالي الطبيب، وسيادة الحكيم، هو أفضل سيناريو لك.. فإني أعيدك أن تكون شاهد زور، جاء يرفع جبل المشنقة من على رقبة قاتل مُعترف، ويشوه سُمعة فتاة صارت بين يدي ربه، بالكذب تحت القسم.

التفت وكيل النيابة إلى القاضي قائلاً:

- إنه في الحتام يجب أن تتبصر المحكمة بما وراء هذه القضية.. وأنه حتى لو ثبتت تلك التفصيصة، فالأمر متروك لسلطة عدالتكم التقديرية، فلا نص واضحاً بتخفيف العقوبة أو بوجود جريمة ارتكبتها المغدورة، وللأسف لا وجود كذلك لنص يُجرم ما قام به «عمران»، بصفته فرداً لا بصفته طبيباً.

وإن رأفة المحكمة إذا طبقت في تلك القضية لوجود احتمالية ضعيفة للغاية للشك في سلوك الزوجة، وفسرت الشك لصالح المتهم، فإن ذلك سيُعد سابقة تستند إليها قضايا القتل في باقي الجمهورية.. وستفتح بذلك تأويلاً جديداً لتأويل جرائم الشرف.

سكت وكيل النيابة، ثم أكمل:

- إن جرائم الشرف أكثر من أن تُحصى في بلادنا رغم القواعد الصارمة لوصفها بجريمة شرف، فما ظنكم يا حضرة القاضي ويا سيادة المستشارين إذا أضفنا إليها باباً فضفاضاً أكثر. وفي قضية واضحة توفّر فيها دافع القتل مسبقاً، إذ أراد الزوج أن ينتقم من الزوجة التي فضحت كذبه بخصوص عمله ومركزه في الخليج، ثم حملها مسؤولية وفاة طفلها، رغم أنها لا دخل لها، وقال لها بصريح الكلام إنه سيقتلها؟!!

رفع القاضي رأسه للحضور، وتوجه إلى «عجايبي» يسأله عن رأيه فيما قاله الدكتور. رد عجايبي:

- كذب، والله كذب، خلصني من عذاب الضمير يا سيادة القاضي.

فتنهّد قائلاً بعنف:

- الحكم بعد المداولة.

انصرف القضاة؛ بمجرد انصرفهم قام والد «إنجي» وجرى ناحية «عمران».. لكمه في وجهه وانهاه عليه بالصفعات.

هرول «عمران»، فلم يجد مفرًا من الدائرة التي حاصره بها الرجل وأبناؤه.. عاد إلى الخلف، حتى اصطدم بالقفص الذي يقف فيه «عجايبي» ومجموعة أخرى من المتهمين.

اقترب منه أبو إنجي وضربه، تدخل الحاضرون للتفريق بينهما، وأمسكه أبناؤه.
قال الابن الكبير:

- سيدفع ثمن كذبه، لكن خارج المحكمة.

رد «عمران» بصوت مبحوح وهو يبكي:

- والله ما كذبت.

صفعه أبو إنجي عدة صفعات أخرى، حتى تدخل «الشاذلي» ووقف بين «عمران» وبينهم.

قال له أحد إخوتها: «لأجل ابنك بنتنا شرفها يضيع؟!»، لم يردّ الشاذلي، لكنه بكى.

دموع «الشاذلي» هدأت من حدّتهم، فاستجابوا للناس الذين يدفونهم للخلف.

ظل «عمران» أمام القفص، فأحاط به محامي «عجايبي» وأبوه.

قال المحامي لعجايبي:

- يجب أن تتكلم، يمكن أن نستأنف على الحكم لو ساعدتنا وأكّدت كلام الدكتور عمران.

لم يردّ عجايبي.. ابتعد عنهم جميعًا، ووقف في آخر القفص. عيناه معلقتان بعيني «عمران».

كلام كثير يجب أن يُقال، لكنها تحت وطأة الصدمات سكتا، صارا أبكمين.. من بعيد والد «إنجي» يراقبهما، العيون تتواصل بعضها مع بعض بما هو أكثر من الكلام، المصائب جمّدت الدموع، وجفّفت الكلام.

دخل القاضي إلى المحكمة، فصاح الحاجب: «محكمة».

ظل «عمران» ينظر إلى «عجايبي»، فبصق عليه «عجايبي».. لم يلحظ البصقة سواهما، وأبو إنجي من بعيد.

اهتز جسد أبو إنجي حين رأى «عجايبي» يبصق على عمران. شعر أن «عمران» صادق، فلم يحمله جسده للقيام انتظارًا لسماح القاضي لهم بالجلوس، فجلس مرتطمًا بالمقعد.

جلسوا، وفتح القاضي أوراقه.. قرأ.. وقرأ، مقدّمًا طويلة أتى في نهايتها: «تحويل أوراق المتهم لفضيلة

مفتي الجمهورية».

اقترب «فاروق السبع» من «عمران» المتكور على أحد مقاعد المحكمة.. كان إخوة «إنجي» يجلسون في آخر القاعة لكن عيونهم معلقة ب«عمران»، وقف معهم «فاروق» قليلاً قبل أن يرن تليفون أحدهم. صاح قائلاً: «أمي، وجرى إلى خارج المحكمة». تبعه باقي إخوته وأبوهم.

اقترب «فاروق» من «عمران».. وقف أمامه قليلاً ينتظر أن يلاحظ «عمران» وجوده، لكن «عمران» غفا.. هزه «فاروق» من رأسه، فقام «عمران» مفزوعاً يصرخ: «كفاية يا حاجّة، كفاية عليّ عذاب بتتك»، تراجع «فاروق» خطوتين إلى الخلف، ثم تقدم ببطء نحو «عمران».. مد يده ليرفع رأس «عمران»، رفع «عمران» رأسه قليلاً حتى تلاقت عيناه مع عيني «فاروق».

قال له فاروق بابتسامة: «قلت إنك ذئب منذ اللحظة الأولى». لم يرد «عمران»، ووضع رأسه بين ذراعيه على مقعد المحكمة. استمر «فاروق» في الكلام يخبر «عمران» بأنه يبدو أن المحكمة لم تر أن شهادته ذات قيمة لتخفف الحكم عن «عجايبي».. ولكن فاروق يرى لها قيمة أكبر مما يتصور أي أحد.. رفع «عمران» رأسه، فقد ظن أن «فاروق» سيكشف له شيئاً يساعده.

لكن «فاروق» نظر إلى الهواء كأنها يقرأ من ورقة مكتوبة، وقال مخاطباً عمران: «تخيّل معي، مذكرة موجهة إلى النقابة العامة، مكتوب فيها: (لمن يهّمه الأمر، من اللجان ذات الاختصاص في النقابة العامة للأطباء، برجاء التحقيق مع الطبيب المذكور لمخالفته أخلاقيات المهنة وتجاوز حدود العلاقة الأخلاقية بين الطبيب ومريضه، وذلك وفقاً لاعترافه الرسمي والمثبت في محضّر جلسة المحكمة المرفق، كما ارتكب المذكور مخالفات أخرى؛ إذ كشف بيانات مرضاه علانية دون أمر قضائي رسمي، ودون مناقشة أهل الاختصاص من القانونيين في جدوى ما كشفه)».

تمّت